الدكتور محمد مخزوم

# مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي

## (عصر النهضة)

دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة

مدخل
لدراسة التاريخ الأوروبي

# مَدْخَلُ لِدِرَاسَةِ التَّارِيخِ الأُورُوبِي

## (عَصْرُ النَّهْضَة)

---

تأليف
الدكتور محمّد مخزوم
أستاذ التاريخ الأوروبي
الجامعة اللبنانية

دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة



نشر وتوزيع
دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب : ٣١٧٦ - برقياً : كتالبان
تلكس : KTL 22865 LE
هاتف : ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ٣٤٩٢١٩



الطبعة الأولى
١٩٨٣

## الاهداء

وفاء الى روح أخي حسن

# مـــدْخَل

لقد مثل عصر النهضة امتداداً لما سبقه من تيارات فلسفية واقتصادية وعلمية وأدبية عرفتها اوروبا في العصور الوسطى. فمن الناحية الزمنية يبدأ بتراجع مؤسسات القرون الوسطى وانحلالها منذ القرن الرابع عشر، ليمتد حتى يشمل القرن السابع عشر في غرب اوروبا. في حين ان بعض دول شمال وشرق اوروبا، ظلت تعيش ضمن مفاهيم القرون الوسطى حتى مطالع القرن التاسع عشر.

فعلى الصعيد الاقتصادي شهدت النهضة تحولاً جذرياً بين ما كان سائداً في اوروبا في العصور الوسطى من اقتصاد « عيني » إلى اقتصاد نقدي. مما يعني تداعي الاقطاعية التي كان وجودها يتعارض مع تشكل البورجوازية النامية. أما الفكر الاقتصادي فقد أخذ بدوره يشهد استقلالاً عن المفاهيم الدينية التي كانت سائدة. فأقيمت المصارف وظهر الرأسمال الربوي وانتشر التعامل بالصكوك والعقود المكتوبة ووضعت قواعد اقتصادية تحدد علاقة المواطن بالدولة. واضحت المنازعات الدولية تقوم على اساس المصلحة الاقتصادية دون مراعاة للمذهب الديني. اما الكشوف الجغرافية فقد ساهمت في عملية التوسع التجاري، وفتحت اسواق جديدة تدفقت منها الاموال على اوروبا. اما الانتاج الحرفي فقد شهد تطوراً عظيماً على أثر تزايد الحاجة الى الانتاج السلعي مما ادى الى تسريع عملية التوسع الصناعي وازدهاره.

اما على الصعيد الفكري فقد شهد هذا العصر تبدلات فكرية عميقة تختلف عن مفاهيم العصور الوسطى. فتمتع انسان النهضة بالفردية والجرأة واحتقار الخرافات والتقاليد والتحلل من سيطرة رجال الدين حتى عرف القرن السادس عشر هبوطاً عظيماً للسلطة الروحية. كما نمت في هذا العصر الاتجاهات القومية للأمة وترسخت فيه سلطة الملوك المطلقة، فوجدت الحدود القومية للدولة، ونظمت الواردات والضرائب، ووحدت التشريعات، وظهرت عدة نظريات سياسية، واتجاهات في الحكم، كان لها اثر بعيد في الحياة السياسية التي عرفتها اوروبا في العصور الحديثة.

اشتملت هذه الدراسة على سبعة فصول تضمن الفصل الأول منها كلمة موجزة عن السمات الاساسية للمجتمع الاوروبي في العصور الوسطى بحيث اعتبرت هذه السمات مدخلاً اساسياً لتاريخ عصر النهضة. اما الفصل الثاني فقد تضمن دراسة عامة عن اسباب قيام النهضة وعن بعض المظاهر الادبية والفنية التي اتسمت بها في بعض دول غرب اوروبا التي اعتبرت نماذج اساسية لحالات التعميم.

اما الفصل الثالث فقد تركز البحث فيه على خطوط الملاحة الجديدة التي الغت دور البحر المتوسط في التجارة وانعشت من جهة ثانية اقتصاد بعض الدول. فساهمت عموماً في تبدل اوضاع المجتمع وتحديداً في انتعاش الطبقة البورجوازية التي امتهنت التجارة فيما وراء البحار.

وقد خصص البحث في الفصل الرابع حول الحركة الدينية، بعيداً عن قضايا اللاهوت ومشاكله، حيث ساهمت التحولات الدينية في تفكك الاطر الاجتماعية التي كانت سائدة من قبل. فاحدثت انقلاباً عظيماً في المفهوم الديني وانقساماً خطيراً داخل الكنيسة التي حرص المسيحيون الغربيون وعلى رأسهم البابوية بالتمسك بوحدتها وعظمتها وتفوقها طيلة العصور الوسطى على كل ما عداها من مؤسسات زمنية.

وعند معالجتنا للفصل الخامس « النظام المطلـق » فقد خصص البحث في معظمه عن الملكية الفرنسية كنموذج للملكات الاوروبية المطلقة. والمحنا الى ما حققه البرلمان الانكليزي من انتصـارات على الملكيـة مـن منظـور تـأثير التغيرات الاقتصادية التي عرفتها انكلترا قبل غيرها من دول اوروبا. فاحدثت بدورها تغيراً جذرياً في مفهوم السلطة السياسية في القرن السابع عشر توطدت حقوقيته في عدم خضوع البرلمان لمشيئة الملك حتى تم النصر النهائي الذي تمثل في ثورة سنة ١٦٨٨ الجليلة.

اما في الفصل الخاص باختلال توازن القوى فقد انطوى الحديث عنه حول نمو وقيام دولتي الروسيا وبروسيا اللتين ستلعبان منذ قيامها دوراً مهماً في اتجاهات السياسة الاوروبية، وفي التوازنات الجديدة، التي اخذت تظهر منذ القرن الثامن عشر وعلى الاخص في حروب هذا القرن.

اما الفصل السابع فقد تضمن مختلف الاتجاهات الفكرية التي سادت عصر النهضة ومطالع العصر الحديث وقد انقسمت الى تيارين اثنين دعا اولها الى وجوب تركيز السلطة بيد « الأمير » لتحقيق وحدة الامة والدفاع عن حدودها السياسية رافضاً في نفس الوقت ازدواجية السلطة التي كان يمارسها كل من البابا والامبراطور أو أسياد الأرض. اما الاتجاه الثاني الذي يعـرف بفلسفـة التنوير، فقد شملت انتقاداته النظام القديم بكل مؤسساته. داعياً الى الأخذ بمذهب سيادة الشعب واقامة العدل والمحافظة على حقوق الانسان الطبيعية المتجسدة في الحرية وحق التملك المقدس. وقد خاض فلاسفة هذا الاتجاه معاركهم ضد السلطة المطلقة على أرضية سياسية بحتة بعد ان تجاوزوا الصراع الديني الذي اتخذته البورجوازية في القرن السادس عشر سلاحاً لها ضد الاقطاعية الدينية. فامتازت هذه الفلسفة بنزعتها العالمية، وأشـادتها بالانسان الحر، والنزعة الفردية، كما امتازت بمعاداتها لهيمنة الكنيسة، معتبرة العصر الوسيط مرحلة انقطاع حضاري للبشرية.

في الحقيقة ان هذه الفصول ذات الموضوعات المختلفة تكاد تظهر وكأنها مستقلة عن بعضها البعض. الا ان ما يجمع بينها كونها تشكل مفاصل اساسية لدراسة التاريخ الاوروبي الحديث. وان اكثر ما شدني نحو وضع هذا المؤلف المتواضع هو فقر المكتبة العربية عموماً للدراسات المتعلقة بالتاريخ الاوروبي سواء باللغة الاجنبية او باللغة العربية. كما توخيت من ذلك ان اضع بين ايدي الطلاب مادة يستنيرون بها ويعودون اليها في دراستهم لتوضح لهم طريق الدراسة وتبين لهم المسائل والقضايا البارزة في التاريخ الاوروبي في عصر النهضة.

وانطلاقاً من كل هذا اعتمدت في الاستشهادات بعد مقارنتها بالنص الاصلي على الكتب المتداولة والمتيسر الرجوع إليها عند الحاجة، خاصة تلك الكتب التي قام بتأليفها أو ترجمتها اساتذة ندين لهم جميعاً بهذا العمل القيم.

ولا يسعني اخيراً الا ان اتقدم بالامتنان العميق لزوجتي التي لم تتوان لحظة واحدة عن تشجيعي لاخراج هذا المؤلف وتشد من ازري لتذليل المصاعب التي كانت تعترضني وتقف حائلاً دون متابعة البحث وخاصة فيما يتعلق بندرة المراجع وصعوبة الحصول على المصادر الاساسية.

بيروت ١٩٨٢
د. محمد مخزوم

# الفصل الأول

# السِّمَات الأَسَاسِيَّة للمجْتمَع الأوروبي في العصُور الوُسْطى



## ١ ـ المجتمع الاوروبي في ظل الاقطاع:

اتصف العصر الوسيط في اوروبا ببروز ظاهرة الاقطاع الذي تشكل على اثر سقوط الامبراطورية الرومانية وانهيار مؤسسة الرق التي ساهم الاقطاع بالقضاء عليها، مهيأ الشروط اللازمة لولادة اسلوب انتاج جديد.

بدأت معالم النظام الاقطاعي الاساسية تبرز بشكل واضح في غرب اوروبا منذ القرن التاسع للميلاد على اثر ازدياد هجمات البرابرة على هذه المنطقة وتفكك الرابطة السياسية للحكومات المركزية التي اضعفها الانقسام والاقتتال لبعضها البعض[١]. وفي خضم هذه الفوضى وفقدان السيطرة على المناطق الزراعية النائية ازداد نفوذ الملاكين واخذوا ببناء قواتهم بمن تجمع لديهم من الاتباع الفلاحين (Vassal) الذين فقدوا ارضهم لكثرة الضرائب واعمال الرهن أو تنازلوا عنها لقاء الحماية «ان في استطاعتي حماية ارضي لا أرض الآخرين، فاعطني ارضك. ولسوف اردها اليك مقابل اجر بسيط»[٢].

وهكذا اصبح المجتمع الأوروبي في ظل انعدام المركزية، يدين بدورته الاقتصادية الى النظام الاقطاعي. ولما كان امتلاك الارض ينشأ عنه بالضرورة، والى حد بعيد، امتلاك السلطة فقد نشأ امتزاج بين الارض والسلطان ادى بدوره الى خلق تراتبية اجتماعية، يقف فيها الملك على رأس الهرم ويليه الاسياد ثم الطبقة الواسعة من الناس المرتبطة بمالكي الارض بحكم

علاقاتها الاقتصادية التي رسختها العلاقات الحقوقية الموضوعة من قبل الاقطاعيين.

اختلفت خصائص النظام الاقطاعي باختلاف البلدان التي نشأ فيها. ففي انكلترا كان ضعيفاً نتيجة لسيطرة النورمان وقوة السلطة المركزية. في حين ان ضعف الملكية في فرنسا وتفسخ السلطة فيها كانت من العوامل التي جعلته اكثر وضوحاً. بينما تأخر ظهوره في المانيا بسبب نظامها البدائي وشدة هيبة وسطوة الآباطرة فيها[٣]. ولكنه ظهر في الامارات الصليبية التي قامت في الشرق واضحاً كل الوضوح لأن الحكام الصليبيين كانوا اسياد السلطة السياسية واصحاب الارض في نفس الوقت.

تميز النظام الاقطاعي ببطء تقدم عملية الانتاج لطبيعة العلاقة بين السيد (صاحب الأرض والأقنان معاً) والمنتج المباشر (القن). فاتخذ الاقتصاد طابعاً مغلقاً اكتفائياً. وانتشر التعامل، بين الفلاح والسيد، بالمدفوعات العينية، وفرض اعباء السخرة كما كان يتم التبادل البضاعي بين الفلاحين انفسهم داخل الضيعة الاقطاعية الواحدة. اذن كيف تحددت العلاقات الاجتماعية في ظل الاقطاع؟ وما هي حدودها؟.

كان الملك في المجتمع الاقطاعي يعتبر من الناحية النظرية سيد الاقطاعيين في اعلا السلم الاجتماعي، ولكنه من الناحية العملية كان قد فقد سلطانه على الاقطاعيين الكبار. فبات الملك كسائر الامراء يعيش على ما تنتجه اراضيه الخاصة. ولهذا مثلت الملكية في العصر الوسيط العنصر التقدمي وبدا منذ القرن العاشر الميلادي تحالف الاسر الملكية مع سكان المدن امراً لا مفر منه ضد دويلات الامراء المتمردين.

اما عن بقية الاسياد الذين يصعب التمييز بينهم، فقد اختلفت القابهم باختلاف نوعية اقطاعاتهم ومراتبهم الاجتماعية كالدوق (Duc) والمركيز (Marquis) والكونت (Conte) والفيكونت (Vicomte). وكان هؤلاء في عهد

ما قبل الاقطاع يمثلون الملك في المقاطعات ويشغلون المناصب الادارية العالية فيها. فما لبثوا ان احتفظوا بالقابهم وامتيازاتهم واقطاعاتهم التي اما انتزعوها من الملك او انعم عليهم بها مقابل تعهدات خاصة اهمها تأدية الخدمة العسكرية.

والبارون (Baron) في العهد الاقطاعي يعتبر تابعاً من اتباع السيد الكبير أو المالك الاكبر. يتميز عن بقية الفرسان الاحرار بامتلاكه قصراً أو قلعة. فكان عليه لقاء منحه ارضاً ان يؤدي خدمات ضريبية معينة ويتعهد بتقديم الجنود او المال وقت الحروب. والعقد الاقطاعي يلزم البارون بتقديم واجبات متنوعة تجاه اتباعه من الفلاحين. كما كان يحق للسيد المالك استرداد ارضه اذا اخل البارون باحد الشروط أو اذا لم يكن له وريثاً.

ومع انعدام المراقبة الفعلية غدا البارون، بمساعدة وكيله، بموجب النظام الاقطاعي، المتصرف الوحيد بما يملكه من الأراضي. ولهذا كان يمثل البارون المستغل المباشر لجمهور اتباعه من الفلاحين الاقنان لأن الزراعة والفلاحة شكلتا قوام المجتمع الاقطاعي في اوروبا في العصر الوسيط.

شكل الاقنان في السلم الاقطاعي ادنى الطبقات الاجتماعية. فالقن فلاح قروي يعيش على قطعة من الارض يقدمها له الاقطاعي على ان تتناسب مساحتها مع مقدار اعبائه الاقطاعية. وهو لا يتمتع باي حق مدني على سيده وان كان القانون من الناحية النظرية يعتبره حراً. فعلاقته بالسيد علاقة عرفية تعاقدية وتبعية. ومصيره مرتبط بتعسف الاقطاعي واستبداديته، لكون العلاقة بينهما مزدوجة. اقتصادية من جهة وسيدية من جهة ثانية. فللاقطاعي الحق ببيع الاقنان وشرائهم دون أن يكون له الحق في قتلهم.

تميّز القن عن رقيق المجتمعات القديمة، بقدرته على العمل لنفسه وتكوين استثمارات، وبناء اسرة خاصة به. كما كان القن يمتلك ادوات العمل الزراعي الى جانب الحيوانات والطيور والبذار والعلف والمسكن والابنية الزراعية

ووسائل النقل والادوات المنزلية. والقن ارتبط بالارض ارتباطاً وثيقاً. فلم يكن يسمح له بترك ارضه الا نادراً. وكان من الممكن مصادرة ارضه وطرده منها. الا انه كان مصدر الاستثمار الاقطاعي الوحيد في القرون الوسطى. لذلك كان يتم الصاقه بالأرض لا تجريده منها.

اما عن استثمار الاقطاعيين الاسياد للأقنان الفلاحين، وان اختلف من مكان الى آخر، فقد اتخذ عدة اشكال كان أهمها اعمال السخرة التي يقوم فيها الفلاحون بالعمل في الارض الزراعية للسيد (الحراثة والبذر وجمع المحاصيل) بالاضافة الى قيامهم باعمال حرفية مختلفة كشق الطرق وحفر الخنادق واصلاح الجسور واقامة السدود وتشييد القصور والاديرة. وكان الفلاحون مرغمين ايضاً بدفع عدة مقررات تشمل المكوس والضرائب كضريبة الرأس (رمزاً للعبودية) وضريبة العشر على الانتاج وتشمل كل ممتلكات وانتاجية الفلاح، من المزروعات والمواشي والطيور والبيض... اما الاحتكارات فقد كانت متنوعة اذ كان القن ملزماً بطحن غلته في مطحنة سيده وخبز خبزه في فرنه وعصر كرومه وزيتونه في معصرته مقابل رسم معين يقدمه القن لسيده إما نقداً او عيناً. اما الاعباء التي تعرض لها الفلاح فقد كانت كثيرة كحالات الوفاة أو الزواج او الوراثة وهو ما يعرف بالحلوان . **(Relief)**

لقد وجد الى جانب الاقنان في المجتمع الاقطاعي فئة من المزارعين الاحرار كانت علاقتهم بالسيد الاقطاعي علاقة تعاقدية. فالقانون كان يفرق بينهم وبين الاقنان الا انهم كانوا يشتركون مع اهل القرية في تحمل الاعباء العامة للمجتمع القروي كاعمال الصيانة واقامة الاسوار.

مثّل العقد الاقطاعي بين السيد والتابع في العصور الوسطى، الرابطة القانونية الوحيدة بينهما. إذ كان التابع، بموجب هذا العقد، يحصل على قطعة من الأرض مقابل التزامات محددة نحو سيده المالك. وكان العقد يجري وفق مراسيم خاصة اولها يمين الولاء وذلك بان يقسم التابع لسيده قائلاً: « أقسم بان

أكون مخلصاً لك ومواليًا اخلاص التابع وولائه لمتبوعه. واتعهد بالقيام بذلك ما دمت تابعاً لك مقيماً على اقطاع من ارضك »[٤]. وبعد القسم تجري عملية تسليم الارض بتقديم السيد لتابعه علماً وعكازاً وشهادة يمنحه فيها الأرض. وهذا ما يسمى بالتقليد Investiture [٥].

اما الضيعة في العصور الوسطى فقد تكونت من مجتمع ريفي يؤلف وحدة انتاجية واجتماعية [٦]. لها ادارتها المحلية وقضاءها الخاص وكنيستها وقسيسها. يشترك سكانها مع بعضهم في اقامة احتفالاتهم واعيادهم وينتجون جميع المواد الغذائية ويقومون باعمال الحدادة والنجارة والبناء الى جانب عملهم الحربي. وقد مثل السيد الاقطاعي في الضيعة او في الدومين (مجموعة الضياع) التي يمتلكها، المستثمر الوحيد لمجموعة المرافق العامة والمنشآت اليدوية كالمخبز والمعصرة... وهكذا كان المجتمع الضيعي يشكل هيئة متعاونة لسد حاجاته المعيشية. فلا يرتبط مع غيره بأية روابط ثقافية او علمية او تجارية إلا ما اقتصر على الكماليات كالتوابل والحرير والعطور... الامر الذي ادى الى انهيار مكانة المدن في العصور الوسطى لكونها مراكز حرفية وتجارية ضيقة.

كانت المحكمة الاقطاعية الخاصة احدى وسائل الضغط « الشرعية » على الاقنان. يمارس السيد الاقطاعي بواسطتها سلطته على اقنانه من خلال تشريع وضع اساساً لمصلحته. فهو اذن « ليس مقيداً بقانون لم يشترك في تشريعه »[٧]. والاقطاعيون حصلوا على سلطاتهم القضائية عندما تخلت الحكومة المركزية عن سلطتها لهم. فكانت تمنح كالأرض او عن طريق القوة. وكانت احكامها مبرمة تصدر مستندة على العرف والسابقة اكثر مما تستند على نصوص مكتوبة. وكان من اهم قضايا المحكمة الاقطاعية النظر في عدم وفاء التابع بتعهداته التي نص عليها العقد او الفصل في الشؤون المتعلقة بالخدمات والالتزامات التي لم يتم تأديتها. والى جانب محكمة الاقطاعي الخاصة وجدت المحاكم الدينية وكذلك المحاكم الملكية التي كان اللجوء اليها من حق الاحرار فقط.

اكتسبت الفروسية اهمية عظيمة في العصور الوسطى. إذ اعتبرت مؤسسة من مؤسسات المجتمع الاوروبي التي يستند اليها النظام الاقطاعي. ولما كان الفارس قد أمتهن الحرب فقد ارتبطت الفروسية ارتباطاً وثيقاً بالحروب، واعتبرت ركيزة هامة لها. (الحروب الصليبية - حرب المائة عام - حرب الوردتين).

وينتمي الفرسان الى ذوي اليسار الذين يعيشون على استثمار املاكهم الصغيرة التي اكتسبوها بالتبعية. فكان على الفارس ان يمتلك حصاناً ودرعاً واسلحة وان تكون له القدرة التامة على التفرغ للحرب أو حضور الاجتماعات والمبارزة وصيد الوحوش الضارية وتقديم بعض الخدمات للسيد. وتحلى الفارس في العصور الوسطى بصفات التضحية والشهامة والشجاعة والتواضع والاخلاص والولاء الديني والغلو في تبجيل المرأة. ومن مصادر الفروسية التي تعطينا صورة واضحة عن حياتها شعر الملاحم (Poesie Epique) واغاني المآثر (Chansons de Geste) وابرزها اغنية رولان (Chanson de Roland). بالإضافة الى التروبادور (Les Troubadours) والتروڤير (Les Trouveres).

ونتيجة لأهمية مسؤولية الفرسان في المجتمع الاقطاعي، فقد تمتعوا بامتيازات اجتماعية واعفاءات ضريبية حتى اصبحت هذه الطبقة في العصور الوسطى المتأخرة اساس الطبقة الارستقراطية التي سيطرت على مقاليد الامور في اوروبا حتى ما بعد عصر النهضة.

## ٢ ـ المدن والتجارة في العصور الوسطى

أدى التطور الاقتصادي والاستقرار الامني اللذين عرفتها اوروبا منذ القرن الحادي عشر إلى قيام حركة تجارية مزدهرة صاحبها نمو مدن الامبراطورية الرومانية من جديد بعد ان اصابها الانحلال والتدهور منذ القرن الثالث الميلادي. فاستصلاح الاراضي على حساب الغابات والمستنقعات، وتطور أدوات العمل الزراعي، والانتقال من الدورة الثنائية إلى الدورة الثلاثية ادى إلى تطور الزراعة وزيادة الانتاج الزراعي عن الاستهلاك المحلي للضيعة الواحدة أو الدومين.

ولما كان النشاط التجاري يتطلب، في كل المراحل التاريخية، سيادة الأمن والاستقرار، فقد عرفت اوروبا منذ القرن الحادي عشر الشروط اللازمة له. إذ انتقل الأوروبيون من دور المدافع عن حدود نفوذهم الى دور المهاجم. وتمت لهم السيطرة على البحر المتوسط وجزره. وقامت الحروب الصليبية تحت ستار الدين، بتشجيع الرأسمال التجاري الاوروبي الذي احتكرته المدن الايطالية طيلة قرنين من الزمن.

ونتيجة لازدهار الانتاج الزراعي، وأزدياد التبادل السلعي، قامت الاسواق التجارية بتشجيع الاسياد، بجانب الحصون والقلاع والاديرة وملتقى الطرق. وغدت فيا بعد مدناً هامة بفضل تطور الصناعة الحرفية التي اصبحت تفوق صناعة الاقنان بكثير. فأقبل الاسياد على شرائها مما ادى إلى زيادة الربح وظهور الرأسمال التجاري. وأمام نفوذ الاسياد المتزايد نشأت جمعيات الاصناف او اتحادات الحرفيين (Corparations) التي اتخذت الشكل الاقطاعي في تنظيم عملية الانتاج وتحديد الاسعار والاجور وعدد ساعات العمل. وهكذا غدت المدن بفضل تطور الحرفة وازدياد الانتاج الزراعي مراكز تجارية هامة. وقامت جمعيات التجار فيها لمنع مزاحمة الاجانب ولتنظيم

المقاييس وتوحيدها، ولحماية حقوقهم ضد الاقطاعيين من المكوس التي فرضها هؤلاء على انتقال بضائعهم. ومع ظهور اتحادات الاصناف وجمعيات التجار غدت مدن العصور الوسطى تستثمر القرية اقتصادياً عن طريق اسعارها المفروضة ونظامها الضرائبي ورباها. في حين استمرت القرية بمؤسساتها الاقطاعية تسيطر على المدينة سياسياً.

كانت الحروب الصليبية من العوامل المهمة التي ساعدت على تنشيط التجارة في العصور الوسطى. ومثّلت المدن الايطالية الناشئة تجارياً، المحتكر الوحيد للتجارة بين الشرق والغرب [٨]. فلقاء نقل الصليبيين والاشتراك الفعلي في الحروب البحرية ضد المسلمين امتلكت هذه الجمهوريات المدن والمرافىء العديدة في الحوض الشرقي للمتوسط (طرابلس ـ بيروت ـ صيدا ـ صور ـ عكا). وسيطرت كذلك على مراكز مهمة داخل الامارات الصليبية التي تأسست. مما مكنها من السيطرة على تجارة الشرق الاوسط بأكملها. فالتجار العرب كانوا يأتون بحاصلات الهند من التوابل والعاج والبخور إلى حلب وعكا وموانىء مصر ويبيعونها لتجار المدن الايطالية بالاضافة الى منتوجات هذه البلاد من الحرير والزجاج والحبوب والعطور [٩]. وقد جنى التجار الأوروبيون الأرباح الضخمة من هذه التجارة مما حدا ببعض المدن الايطالية الوقوف الى جانب مصر احياناً ضد الصليبيين بغية ان تحافظ على مراكزها التجارية في تلك البلاد. وعندما جهز لويس التاسع ملك فرنسا حملته (١٢٤٨) باتجاه مصر وجد صعوبة فائقة في نقل جنوده الى الاسكندرية لأن البندقية امتنعت عن مساعدته بعد ان هددها السلطان الايوبي باغلاق موانئه بوجهها. وهكذا كان احتلال الصليبيين للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ بمساعدة البندقية، لتحقيق مكاسب تجارية لها في السيطرة على موانىء الامبراطورية البيزنطية التي كانت تصل اليها باستمرار حاصلات الشرقين الادنى والأقصى [١٠].

كما ان قرارات التحريم التي اصدرها البابوات بعد جلاء الصليبيين لم تستطع

ايقاف التجارة مع المماليك وقطع المواد الغذائية والسلاح والاخشاب والرقيق عنهم نظراً للقوة التي اصبحت تمتلكها المدن الايطالية في القرن الرابع عشر[11]. ومع ذلك فالنشاط التجاري الذي ساهمت به الحركة الصليبية لم يقتصر على المدن الايطالية وحدها بل ساهم فيه كثير من مدن غرب اوروبا كمرسيلية ومونتبليه وناربون وبرشلونه[12].

وبينما احتكرت المدن الايطالية التجارة بين الشرق والغرب، فقد وجد في شمال اوروبا مدناً تجارية هامة ايضاً تجمعت في العصبة الهانزية **(Hansa)** في القرن الرابع عشر. واسست لها هذه المدن، وهي في اغلبها مدناً المانية، مراكز تجارية هامة في انكلترا واسكندنافيا وبولونيا وروسيا ومارست نفوذاً سياسياً واقتصادياً عظيمين على دول اوروبا الشمالية. فحصلت على امتيازات كثيرة واعفاءات ضرائبية وتدخلت في اختيار الملوك والحكومات وامتلكت الاساطيل التجارية والعسكرية الضخمة[13]. فتم لها بذلك السيطرة التامة على سواحل البلطيق وبحر الشمال حيث احتكرت تجارة الجلود والفراء والصوف والحبوب والاسماك المجففة[14].

ومما ساهم في تنشيط حركة التجارة هذه قيام صناعة مزدهرة في المدن الفلمنكية، اقتصرت على التخصص في المنسوجات الصوفية والقطنية والسجاد. ومنذ القرن الثاني عشر نشطت هذه المدن بحكم موقعها بين الشمال والجنوب كوسيط تجاري بين دول اوروبا. وباتت تسيطر على عملية تبادل البضائع والمنتوجات الشرقية والغربية بين المدن الايطالية ومدن شمال اوروبا وذلك بأسطولها البحري وتنظيمها للقوافل التجارية البرية.

ولم يقتصر النشاط التجاري على اسواق المدن الكبرى في اوروبا فحسب، بل تعداه الى قيام اسواق تجارية هامة غدت في القرن الثاني عشر مراكز عظيمة لتبادل البضائع لأهمية موقعها الوسطيّ. ومثلت منطقة شمبانيا **(Champagne)** في فرنسا اهم الاسواق الاوروبية لعرض المنتجات والتبادل التجاري.

كان للنشاط الاقتصادي، خلال هذه المرحلة التاريخية، اثره البارز على الحركة الانسانية التي عرفتها مدن العصور الوسطى، قياساً على ما ساد الضيعة الاقطاعية من بطء شديد في عملية التطور هذه. فالمدينة في نضالها الطويل ضد النفوذ الاقطاعي ساهمت في تقويض دعائم نظامه باقامة مؤسسات جديدة كالمصارف والمجالس البلدية والنقابات والمحاكم الخاصة، اعتبرت اشد متانه واكثر حاجة من مؤسسات العصور الوسطى. وبحلول القرن الثاني عشر كانت المدن الاوروبية قد اتخذت شكل الحكم الذي حصلت عليه عبر نضالها ضد النبالة. فتوزعت في مجموعات متفاوتة، فالمدن الحرة (Villes Franches) تمتعت ببعض الاعفاءات وكان لبعضها هيئات منتخبة ومحاكم وقوانين خاصة بها ولكنها بقيت تحت سيادة الاقطاعي يمارس عليها نفوذه بواسطة نائب له يدعى (Prevot). وقد وجد هذا النوع من المدن في شمال فرنسا ومناطق الفلاندر حيث ما زالت قبضة الاقطاعيين اشد مما كانت عليه قبضة البورجوازية التجارية الناشئة. أما المدن المعروفة بالقوميونات (Communes) فانها تمتعت باستقلال سياسي واداري تامّين. فكان لها قوانينها ومحاكمها وشعارها وهيئاتها الانتخابية ومؤسساتها الاجتماعية والدفاعية. وقد حصلت هذه المدن على استقلالها عبر نضالها الطويل ضد نفوذ الاساقفة والاباطرة وعلى الأخص في شمال ايطاليا (توسكانيا و لمبارديا). وقد وضعت هذه المدن المشكلة المعروفة بين السلطتين الزمنية والروحية، بمشكلة القوميونات في القرن الثاني عشر وكانت المدن القنصلية (Villes de Consulat) اكثر المدن استقلالاً ويطلق عليها اسم جمهوريات[١٥] لكونها اتخذت عند نشأتها النظم الديموقراطية الى حد ما اساساً لادارة شؤونها. وسميت بالقنصلية لأنه كان يتولى حكمها قناصل منتخبين من قبل الجمعية العامة لسكان المدينة الحائزين على الرعوية فيها. وقد وجد هذا الشكل من المدن في وسط ايطاليا وجنوبها (البندقية - جنوى - بيزا) وكذلك في المانيا والفلاندر وجنوب فرنسا حيث بدت قوة الاقطاع في تلك الجهات ضعيفة ومفككة امام القوة الاقتصادية التي امتلكها سكان تلك المدن عبر تجارتهم بين الشرق والغرب.

وبهذا الصدد يذكر فيشر انه: «في انكلترا انـدمجت المدن في نظـام بـرلماني قومي حد من استقلالها. ولكنه زاد من فائدتها، وفي فرنسا بدأت المدن بحركة قوميونية، وانتهت بالرضوخ لسلطان الملوك. اما في المانيا وايطاليا، فلم توجد حكومة مركزية تستحق الذكر، فلا ملك مهيمن على شؤون المدن، ولا برلمان ضابط لنواحي النشاط المدني، وهذا هو السبب الذي ادى بالمدن ان تبلغ في المانيا وايطاليا اقصى ما تستطيع من قوة واستقلال في العصور الوسطى، حتى صار عدد منها دولاً داخل الامبراطورية، والف بعضها اتحادات للتجارة والحرب، وانزل بعضها الأخر بالامبراطورية نفسها هزيمة ساحقة» (١٦).

وبنمو تجارة مدن العصور الوسطى اخذ التعامل النقدي يحل محل التعامل العيني. ومنها انتقل إلى الأرياف. فاصبح شراء الحاجيات الكمالية والمنتجات الحرفية من المدينة يتطلب من الاقطاعيين الحصول على النقد مما ادى بهم إلى استبدال اعمال السخرة في اقطاعيتهم بدفع كمية من النقود كان الاقنان يحصلون عليها من بيع محاصيلهم الفائضة عن الاستهلاك. وهكذا ساهمت المدن في تحطيم النظام الاقطاعي لكونها احلت نظام الاقتصاد النقدي المتعارض مع الوجود الاقطاعي الذي يدين بوجوده إلى نظام الاقتصاد الطبيعي.

## ٣ ـ هيمنة الدين

صَاحَبَ عملية انتشار التعاليم المسيحية بطء شديد. ومع ذلك فقد احدثت هذه التعاليم ثورة حقيقية داخل المجتمع الوثني. وبرز تباين حاد بين هذه التعاليم وبين النظم والتقاليد التي كانت سائدة في الامبراطورية الرومانية. فالدعوة الى المحبة والسلم ونبذ عبادة الاوثان وعدم الاعتراف بتأليه الامبراطور ورفض الخدمة في الجيش شكلت تهديداً مباشراً لأسس الدولة والطبقة الممتازة الحاكمة وخطراً عظيماً على الجهاز العسكري.

ورغم الاضطهاد الشديد الذي مارسه الاباطرة والحكام على المسيحيين، فقد استمرت الدعوة في الانتشار بل زادها الاضطهاد اندفاعاً لكون الشهادة بنظر المسيحيين طريقاً يوصل الى دنيا الخلود.

وهكذا استطاع المسيحيون، بفعل الايمان الديني، بعد مرور قرنين وربع القرن من النضال العنيد، انتزاع صك الاعتراف بهم، من قبل الاباطرة، كقوة ضمن الامبراطورية الرومانية، لا يمكن تجاهلها.

ولهذا فإن الجهاز السياسي في الامبراطورية الرومانية المتمثل بسلطة الامبراطور، قد اقام بعد الاعتراف توازناً اجتماعياً ملموساً بين القوتين الوثنية المنقسمة والجهاز الكنسي المتماسك، وهو في نفس الوقت قد خفف من مشاكل المسيحيين الثائرين ضد مؤسسات الحكم القائمة. وبهذا فقد اخذت الكنيسة منذ تاريخ الاعتراف بها تنمو في احضان السلطة الزمنية حتى القرن التاسع الميلادي عندما اصبحت قوة أكثر تماسكاً في غرب اوروبا من اية مؤسسة اخرى من بينها الامبراطورية نفسها. وكان ضعف البابوية في الغرب في اوائل العصور الوسطى ناتجاً عن كون القوة السياسية الفعلية كانت بيد البرابرة الذين اشعلوا الحروب الاهلية واوجدوا نوعاً من عدم الاستقرار السياسي في جميع

الانحاء. كما انغمس رجال الدين في النزاع القائم حتى بات صوت الكنيسة غير مسموع بين قعقعة السلاح. بالاضافة إلى ان الامبراطور البيزنطي كان ينظر إلى ازدياد قوة البابوات بقلق شديد لذلك استمر في مراقبته لهم من خلال ارسال المندوبين إلى اوروبا والحملات العسكرية اذا اقتضى الأمر.

وأمام ازدياد خطر القبائل اللمباردية على املاك البابوية في ايطاليا، في القرن الثامن، سارعت البابوية عندها إلى الاستعانة بملك الفرنجه، شارل مارتل، واعلان خضوعها التام له رغم انه لم يتوان عن تقليص نفوذها في دولته. وبقضاء بيبن (Pepin) على دولة اللمبارديين ازدادت قبضة الدولة على الكنيسة مما مهد إلى ظهور النظرية المعروفة بالقيصرية البابوية في الغرب (Césaro Papisme). اما عن علاقة الكنيسة بالدولة في العهد الكارولنجي فقد تمثلت بازدياد سطوة الدولة عهد شارلمان الذي استغل نفوذه القوي وامتلك صلاحية تعيين الاساقفة والدعوة إلى عقد المجامع الدينية وتولى رئاستها وتحديد حقوق رجال الدين وواجباتهم في دولته، بل انه اعتبرهم اتباع دون تمييز عن الكونتات.

اما في القسم الشرقي من الامبراطورية البيزنطية فما زالت سلطة الاباطرة قانوناً وعرفاً، اقوى من سلطة الكنيسة الممثلة برجال الدين. لهذا فقد اعتبر الاباطرة الشرقيون الكنيسة مؤسسة من مؤسسات الحكم يمارسون عليها نفوذهم كما يمارسونه على الجهاز الاداري في تعيين البطاركة وعزلهم. وظهرت القيصرية البابوية في اوضح معانيها في قول اسقف جستنيان «يجب الا يحدث شيء في الكنيسة ضد رغبة الامبراطور[١٧]» وكذلك في رسالة ليو الثالث الايسوري التي بعث بها إلى البابا غريغوار الثاني بانه «امبراطور وقس»[١٨] هذا وقد بلغت سطوة الاباطرة على الكنيسة بأن اخذوا يحددون عقائد الكنيسة بمنشورات امبراطورية (كمرسوم الايمان الذي اصدره هرقل ومرسوم التيبوس الذي اصدره قسطنطين الثالث) وإلى اعتبار المجامع الكنسية بمثابة برلمانهم الديني. وذهب بعضهم إلى وضع الاناشيد والترانيم الكنسية

وفرض الطقوس والقاء تهمة الهرطقة على كل معارض لسياسته الدينية أو الزمنية. وكان استمرار سيطرة المؤسسة الامبراطورية في الشرق على الكنيسة طيلة العصور الوسطى يعود إلى الانقسامات المذهبية التي شهدتها الكنيسة الشرقية منذ القرن الخامس وتخوف الاباطرة من انعكاساتها السياسية وخاصة على الولايات الشرقية (سورية وفلسطين ومصر) وولاية شمال افريقيا حيث تتواجد اجناس كان لها من قابلية الانقسام فيما بعد اثر بعيد على كيان الدولة البيزنطية. ومما ساهم أيضاً في شدة قبضة الاباطرة على الكنيسة في الشرق الاقتصاد النقدي المتين الذي عرفته الامبراطورية البيزنطية وهيأ لها حكماً بيروقراطياً مركزياً متماسكاً بواسطة جيش من الموظفين والجند الذين هيأوا للدولة بدورهم الامن والاستقرار وسبل الدفاع عنها.

وهكذا سقطت كل المحاولات المساندة لاستقلالية السلطة الروحية عن سيطرة الاباطرة امام تمسك هؤلاء بهذه السلطة. وكان من اهم دعاة حزب الكنيسة البطريرك فوتيوس الذي نادى بعدم وجوب تدخل الامبراطور في الشؤون الدينية. ولكن اشهرهم يوحنا الدمشقي الذي اعلن قائلاً «نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية، اي في الولاء والضريبة وما يحق له علينا من الجبايات. أما في الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس وشارحوا القوانين الكنسية. فالتنظيم السياسي من اختصاص الامبراطور، اما التنظيم الكنسي فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين، وليس تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية»[١٩].

وعندما بدأت احوال الكنيسة تستقر في الغرب بعد القرن التاسع بما حصلت عليه من هبات[٢٠] وما اكتسبته من نظريات التفوق[٢١] وما جنته من اعمال التبشير بالمسيحية تحت جناح البابوية، بين القبائل التي اخذت منذ هذا القرن تجنح نحو الاستقرار والتمركز النهائي وتتخلى عن سلوكها العشائري في ظل النظام الاقطاعي الذي بدأت تظهر معالمه الاساسية بوضوح، ظهرت مشكلة تحديد مصالح الطرفين: البابوية وما تمثله من سلطة روحية،

والامبراطورية وما تمثله من مؤسسات زمنية. فمنذ حركة الاصلاح الداخلي التي قامت بها البابوية اوائل القرن الحادي عشر، متمثلة باصلاح السلك الكهنوتي الذي نص على منع السيمونية [٢٢] وزواج رجال الدين ووجوب وحصر انتخاب البابوات بالكرادلة ورفض تعيينهم من قبل الاباطرة، وبعد ان اصدر البابا غريغوار السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) ما عرف بـ «الارادة البابوية [٢٣]» اخذ الاباطرة يتخوفون من هذا المنحى الاصلاحي. فوقع الخلاف الذي تطور إلى صراع مسلح بين السلطتين انقسمت اوروبا على اثره إلى حزبين لكل منهما دعاته وفلاسفته وحججه.

كان انتصار البابوية العسكري على الجهاز الامبراطوري في الحروب التي قامت بينهما، منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر [٢٤]، يزيد من هيمنة الكنيسة على المجتمع الوسيط. فباتت سيادتها السياسية اوطد رسوخاً من سيادة السلطات الزمنية في كل غرب اوروبا. فامتلكت ثروة عقارية هائلة، عن طريق الحروب الصليبية وصكوك الغفران، والنذور ثم الهبات التي يقدمها الحكام، ساهمت في اقامة (مصرف) نقدي يضاهي تقريباً ما حوته جميع خزائن ملوك اوروبا من اموال. فكان البابا يستغل هذه الثروة الاقتصادية العظيمة ويوزعها على الكهنة والمستشفيات والاديرة والفقراء. وبهذا مثلت البابوية على الصعيدين المادي والمعنوي، القوة الرادعة للأباطرة طيلة اواخر العصور الوسطى.

ومنذ القرن العاشر وعلى اثر تفسخ السلطة السياسية بوفاة شارلمان، اخذ الملوك يمنحون الاقطاعات الواسعة للأسقفيات لينالوا تأييد رجال الدين لهم ضد النبلاء. ومع ازدياد قوة الكنيسة اخذت تمتنع عن دفع الضرائب مكتفية بتقديم بعض المساعدات المحدودة للحكام.

والتنظيم الكنسي الاقطاعي في تراتبيته كان مشابها لمثيله السياسي بل يفوقه قوة ومتانة، اذ كانت ديمومته تثير حسد النبلاء وخوف الملوك. فبينما كانت الأرض المقطعة تنتقل من تابع إلى آخر بحكم الوفاة أو تحلل النبيل من العقد

كانت ملكية الكنيسة لها مستمرة حتى شبهت « باليد التي لا تموت ». وهكذا بررت الكنيسة الاقطاع وامتلكت حوالى ثلث الارض في بعض المناطق بمن عليها من اقنان. وكانت ضريبة العشور من اثقل الضرائب التي تمتد إلى جميع الفئات الشعبية. كما اصبحت الهبات التي كانت العامة تقدمها إلى رجال الدين باختيارهم، ملزمة. وكان للكنيسة اقطاعياتها ومحاكمها الخاصة التي يخضع لها اتباعها. ولما كانت الحروب الاقطاعية المتعارضة مع جوهر الدين تثقل كاهل الكنيسة لما تتطلبه حياة الجندية واقتناء الفرسان من مصروفات ضخمة فقد اوجدت السلام الآلهي ثم الهدنة الربانية التي حرّمت خلالها الحرب ايام الاعياد والصوم.

كانت دعوة البابوية إلى الحروب الصليبية ذات وجهين اساسيين: أولهما كوسيلة لمد سيطرتها ونفوذها على الكنيسة الشرقية بعد ان وصلت العلاقة بينهما إلى حد القطيعة الكبرى سنة ١٠٥٤. وثانيهما استغلال النزعة الحربية التي سادت المجتمع الاقطاعي في توجيهها تحت اشرافها نحو خدمة الغرض الديني الذي يؤدي بالتالي إلى تأكيد زعامتها العالمية. ومع ذلك فإن دفة الحرب الصليبية خرجت فيما بعد من يد البابوية لأن غالبية الامراء من الصليبيين الذين اشتركوا في هذه الحرب كانوا ينشدون تحقيق مكاسب مادية لهم في الشرق. كما ان اكثر ملوك اوروبا (باستثناء لويس التاسع) لم يخرجوا في حملاتهم إلا تحت اشتداد ضغط البابوية عليهم. اما الاقنان فقد اندفعوا نحو الشرق أملاً في وجود حياة اهنأ وافضل لهم أو هرباً من الانظمة الاقطاعية الجائرة المتمثلة بالالتزامات والخدمات والاحتكارات المتنوعة وقد عبّر عن ذلك ارنست باركر قائلاً: « تعتبر هذه الحروب فصلاً رائعا من فصول الرواية الضخمة التي تمثل الحياة البشرية. إذ انها عالجت الذروة من الجرأة والتقوى، كما انها هوت إلى احط مدارج الخزي والعار، وقد تنطوي ايضاً على نوازع المصلحة الشخصية. فالنوازع الدينية لم يكن الغرض منها سوى شراء الخلاص بثمن بخس، بينما ترمي النوازع الدنيوية إلى اقتناء الثروات وامتلاك الاراضي[٢٥] ».

ومع ان البابوية قد علت زعامتها في اوروبا على كل الزعامات الزمنية في اشعال نار الصليبية وتبنيها، إلا انها فشلت في اعادة الوئام بين الكنيستين. لأن هذه الحرب جسدت الكراهية بين المسيحيين الاغريق والمسيحيين اللاتين بسبب ما أتت عليه الحملة الشعبية الأولى من اعمال السلب والنهب في الأراضي التي اجتاحتها، وهي في طريقها الى القسطنطينية، ثم ما كان من احتلال الصليبيين للقسطنطينية في الحملة الرابعة التي استمرت ما يزيد على نصف قرن من الزمن (١٢٠٤ - ١٢٦٠) مما جعل المؤرخ اوسبنسكي يقول بهذا الصدد: «كانت معاملة الاتراك لسكان القسطنطينية أرحم من معاملة الصليبيين لهم خلال احتلالها عام ١٢٠٤ [٢٦]».

وما ينسب إلى البابوية من انتصارات في حركة الاسترداد القوية التي بدأت في شمال اسبانيا لا يعود في الحقيقة إلى العامل الديني فحسب، بل إلى ظهور النزعة القومية ورغبة الامراء في التوسع وزيادة الاقطاعات من جهة، وضعف الخلافة الاسلامية في قرطبة من جهة ثانية.

اعتبرت الاديرة [٢٧] من اهم المؤسسات الدينية التي اعتمدت عليها البابوية في تركيز نضالها ضد السلطة السياسية، بل معينها الذي لا ينضب من الدعم المادي، لما تملكه من الضياع والاراضي الواسعة، لمواجهة مصروفاتها الضخمة، وللحفاظ على رهبة الدين في قلوب العامة. ويشير فيشر إلى اهمية الاديرة بقوله: «إن الاديرة - فضلاً عن ايوائها اهل التقوى والنسك والهدوء من عواصف الحياة القاسية في العصور الوسطى - ادت من الخدمات للمجتمع في تلك العصور ما اضحى المجتمع الحاضر مستغنياً عنه، أو قادراً على الوصول اليه من مصادر أخرى. فالدير كان في كثير من الاحوال مركزاً لاعمال التبشير بالمسيحية في بلاد وثنية، ومصرفاً لايداع الاموال، ومنزلاً لراحة اصحاب الاسفار، ومالكاً للاراضي المفتقرة إلى الاصلاح والزراعة، ومقراً للتعليم والتوفر على العلم، ومجمعاً للفنون والحرف والصناعات التي تتطلبها مؤسسة كبيرة مستقلة بشؤونها وحاجاتها الكثيرة. والدير كان فضلاً عن ذلك

كله ملتقى الاخبار وسجلها، ومخزن المخطوطات النادرة وحافظها وهو كذلك مودع المسائل السياسية الخارجية منها والداخلية، وادارة استصلاح الاراضي البور، وسبيل ايصال المدنية إلى قفار الهمجية والوثنية »(٢٨).

أما العلم فكان من اهم الركائز التي اعتمدت عليها الكنيسة في القرون الوسطى. فالنشاط الفكري والثقافي بقي مقتصراً أو حكراً على رجال الدين، حتى اوائل العصور الحديثة، وان كان متفاوتاً بين بلد وآخر. فالتشريع كان يقوم على نفس الاسس التي تطبق في اللاهوت كما كانت حركة التاريخ مقتصرة على الصراع بين قوى الملائكة مع قوى الشيطان. وهو بالتالي تاريخ اخبار الكنيسة والقديسين وما ينسب اليهم من اعمال المعجزات وان كل ما ينزله المضطهدون بالمضطهدين من عقاب أو ظلم إنما هو امتحان لمدى احتمال هؤلاء أو تكفيراً عن خطيئة ارتكبوها. وفي كلا الحالتين لا تمتلك الكنيسة تجاههم سوى الابتهال والتضرع لله. كما ان الكنيسة احاطت نظرياتها الفلسفية « بهالة من التكريس الالهي » ولم تسمح لها بتخطي حدود الايمان « إن لم تؤمن لن تتعقل » وما عدا ذلك من نتاج اجتماعي ثوري لمصلحة الجماهير الواسعة من القنانة ضد الانظمة الاقطاعية الجائرة فقد اشير اليه بالهرطقة.

ومن جانب آخر قام رجال الدين بوظيفة التعليم خير قيام خاصة بعد ان تعرضت امبراطورية شارلمان إلى الانحلال بعد وفاته حيث زالت كل الصروح التعليمية التي أقامها في الامبراطورية الكارولنجية وبعد ان لمست الكنيسة فائدة التعليم في تمكين سيطرتها على فئة المتعلمين. فأخذت المدارس الاسقفية والديرية في الانتشار وأظهر الرهبان الذين امتهنوا التعليم الديني في الضياع والمدن حماساً فائقاً على العلم والتدريس. كما ساهمت الاديرة في اقتناء الكتب وحفظ التراث الكلاسيكي مما ترتب عليه قيام عصر النهضة الأوروبية فيما بعد.

أما المجامع الدينية التي عقدتها الكنيسة فقد كانت سلاحاً حاداً بيد البابوية توجهه ضد التجاوزات التي تحصل بنظرها ضد الدين. فيرمي

المخالفون بتهمة الهرطقة والحرم الكنسي. وأما ان تُستغل في اصدار القرارات البابوية التي تختص بتنظيم الكنيسة أو التي تؤكد على سمو مرتبة البابا والسلطة الروحية التي يمثلها.

## ٤ ـ ازمة الاقطاع

ارتبطت عملية التبدل في جوهر العلاقات الاجتماعية التي عرفتها اوروبا خلال العصور الوسطى بجملة من العوامل امتد بعضها من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر. وان اختلفت هذه العوامل بين مكان وآخر الا أنها في مجملها حطمت اقطاعية القرون الوسطى وما تفرّع عنها وما ارتبط بها من مؤسسات وايديولوجيات سياسية ودينية واقتصادية وأحلت مكانها مؤسسات بورجوازية تختلف عنها في هيكلها وبنيتها وغايتها. ومن اهم هذه العوامل:

ـ ترتب على ازدهار التجارة في اوروبا منذ القرن الثاني عشر استخدام النقد بشكل واسع. ومع ازدياد حاجة الاسياد الى النقود لشراء حاجياتهم التجارية والصناعية (توابل ـ نسيج ـ أسلحة ـ حرير ـ فراء ـ عطور...) ومع انتقال السلطة الى الملوك واستغنائهم عن استخدام الجيوش الاقطاعية لقاء دفع ضرائب نقدية اخذ الأسياد ببيع اقنانهم واستبدالهم بعمال مأجورين. كما ادى انتعاش المدن وظهور الاسواق التجارية الى نزوح عدد كبير من الاقنان هرباً من جور الاسياد وطلباً لايجاد وسيلة للعيش في احضان الحرية. وهكذا اخذ الاقتصاد النقدي يحل تدريجياً محل الاقتصاد العيني مما عجّل في انهيار الاسس التي قامت عليها الضيعة الاقطاعية التي تعتبر من اهم الاركان التي قام عليها النظام الاقطاعي.

ـ ادت الحروب الصليبية وما نتج عنها من اعباء مادية (تجنيد المرتزقة وتقديم الاسلحة واجور النقل البحري) ونقص هائل في اعداد الاقنان الى اضعاف الاقطاعيين، خاصة الذين لاقوا الهزيمة الحربية منهم في الشرق وعادوا الى اوروبا لينهضوا باقطاعتهم من جديد.

ـ ساهمت حركة الكشوف الجغرافية في انتعاش البورجوازية التجارية من جراء استثمار الشعوب واتساع حركة التجارة العالمية. كما أدت ايضاً الى تفكك

الاقتصاد الطبيعي وقيام الانتاج الرأسمالي نظراً لتدفق الذهب والفضة على أوروبا وتوفر النقد المتداول. وكان للقوة والنفوذ العظيمين اللذين تمتعت بهما هذه الفئة من جراء تراكم الأرباح في ايديها وسيطرتها على المقاليد الاقتصادية ان بدأت تتطلع الى الحكم لحماية مصالحها التجارية فيما وراء البحار وفي قلب اوروبا. فساندت الحكومات الاستبدادية في تدعيم نفوذها على حساب الارستقراطية كما حصلت على تأييد الطبقة الثالثة لها واحتكرت تمثيلها في البرلمانات والمجالس بفضل نفوذها المادي وبراعتها الكلامية.

- ادى التطور الصناعي واشتداد الطلب على الصناعات في الاسواق العالمية الى الانتقال من الانتاج الحرفي البسيط الى الانتاج الضخم لتلبية حاجات السوق من السلع. وهكذا تطورت العلاقات السلعية فاصبح المنتج الصغير مرتبطاً بالتاجر بدل الاقطاعي، مما اضعف سلطة هؤلاء تدريجياً.

- برزت مع الملوك الاقوياء ظاهرة تدعيم السلطة المركزية في الدول التي اخذت تجنح نحو تثبيت سيادتها وحدودها القومية. فاخذ الملوك بالاستغناء عن جيوش الاقطاع واستخدام الجيوش النظامية لضربهم، وتجريدهم ايضاً من السلطات القضائية باقامة محاكم ملكية بدل محاكمهم. ولما كان من مصلحة البورجوازية تحطيم الحواجز الاقتصادية التي اوجدها الاقطاع واقامة توازن سياسي في القضاء على الامتيازات التي يتمتع بها النبلاء دونهم، وفك ارتباط الاقنان بالأرض لكونه يمدهم باليد العاملة الرخيصة، فقد تحالفت هذه الفئة الناشئة مع الملوك وقدمت لهم كل العون والمساندة المالية والدعم السياسي باقلام فلاسفتها وصالوناتها. واتخذ نضال البورجوازية ضد الارستقراطية الاقطاعية طيلة عصر النهضة عدة اشكال ثورية ظهرت في الثورات الفلاحية التي قامت في انكلترا وفرنسا والمانيا وروسيا وفي حركة الاصلاح البروتستانتي واخيراً في ثورة ١٧٨٩ الفرنسية التي كنست بقايا الاقطاع في فرنسا وزعزعت كيانه في جميع اقطار دول اوروبا [٢٩].

## ٥ ـ منابع الحضارة الاوروبية الحديثة ـ العرب والإسلام

مثلت الحضارة العربية احدى المنابع الرئيسية التي استقت منها اوروبا حضارتها. وما يشار اليه بعصر النهضة الأوروبية، في القرن الخامس عشر، انما يدين في الحقيقة بجذوره الاولى الى الحضارة العربية التي بلغت عصرها الذهبي بين القرنين التاسع والحادي عشر. وقد مثل العرب في هذه المرحلة دور المحافظ على التراث الكلاسيكي من جهة، ودور المبدع الخلاق في جميع الميادين الحضارية من جهة ثانية. ومع ان اوروبا عرفت النهضة الكارولنجية الا انها لم تكن نهضة شاملة كما انها اقتصرت على مناطق جغرافية محددة يقطنها شعوب مستقرة نجت من براثن القبائل الغازية البدائية. بينما امتازت الحضارة العربية في هذا الوقت بشموليتها وعالميتها. اذ تطعمت بحضارة اليونان والفرس والهند، واشتملت على جميع الميادين العلمية، وساهم بها مفكرون وعلماء من عناصر مختلفة. كما امتازت بانسانيتها حيث افادت منها شعوب الامبراطورية الاسلامية المترامية الأرجاء كما افادت منها شعوب الامبراطورية البيزنطية وغرب اوروبا. وقد تمت عملية تطعيم حضارة اوروبا القروسطية بالحضارة العربية اواخر العصور الوسطى عبر ثلاثة ميادين او منابع رئيسية لكل منها اهميته وميزته الخاصة وعناصره الحضارية المختلفة:

### أ ـ الاندلس وشمالي افريقيا

شكلت هذه المنطقة المتجانسة حضارياً الى حد بعيد الاهمية الأولى في عملية التمازج الحضاري بين الثقافة الاسلامية الشرقية والثقافة الأوروبية. فاسبانيا كانت ملتقى شعوب مختلفة حدثت فيها عملية امتزاج اجتماعي واسعة النطاق. كما كانت ملتقى اللغتين العربية واللاتينية. وقام عرب اسبانيا بدور

عظيم في جميع المجالات الثقافية والعلمية والادبية وكان من نوابغهم ابن باجه وابن رشد وابن طفيل وابن عربي والبكري والادريسي وابن جبير ثم ابن زهر وغيرهم من الذين بلغت علومهم من الدقة بحيث اقبل على مؤلفاتهم طلاب العلم من كل انحاء اوروبا. « فالشيء الذي لا يمكن نكرانه هو أن عرب اسبانيا خلقوا مدنية زاهرة واتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية في الوقت الذي كانت تنوء اغلب اصقاع اوروبا تحت نير الشقاء والاغلال مادية كانت ام روحية. اجل فقد لعب عرب اسبانية دوراً خطيراً [ عظيماً ] في تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها الى اعلى قنن الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر بظهور توما الاكويني ودانتي »[٣٠].

اشتهرت المدن الاسبانية الثلاث طليطلة وقرطبة واشبيلية[٣١] بعد سقوطها بيد الاوروبيين بازدهار حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية. وقد تم للأوروبيين فعلاً ترجمة الجزء الأكبر من تراث العرب في القرن الثالث عشر بواسطة مدارس الترجمة التي اقامها حكام واساقفة هذه المدن. وقد نسب الى جيرار الكريموني ( ١١١٤ - ١١٧٨ ) من مدينة طليطلة بترجمة ثمانين مؤلفاً في جميع حقول العلم والمعرفة. وهكذا تكون استفادة الغرب الحضارية من سقوط طليطلة قد فاقت استفادتهم منها كموقع جغرافي او ككسب حربي وسياسي. « ومن طليطلة ( المدينة ذات العقيدة الثلاثية ) انتشر التيار العظيم في مراكز الفكر العربي من جنوب فرنسا، ووصل الى دير كلوني وعن طريقه وصل الى اقليم اللورين، والمانيا، وانجلترا وكل اوروبا الغربية. وكان العرب قد اضافوا الى التقدم الانساني اهم اسهام في العصر الوسيط »[٣٢].

### ب - صقلية

تعتبر صقلية الميدان الثاني بعد اسبانيا الذي تم عبره انتقال الحضارة العربية الاسلامية الى غرب اوروبا. فالعرب حكموا هذه الجزيرة مدة قرنين ونصف القرن، ومعهم انتقلت حضارتهم اليها حيث كان المسلمون والمسيحيون يعيشون جنباً الى جنب.

قام حكام صقلية بالدور الأول لتثبيت دعائم حضارة العرب فيها. بل انهم جعلوها مركزاً من مراكز الاشعاع للثقافة العربية. واقاموا الاكاديميات والمدارس للترجمة ونقل العلوم الى الغرب. واشتهر من هؤلاء الحكام روجر الثاني (١١٢٩ - ١١٥٤) الذي كان بلاطه يزخر بالعلماء والادباء والمترجمين [٣٣]. ثم الامبراطور فريدريك الثاني [٣٤] (١١٩٧ - ١٢٥٠) الذي نشأ في صقلية وتأثر فيها بالثقافة العربية الاسلامية تأثراً بالغاً. كما انه اكتسب عاداته الشرقية اثناء حملته الصليبية المسالمة الى الشرق. فجعل بلاطه مشابهاً لبلاط الخلفاء المسلمين وجمع فيه عدداً كبيراً من العلماء والادباء من مختلف الاديان والجنسيات. وانشأ في نابولي اكاديمية لتدريس وترجمة علوم العرب الى اللاتينية [٣٥]. وهكذا لم يكن تقاعس فريدريك الثاني عن القيام بحملته الصليبية رغم تشدد البابوية ازاء هذا الأمر، الا لكونه قد فضل اقامة علاقات سلمية مع من كان يعتبرهم حملة مشعل الحضارة العالمية. ولهذا فقد كانت النهضة العلمية التي اقامها فريدريك الثاني في صقلية سلاحاً قوياً لمواجهة الحرم الكنسي الذي رمته به البابوية مرتين.

كما أن شارل دانجو (Charles d'Anjou) (١٢٦٦ - ١٢٨٥) لم يكن أقل تمشرقاً من فريدريك الثاني رغم كونه قد شارك في حملة لويس التاسع الى مصر. فجمع في بلاطه ايضاً المترجمين والعلماء والادباء حيث سادت فيه العادات والتقاليد الشرقية الخالصة. ويذكر جلال مظهر بهذا الصدد « تدلنا سجلات بلاطه الباقية حتى الآن، على ان شارل اهتم بترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية وانه كان لديه على التأكيد مؤسسة كاملة لهذا الغرض بما في ذلك مترجمون من العرب مثل فرج بن سالم وموسى السالرني ونساخون ومصححون مثل هنري الانجليزي. وهناك خطاب من الملك شارل مؤرخ في سنة ١٢٨١، يذكر فيه هنري وترجمة كتاب الحاوي للرازي. وقد ذكر الحاوي باسمه العربي في عدة خطابات اخرى وخطاب آخر للملك ايضاً مؤرخ في سنة ١٢٨٠ يشير الى تقويم ابن جذله عندما فرغ فرج بن سالم من ترجمته » [٣٦].

## ج - الحروب الصليبية

يؤكد اكثر المؤرخين الذين كتبوا في الحروب الصليبية ان الحضارة العربية قد انتقلت الى الغرب عبر اسبانيا وصقلية فقط وان الصليبيين كانوا عاجزين عن فهم هذه الحضارة مستندين بذلك على استمرارية العلاقات الحربية بين الطرفين وعلى ان الحضارة في الشرق كانت قد بدأت بالافول في وقت اصبح فيه المجتمع العربي مجتمعاً حربياً غير متجانس يسوده الاضطراب والتفكك والنزاعات المحلية على السلطة [٣٧].

صحيح ان الصليبيين لم يهتموا كسكان الاندلس وصقلية بنقل علوم العرب الى الغرب عن طريق ترجمتها او تدريسها. ولكنهم خبروا هذا العلوم عن قرب اكثر بفضل الاحتكاك المباشر اليومي الذي كان يتم عبر العلاقات الاقتصادية التي تزدهر اوقات السلم. وبفضل هذا الاختبار والفائدة من الاعمال الطبية والحسابية والفلكية والجغرافية ازداد اقبال علماء أوروبا واساتذتها على علوم العرب في جهات الاندلس وصقلية لكون جماعات الصليبيين العائدين الى بلادهم بعد ان فشلوا في الحصول على مكسب مادي في الأراضي المقدسة، كانوا يتحدثون عن حضارة العرب في الشرق بين ذويهم وفي مجتمعاتهم، ومما يؤكد ذلك ما قام به شارل دانجو عندما تولى العرش الصقلي بعد فشل حملته على الشرق. كما ان غالبية الاسياد من الفرنجة في الامارات اللاتينية قد اتقنوا اللغة العربية خاصة في عهد لويس التاسع وفريدريك الثاني [٣٨].

يذكر (Foucher de chartre) أحد مؤرخي الحروب الصليبية المعاصرين بما معناه ان الغربيين قد تحولوا الى سكان شرقيين. فالفرنسيون والايطاليون ليسوا الآن سوى مواطنين فلسطينيين وان ابن مدينة الريمس او مدينة شارتر قد تحول الى صوري أو انطاكي. لقد نسي الفرنجة اصلهم حيث اصبح الواحد منهم يمتلك بيتاً وعائلة ويتكلم لغة البلاد. ومن كان هناك فقيراً اصبح هنا يتمتع في بحبوحة العيش ومن لم يكن يملك في اوروبا حتى ضيعة صغيرة اصبح

هنا سيداً لمدينة باكملها. لماذا نرجع اذن الى الغرب طالما الشرق يحقق رغباتنا[٣٩]. أما ابن جبير الذي زار مدينة عكا في هذه الفترة. فانه يخبرنا بوجود بناء يجتمع فيه المسلمون والمسيحيون لاداء صلاتهم فيه وكل واحد يؤدي صلاته باتجاه الوجهة التي يفرضها ايمانه: «في شرقي بلدة عكا مسجد بقي محرابه على حالـه، ووضـع الافـرنـج في شرقيـه محرابـاً لهم. فـالمسلم (والكافر) يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه وهو في ايدي النصارى معظم محفوظ، وابقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين»[٤٠]. كما يذكر ايضاً مشيراً الى قيام علاقات ودية وسلمية بين الطرفين المتنازعين «ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القـوت واحسنوا اليهم ويقولون: هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم»[٤١].

اتاحت العلاقات التجارية ايضاً التي قامت بين الشرق والغرب اثنـاء الحروب الصليبية فرصة كبيرة للتعرف على احوال العرب وحضارتهم. وساهمت هذه العلاقات الى حد بعيد في نقل الثقافة العربية الى الغرب على ايدي التجار الأوروبيين الذين كانوا يفدون الى الاراضي المقدسة[٤٢]. واكتسبت اللغـات الثلاث الفرنسية والايطالية والانكليزية عن العربية معاني ومفردات لغوية متعددة خاصة فيما يتعلق بأمور البحرية. كما اطلق التجار الأوروبيون نفس المفردات اللغوية التي وضعهـا العـرب على كثير مـن التـوابـل والبهـارات والأقمشة والعطور. ويظهر ذلك جلياً في قواميس هذه اللغات الثلاث[٤٣].

وهكذا فإن الحروب الصليبية التي استمرت مدة قرنين من الزمن، وما تخللها من علاقات سلمية وحربية وتجارية ادت بطبيعة الحال الى تعرف الغرب على حضارة العرب عن كثب والى الاخذ بمقومات هذه الحضارة نتيجة الفائدة العظيمة التي اكتسبها الاوروبيون من ممارستهم لها في جميع مجالات العلم والمعرفة. ولا يسعنا الا ان نذكر بهذا الصدد بأن الأوروبيين بعد ان هضموا علوم الشرق واستوعبوها اقبلوا على ترجمتها ودراستها في القرن الثالث عشر

حتى سمي هذا العصر بعصر الترجمة من العربية الى اللاتينية. وهو ما يفسر عدم اخذ الأوروبيين بهذه الحضارة قبل ذلك. مع انه كان قد مضى على وجود المسلمين في اسبانيا وصقلية زهاء الخمسة قرون ومع ان حضارة القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ايام هارون الرشيد والمأمون قد وصلت الى عصرها الذهبي وفاقت حضارات العالم في ذلك الوقت.

## و - شواهد من تراث العرب والمسلمين العلمي

شملت المعارف الاسلامية والعربية التي تزود بها الغرب الأوروبي وكانت اساساً للنهضة الاوروبية جميع الميادين الحضارية. فالطب عند العرب والمسلمين إرتقى الى اعلى مكانته في العصور الوسطى، بعد ان استوعبوا طب اليونان وعلومهم. وكانت تأليفات الرازي حول الجدري والحصبة وكتابيه الشهيرين والمعروفين بالمنصوري والحاوي يعدان من احسن ما كتب في هذا الميدان. وقد ترجم الكتاب الاول جيرار الكريموني الى اللاتينية بينما ترجم الكتاب الثاني فرج بن سالم للملك شارل دانجو وطبع لأول مرة سنة ١٤٨٦ واستمرت طباعته تتجدد حتى القرن الثامن عشر نظراً لرواج تدريسه في جامعات اوروبا [٤٤]. اما ابن سينا اشهر اطباء عصره فقد كتب «القانون» في الطب وللدلالة على اهميته نشير هنا الى قول مايرهوف «انما هو تركيز لتراث المعارف الطبية اليونانية مضافاً اليها الزيادات العربية. فكان تأثيره على الطب عاماً وشاملاً. وهذا الكتاب يعتبر العمل الفريد وقمة المجد في تكوين المذاهب العربية. ترجمه جيرار الكريموني في القرن الثاني عشر الى اللاتينية وتوجد منه نسخ خطية لا حصر لها. ولقد طبع في الثلاثين سنة الأخيرة في القرن الخامس عشر ست عشرة طبعة. وهذه الطبعات لا تشتمل على ما طبع من اجزائه طبعات متفرقة او ما ألف في شرحه باللاتينية والعبرية واللغات الدارجة (الناشئة عن اللاتينية) فإنها سواء منسوخة أو مطبوعة لا يحصيها العد. واستمر العالم الاوروبي في طبع الكتاب وتدريسه حتى نهاية القرن السابع عشر. وربما لم يدرس كتاب في الطب على مر العصور كما درس هذا

الكتاب. ولقد بلغ الطب الاسلامي عن طريق ابن سينا عميد الاطباء واميرهم اوج عظمته »[٤٥].

ومن الاطباء العرب الذين نبغوا في الاندلس واقتصرت دراساتهم على هذه المهنة فقط ابن زهر واهم كتبه « التيسير في المداواة والتدبير ». كما يعتبر علي بن عيسى من اطباء العيون الشهيرين الذين بقيت كتبهم رائجة في اوروبا حتى القرن الثامن عشر.

لم يقتصر نبوغ العرب والمسلمين في المجال الطبي على هذه الشواهد من الاطباء النابغين فقط. اذ ان تطور صناعة الطب المختلفة ارتبطت بازدهار علم الصيدلة وإقامة المؤسسات الطبية المجانية كما ارتبطت هذه المهنة ايضاً بوجوب الحصول على ترخيص من الدولة. وهكذا ساهم العرب والمسلمون في احياء علم الطب وتطويره ورفعه فوق مستوى الشعوذة والخرافات، وتسخيره في خدمة الانسانية. فكانت مساهمة عظيمة في حضارة العصور الوسطى وشمعة مضيئه في تراثهم الحضاري. « ويرجع اكبر الفضل في بقاء الطب العلمي في بلاد الغرب اثناء العصور (المظلمة) الى الأطباء اليهود الذين نشروا المعلومات الطبية اليونانية ـ العربية في بلاد العالم المسيحي، وذلك عن طريق الثقافة البيزنطية التي انتشرت في جنوبي ايطالية وترجمة الرسائل الطبية اليونانية والعربية الى اللغة اللاتينية »[٤٦].

هذا ولم يكن نبوغ العرب والمسلمين في مجال العلوم يقل اهمية عما ابتدعوه في صناعة الطب. وقد تجلت مآثرهم العلمية في اختراعاتهم واكتشافاتهم وابحاثهم التي وضعوها في الحساب والجبر والهندسة والفلك وعلم البصريات التي اثبت العلم الحديث مدى صحتها. فكان استعمال الصفر والكسر العشري والارقام الهندية في العمليات الحسابية بمثابة ثورة حقيقية في تاريخ الحضارة العلمية[٤٧] . فالخوارزمي يعد من ابرز الشخصيات العلمية في العصور الوسطى الذين اشتغلوا في علم المثلثات والجبر كما اشتهر كل من ثابت بن قرة ونصير الدين الطوسي والفرغاني بمؤلفاتهم الفلكية والبتاني بعلم حساب المثلثات

اذ كان خطأوه في طول السنة الشمسية لا يتعدى الدقيقتين. اما البيروني شيخ علماء عصره فلم يترك علماً من العلوم الا وكتب فيه. فتجلت بحوثه في الفلك والتنجيم والأرقام الهندية والاسطرلاب والكثافة النوعية. ويعتبر الحسن بن الهيثم من اعظم علماء الطبيعة الذين وضعوا اسس علم البصريات حيث «أرسى قواعد الفكرة في ان الضوء هو العامل أو المؤثر الخارجي الذي يحدث منه أحساس البصر، وهي فكرة لم تكن مقررة ولا معتمدة»[٤٨]. ومما هو ثابت ايضاً ان العرب والمسلمين يعتبرون من واضعي اسس علم الكيمياء لما ادخلوه على هذا العلم من الدقة والملاحظة والتجارب[٤٩]. «ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم، ذلك ان المسلمين ادخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان - على ما نعلم - على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة. فقد اخترعوا الانبيق وسموه بهذا الاسم، وحللوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلاً كيميائياً، ووضعوا مؤلفات في الحجارة. وميزوا بين القلويات والاحماض، وفحصوا عن المواد التي تميل اليها، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية، وركبوا مئات منها»[٥٠].

كانت مساهمة العرب في تطوير علم الجغرافيا تسير جنباً الى جنب مع بقية العلوم. فكانت الجغرافيا الوصفية اهم منجزاتهم في هذا الحقل. فنبغ منهم المسعودي في «مروج الذهب» وياقوت في «معجم البلدان»، والادريسي في «نزهة المشتاق». ومما ينسب اليهم كذلك تصحيحاتهم للأخطاء التي وردت في كتاب بطليموس الجغرافي ووضعهم لخطوط الطول والعرض. ويذكر ابو الفدا في «تقويم البلدان» ان السفر حول الأرض باتجاه الغرب ينقص يوماً وفي اتجاه الشرق يزيد يوماً مما يدل على ايمانهم العميق بكروية الارض التي كان يُرمى قائلها في اوروبا بالهرطقة ومخالفة نصوص الدين.

## هـ - شواهد من تراث العرب والمسلمين الفلسفي والأدبي

ادى استقرار المسلمين وترفهم المادي الى انصرافهم للتفتيش عن أسلحة عقلية تدعياً لمذاهبهم السياسية المتصارعة على حلبة الدين. ولما كانت الفلسفة من امضى الاسلحة فقد اقبلوا على النهل منها. فنشطت الترجمة الى العربية وساد التسامح الديني انحاء العالم الاسلامي، مما سمح بهجرة علمية واسعة استقرت في بلاد الاسلام وبالتحديد في كنف بعض الخلفاء الذين افتتنوا بالفلسفة اليونانية وبسطوا حمايتهم الواسعة على الفلاسفة البيزنطيين اليونان والمترجمين من اهل الذمة. بل انهم سمحوا لهم بان يتقلدوا مناصب عليا في الدولة الاسلامية. وهكذا جمع المسلمون مادة فلسفية غزيرة نتيجة للتفاعل الحضاري العظيم الذي نشأ عن امتزاج بين الحضارات اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية ثم العربية. وكانت هذه المادة علمية خالصة. فالفلاسفة المسلمون كانوا في نفس الوقت علماء واطباء حاولوا مساندة الدين بالفلسفة كابن سينا والكندي والرازي. وتشير اراء المعتزلة الى ان القرآن اذا ما تعارض مع العقل فمن الواجب ان يفسر تفسيراً مجازياً وليس حرفياً. كما حاول ابن سينا ان يوفّق بين فلسفته وعقائد العامة مستنداً على العقل وحده.

والفلاسفة المسلمون كشفوا عن الفلسفة اليونانية وابدعوا في شروحاتهم لها. كما اضافوا عليها اضافات كثيرة وجعلوها وسيلة لخدمة الغرض الديني. وعندما عبرت فلسفتهم حدود الدولة الاسلامية الى الغرب اخذت تحدث داخل الكنيسة المسيحية الهزة العظيمة التي عرفت بعد نضجها بحركة الاصلاح البروتستانتي. ولهذا فإن البابوية تخوفت اول الأمر من اقبال الاوروبيين على الفلسفة والشروحات العربية المترجمة الى اللاتينية. فلجأت الى سياسة التوفيق بينها وبين اللاهوت كما حاولت وضع اللاهوت في خدمة الدين. وعندما حاول سيجر البرابنتي **(Siger de Brabant)** في القرن الثالث عشر التوفيق بين العقل والايمان، كما فعل ابن رشد حرمت البابوية تعاليمه. وهكذا فإن الغرب الاوروبي في العصور الوسطى مدين الى العرب بمعرفة

فلسفة اليونان وخاصة فلسفة ارسطو على ضوء شروحات ابن رشد لها حتى باتت تعرف باسم الرشدية اللاتينية (٥١). ويذكر ريسلر ان توما الاكويني الف كتاب « الخلاصة » لكي يناهض فكر ابن رشد. ولكنه لم يستطع غير ان ينهج نهجه في شروحه المتنوعة (٥٢). « ظلت فلسفة ابن رشد عاملاً حياً في الفكر الأوروبي حتى ميلاد العلم التجريبي الحديث. وقد حفظ اللسان اللاتيني اكثر من تأليف واحد لابن رشد فقدت اصوله العربية وكان لفلسفته في الغرب خلال فترة من الزمن ان تفخر باجتذابها اهتمام اعظم مفكري العصر » (٥٣).

أما عن اثر العرب الادبي في النهضة الاوروبية فيتضح في الكوميديا الإلهية لدانتي التي استمدها من قصة الاسراء والمعراج. ولعل دانتي قد اطلع على القصص الاسلامية الدينية التي تناولت هذا الموضوع من خلال علاقة الايطاليين التجارية مع العرب. او عن طريق صقلية المعبر الثاني للثقافة العربية الى اوروبا. وقد كشف الايطالي ميشال آسين بالاثيوس (Palacios) في دراسته « الكوميديا الالهية والاسلام » ان الاصول الاسلامية كانت الاساس الذي بنيت عليه الكوميديا الإلهية (٥٤). اما بوكاشيو (Bocaccio) فقد حذا في القرن الرابع عشر في كتابته « الأيام العشرة (Decamerone) » حذو ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وذلك لما نلمسه من مشابهة تامة بين قصصه وهذه. ومع ان الباحثين قد اختلفت اراءهم حول أثر العرب في اشعار التروبادور والشعر الاسباني الا انه لا يمكننا ان ننكر ما كان للغة العربية والشعر العربي الحماسي في القرون الوسطى من اثر بالغ على اداب الغربيين. « ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور ـ لا نستثني من هذا التعميم حضارة الصين في ايام لي پو، ودوفو، ولا حضارة ڤيمار (Veimar) حين كان فيها « مائة مواطن وعشرة الآف شاعر ـ الحضارة الاسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وثرائهم » (٥٥).

وهكذا كان اثر الحضارة الاسلامية عظيماً على العالم. وان هذا الاثر يعود الى العرب اكثر مما يعود الى بقية العناصر الذين اخذوا بهذه الحضارة.

واستطاع العرب على حد تعبير لوبون أن يكبحـوا بسلطتهـم جماح العنـاصر البربرية التي حطمت حضارة الامبراطورية الرومانية. كما انهم قدموا لأوروبا العلوم والاداب والفلسفة. فكانـوا بـذلـك محضرينا ومعلمينـا طيلـة ستـة قرون (٥٦).

## ٦ - منابع الحضارة الأوروبية الحديثة - بيزنطة

منذ تأسيس القسطنطينية واعتراف قسطنطين بالمسيحية، بدأت تتكون في القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية معالم حضارة شرقية مصطبغة بالصبغة الهللينية. هذه الحضارة التي تشكلت في بيزنطة، ذات الخصائص الفريدة، اظهرت الامبراطورية البيزنطية، خلال العصور الوسطى، سيدة العالم المتحضر، إلى جانب حضارة كل من بغداد وقرطبة. «وفي اثناء العصور الوسطى قبل الحرب الصليبية كانت هناك ثلاثة مراكز ثقافية عالمية، احدها في بلاد النصرانية وآخران في بلاد الاسلام، وهي القسطنطينية على البوسفور، وبغداد وقرطبة على طرفي العالم الاسلامي المتقابلين. وكانت القسطنطينية «المدينة التي يحرسها الله» فخر اليونان أغنى المدن وابرزها في العالم الوسيط. وكانت بغداد، المدينة التي بعثت في الوجود (كما لو قامت بعصا ساحر) في منتصف القرن الثامن ثانية المدن بعد القسطنطينية. وكان البلاط العباسي حديقة حقيقية للمعرفة والعلم والفنون. وكانت قرطبة في اسبانيا في القرن العاشر اكثر المدن حضارة في غرب اوروبا. و (كانت تثير دهشة العالم واعجابه) وكانت تضم سبعين مكتبة وتسعمائة حمام عام»[٥٧].

وتحت عنوان تمشرق الفكر والفن والدولة داخل بيزنطة يقدم لنا أسد رستم بحثاً عن التفاعل الحضاري بين شعوب الدولة البيزنطية والشعوب العربية او بالاحرى عن تأثر الدولة البيزنطية بالحضارة الشرقية عند قيامها. فالتتويج قد اتخذ صبغة دينية واصبح الحق في الحكم الهياً شرقياً وظهر الاباطرة منذ عهودهم الاولى بمظاهر ملوك الشرق وعظمتهم حتى ان الكنيسة ومجامعها التي عقدت في الشرق قد تمشرقت واصبح النتاج الفكري والفني شرقياً أكثر منه اوروبياً لاتينياً [٥٨].

وكانت الاسكندرية وانطاكية وبيروت وقيسارية وفلسطين وقبادوقية

والرها اعظم مراكز هذا التاج الحضاري. فقد اسهمت هذه المدن في جميع النشاطات الفكرية خاصة فيما يتعلق بتاريخ الفكر العقائدي. كما ان الصراع الذي حصل بين الوثنية والمسيحية قد ادى إلى الاجتهاد في التاريخ والمنطق والفلسفة وإلى احتدام الجدال بين الفريقين. فنشأت المدارس اللاهوتيه الفلسفية وكانت اشهرها مدرستي الاسكندرية وانطاكية. فمدينة الاسكندرية حسب قول المؤرخ يوسيبيوس اشتهرت منذ عهد قديم بمدرسة للعلوم المقدسة كان يتولى امرها رجال تميزوا بالاجتهاد في الصلاح والحث على التقوى وادب الحكمة (٥٩). وكانت انطاكية مناراً فكرياً هاماً حيث علم في جامعتها ليبانوس ويوحنا فم الذهب. واشتهرت بيروت بمدارسها الحقوقية والدراسات القانونية. وظهر في قيسارية الراهب المؤرخ المشهور يوسيبيوس. كما ان اشد المعارضين من المؤرخين لتمشرق الفن البيزنطي يعترفون بأن الشرق الهلليني لا الغرب اللاتيني قد كون الخصائص الاولى للفن البيزنطي.

ومع ان الامبراطورية البيزنطية لم تكن ذات خصائص عريقة إلا انها ورثت حضارة العالم الأغريقي لغة وأدباً وعلوماً (٦٠). فاهتم علماؤها ورهبانها بنسخ المخطوطات واقتنائها. وبذلك فقد حافظ البيزنطيون على التراث الكلاسيكي قروناً عديدة بل انهم اضافوا اليه المؤلفات الادبية والعلمية العديدة وصبغوها بصبغتهم الخاصة. وابدعوا في مجالات الفن والزخرفة وهكذا كان اثر البيزنطيين بالغاً على حضارات العالم الوسيط.

### أ ـ اثر بيزنطة الحضاري على العرب

منذ الفتح العربي للولايات الشرقية بدأت تشع على الامبراطورية الاسلامية الحضارة الهللينية التي ما زال الروم يحتفظون بالمواطن الاصلية لها. ومع انتقال العاصمة الاسلامية إلى الشام انتقل مركز الثقافة اليونانية من الاسكندرية إلى انطاكية لقربها من مواقع الحضارة اليونانية البيزنطية من جهة والعاصمة الاموية من جهة ثانية. ولما كان تبادل الافكار في فترات السلام

لم ينقطع عبر الحدود «حيث كانت التخوم مع المسلمين لا تبرح مزدحمة بالغادين والرائحين»[٦١] فقد نشأت علاقات ثقافية حضارية بين المسلمين والبيزنطيين عمل على تشجيعها الخلفاء الامويين والاباطرة البيزنطيين. فسجلات الدولة الاسلامية في هذا العهد وكذلك نظمها الادارية وعملتها ما لبثت رومية حتى ايام عبدالملك بن مروان. كما ان الخليفة الوليد الاول (٧٠٥ - ٧١٥) طلب من الامبراطور البيزنطي ان يرسل له بعض الصناع لتزيين جوامع دمشق والمدينة وبيت المقدس بالفسيفاء[٦٢].

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين انتقل مركز الثقافة اول الأمر إلى حران في العراق التي عرفت من قبل بمدينة اليونانيين (هليوبوليس). وكان من اشهر علمائها ثابت بن قرة الذي ترجم إلى العربية عدداً كبيراً من كتب الفلك والرياضيات لِتيودوسيوس وبطليموس. ثم انتقل علماؤها إلى بغداد اوائل القرن العاشر. ويذكر ابن خلدون ان الصلات بين الخلفاء العباسيين والاباطرة البيزنطيين كان يتخللها علاقات طيبة دفعت ابي جعفر المنصور ان يبعث لامبراطور الروم يطلب كتبا يونانية. فارسل اليه كتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات[٦٣]. اما في عهد المأمون فقد بلغت حركة الاتصال الثقافي اقصاها. فاسس بيت الحكمة في بغداد للاشراف على حركة ترجمة الكتب اليونانية. واوفد الرسل والبعثات الى ملوك الروم يطلب منهم استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي.

وامتد تأثير بيزنطة إلى الاندلس نفسها حيث طلب الحكم المستنصر (٩٦١ - ٩٧٦)، خليفة قرطبة، من الامبراطور البيزنطي ان يرسل له احد صناع الفسيفساء لتزيين مسجد قرطبة الجامع[٦٤].

وهكذا ساهمت بيزنطة جنباً إلى جنب مع العرب في بناء حضارة غرب اوروبا ويذكر بينز انه «ربما كان التأثير الثقافي للامبراطورية البيزنطية والاسلام معاً ظاهراً في اصول ما يسمى بالنهضة الايطالية وتقدمها. فتلك

العلوم القديمة والمعارف المختلفة التي حافظت عليها بيزنطة بعناية والتي عني بها العرب واتقنوها، قدر لها ان تلعب دوراً اساسياً في خلق جو ثقافي جديد في ايطاليا واصبحت حلقة واصلة بين الثقافة القديمة وحضارتنا الراهنة. وفي هذا المجال نرى بين ايدينا مثلاً للتعاون الثقافي بين هاتين القوتين اللتين كانتا اقوى واخصب ما عرفه العصر الوسيط، وهما بيزنطة والاسلام »[٦٥].

## ب ـ اثر بيزنطة الحضاري في الغرب

لقد تركت الحضارة البيزنطة اثراً واضحاً على النهضة الايطالية. وكانت من المنابع الرئيسية التي استقت منها دول غرب اوروبا حضارتها. فمنذ الحروب الصليبية ازدادت العلاقات التجارية بين الطرفين وازدادت معها الروابط الثقافية بتعرف اللاتين عن كثب على الحضارة البيزنطية. اذ ان الموقع الجغرافي لبيزنطة أهلها لأن تكون نقطة التقاء التجار من جميع الأجناس[٦٦]، حيث كان تجار المدن الايطالية المحتكرين الوحيدين لتجارتها خاصة في النصف الاول من القرن الثالث عشر اثناء قيام الحكم اللاتيني في القسطنطينية (١٢٠٤ ـ ١٢٦٠) بواسطة الحملة الصليبية الرابعة.

ونتيجة للعلاقات التجارية المزدهرة، فقد أقبل الاوروبيون على تعلم اللغة اليونانية وعلى التعرف على تراث اليونان الكلاسيكي. فازدهرت تجارة المخطوطات في هذا العصر ونشطت الزيارات العلمية المتبادلة كما ادت هجرة العلماء البيزنطيين على اثر سقوط القسطنطينية في القرن الخامس عشر[٦٧] إلى نشر التراث الكلاسيكي بأوضح معانيه في اوروبا. ومع ان الامبراطورية البيزنطية بعد القرن الثالث عشر كانت تعاني من التفكك السياسي إلا ان القسطنطينية كانت ما تزال تمثل المركز الرئيسي للثقافة والقانون والفلسفة الاغريقية[٦٨]: « الروم عاونوا رجال اليقظة في ايطالية في تعلم اللغة اليونانية في بدء نهضتهم وان اثر الروم الحقيقي في نهضة ايطاليا جاء في اواخر القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر بعد ان بدأ التيقظ في ايطالية

واشتدت رغبة اهلها في الرجوع إلى العصر الكلاسيكي »[٦٩].

وللدلالة على اثر بيزنطة الفني في ايطاليا فقد كان تزيين الكنائس فيها من حيث الاسلوب ام من حيث الايقنة (التصوير الديني) شرقياً بيزنطياً خالصاً[٧٠]. لقد « اصبحت راڤنا في ايطالية بعد ان أعاد جستنيان غزوها مرة اخرى مدينة بيزنطية، بينما ترعرعت في روما مستعمرة شرقية زاد في قوتها الرهبان المنفيون الهاربون من اضطهاد اللاايقونيين. وهكذا قبست روما وراڤنا وحيهما الفني من الشرق. ولم يضعف هذا التأثير الا حين توجهت البابوية في طلب العون إلى الفرنجة. ولقد احتفظ جنوب ايطاليا بطابعه اليوناني إلى حد بعيد، وازداد هذا الطابع ظهوراً عندما اضاف قسطنطين الخامس (٧٤٠ - ٧٧٥) كالبريا إلى مقاطعة صقلية الثغرية، وحينما مكن الحكام المقدونيون (٨٦٧ - ١٠٨١) سلطان الامبراطورية في هذه الاراضي من جديد[٧١] ». أما في العصر القوطي فقد كانت ايطاليا الميدان الذي تنافس فيه الفن البيزنطي مع الفن الأوروبي[٧٢].

لم يقتصر تأثير بيزنطة الحضاري على غرب اوروبا فقط. فمما لا شك فيه ان اوروبا الشرقية تدين ايضاً بكل ما لديها من حضارة وسيطة للمبشرين البيزنطيين الذين نشروا المسيحية فيها. اذ ان حضارة البلغار كانت حضارة بيزنطية صرفة، رغم انه كانت لهم ابجدية خاصة. فقد كان اكثر ملوكهم او زعمائهم يتلقون تعليمهم في القسطنطينية، وهناك كانوا يطلعون على التراث الكلاسيكي اليوناني المتفاعل مع الحضارة البيزنطية وعلى عادات وتقاليد الاباطرة كذلك. كما انهم كانوا يحملون إلى بلاطاتهم كل ما يستحسنونه من الدساتير والتنظيمات الادارية والعسكرية. وحتى ان قصورهم كانت تشابه بعظمتها امجاد قصور الاباطرة البيزنطيين وابهتها. وكانت بلاد الصرب ايضاً تقع تحت النفوذ البيزنطي. ورغم ان حضارتها كانت ذات صبغة لاتينية اكثر مما هي بيزنطية الا ان قوانينهم وفنونهم كانت بيزنطية خالصة، كما ان الروس كانوا يدينون بادبهم وعلومهم وابجديتهم للحضارة البيزنطية، وقد

ظهرت فنونهم ذات الاصل البيزنطي واضحة في بناء كنيسة القديسة صوفيا في كييف والتي تشابه في تصميمها وزخرفتها كنائس البيزنطيين في القسطنطينية [٧٣].

## هوامش الفصل الأول

(١) يرجع تفتت السلطة والارض الى العادة الجرمانية التي تقضي بتوزيع ارث الملك بين ابنائه كما لو كان عقاراً أو أرضاً زراعية.

(٢) جورج كولتون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ترجمه جوزيف نسيم يوسف دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ص ٤.

(٣) كوبلاند وفينوغرادوف: الاقطاع والعصور الوسطى في غرب اوروبا ترجمة محمد مصطفى زيادة طبعة ثالثة ١٩٥٨ مكتبة النهضة المصرية ص ٢٤.

(٤) يذكر كارلس ديفيز في مؤلفه «شارلمان» ترجمة السيد الباز العريني مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٩ ص ٣٨: ان شارل الكبير اجاز ثلاثة اسباب فقط للتحلل من يمين الولاء. اذا عامل السيد تابعه على انه عبدا واذا اعتدى على حياته وشرفه، واذا لم يعده بالحماية اللازمة..

(٥) كوبلاند وفينوغرادوف: الاقطاع والعصور الوسطى في غرب اوروبا ص ٦٤.

(٦) كان متوسط تعداد افراد القرية حوالى اربعمائة شخص تقريباً. راجع كولتون. عالم العصور الوسطى ص ٥٢.

(٧) كوبلاند وفينوغرادوف: المرجع نفسه ص ١٠٠.

(٨) Heyd. W: Histoire du commerce du Levant. trad. F Raymand 3 Vols. Paris 1885 t. 1, P 135.

(٩) Revue Historique. Presses Universitaires N° 475 (1965) P. 19

(١٠) DIEHL. C: Etudes Byzantines. Paris 1905 P. 144

(١١) Heyd . W: Histoires du commerce du Levant t. 2, P. 20

(١٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية. القاهرة ١٩٦٣ الجزء الثاني ص ١٦٢.

(١٣) سعيد عاشور: اوروبا في العصور الوسطى الطبعة الثالثة ١٩٦٤ القاهرة، الجزء الاول ص ٦١٧.

(١٤) هربرت فيشر: تاريخ اوروبا في العصور الوسطى. ترجمة محمد زياد والباز العريني الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٦٦ القسم الاول ص ٢٢٧.

(١٥) GRousset. R: Histoire des croisades Paris 1934 - 1936. t 3, P 534.

(١٦) فيشر: المرجع نفسه القسم الاول ص ٢٢٦.

(١٧) نورمان بينز: الامبراطورية البيزنطية ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد. الدار القومية القاهرة ١٩٦٤ ص ١١٩.

لقد عبر عن هذا المفهوم في العصور الوسطى بالقيصرية البابوية. وذلك للتعريف على ما اكتسبه الامبراطور صاحب السلطة الزمنية من وظائف روحية تعود اصلاً الى رئيس الكنيسة. اذ كان من احدى المميزات الضرورية للحضارة الرومانية خضوع الدين للحياة السياسية في مدينة روما. وفي كل المؤسسات المدنية والحربية والدينية كان الامبراطور يعمل للعودة الى التراث القديم للمكلية المقدسة، الطريق الوحيـدة للسلام الالهي. والضمان الوحيد للكسب الجماعي.
راجع مادة Césaropapisme في:
ENCYCLOPAEDIA UNIVERSALIS. Vol. 4.

(١٨) انظر اسـد رستم: الروم دار المكشـوف بيروت الطبعـة الأولى ١٩٥٥ الجزء الأول ص ١٧٩ والجزء الثاني ص ٨٠ وما بعدها.

(١٩) بينز: المرجع نفسه ص ١١٩.

(٢٠) تعتبر هبة قسطنطين التي ظهرت في القرن السابع من اضخم عملية تزوير بين الوثائق التاريخيـة اكتشفهـا لورنزو فـالا في القـرن الخامس عشر على اثـر انتشـار المدارس التاريخية النقدية. وتزعم هذه الوثيقة ان الامبراطور قسطنطين الكبير اعترافاً منه بجميل البابا سلفستر الأول (٣١٤ ـ ٣٣٥) الذي شفاه من المرض قد منحه حكم العالمين الزمني والروحي في الغرب بأن قدم له شارات الحكم بما فيها التاج الذي رفضه البابا. وما كان يبغيه واضع هذه الوثيقة هو الإشارة الى ان رفض البابا للتاج يدل على تفوق سلطته الروحية على سلطة الاباطرة الزمنية. لهذا يحـق لخلفاء البابا الآن استرجاع هذه السلطة التي تعتبر من حقهم. وهكذا منح بيبن (Pepin) هبته للبابوية في حكم ايطالية الزمني الى جانب سيطرتها الروحية. فظهرت وكأنها اقرار بصحة هبة قسطنطين التي روج لها واعترف بها في هذا القرن بالذات لتكون حافزاً لبيبن لتقديم هذه المنحة الى البابوية.
انظر كولتون: عالم العصور الوسطى ص ٢٠٠.
وهارتمان وباراكلاف: الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ترجمة جوزيف نسيم يوسف دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ص ٩٥.

(٢١) واهمها نظرية السيفين (theory of the two swords) التي روجتها البابوية في اوروبا للتدليل على امتلاكها سيف الروح الذي ورثه اسقف روما عن القديس بطرس امير الرسل وهو يفوق ولا شك سيف الجسد الذي تنازل عنه الامبراطور قسطنطين للبابا سلفستر الاول.

(٢٢) وتعني الاتجار بالقدسيات والمراكز الدينية وتنسب الى سيمون الساحر الذي اراد شراء هبة فعل المعجزات من القديس بطرس.

(٢٣) تتمسك هذه القرارات بتفوق الكنيسة في العالمين الزمني والروحي تحت زعامة البابويـة.

Fliche. A: L'Europe Occidentale de 888 à 1125 t 2. Paris 1930.

(٢٤) اهم هذه الحروب هي التي قامت بين البابا غريغوار السابع والامبراطور هنري الرابع بشأن مشكلة التقليد العلماني وبين البابا ادريان الرابع وفريدريك بربروسا حول القوميونات الايطالية ثم الحرب الثالثة المعروفة بين غريغوار التاسع والامبراطور فريدريك الثاني حول الصقلتين.
انظر Poulet. C: Papauté. Guelfes et Gibelins 2 Vols Paris 1922.

(٢٥) باركر أرنست: الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٧ ص ١٥٢.

(٢٦) جاء في كتاب بينز: الامبراطورية البيزنطية ص ٣٩٨ في فصل للمؤرخ فازيلييف ملحق في الكتاب عن احد معاصري سقوط القسطنطينية قوله: «انه لخير لنا ان نرى العمامة التركية في مدينتنا من ان نرى فيها تاج البابوية».

(٢٧) انظر سعيد عاشور: اوروبا في العصور الوسطى الجزء الأول ص ١٢٧.

(٢٨) فيشر: تاريخ اوروبا في العصور الوسطى القسم الأول ص ٢١٨.

(٢٩) من الكتب المهمة التي تناولت موضوع الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية. هي المناظرة التي اشترك فيها مجموعة من المؤرخين وترجمت الى العربية تحت هذا الاسم ترجمة عصام الخفاجي دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٩.

(٣٠) تراند: جون: تراث الاسلام (باشراف سير توماس ارنولد). عربه وعلق على حواشيه جرجيس فتح الله. دار الطليعة بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٢ ص ٢٢.

(٣١) سقطت على التوالي في سنوات ١٠٨٥، ١٢٣٦، ١٢٤٨.

(٣٢) جاك ريسلر: الحضارة العربية. ترجمة غنيم عبدون مراجعة احمد فؤاد الاهواني. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٥٥ ص ٢٢٧.

(٣٣) BREHIER. L: Les Croisades. 6° édition Paris 1928 P 234.

(٣٤) هو امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ووريث العرش الصقلي.

(٣٥) Grousset. R: Histoire des Croisades t. III, P. 278

(٣٦) جلال مظهر: اثر العرب في الحضارة الأوروبية. منشورات دار الرائد بيروت ١٩٦٧ ص ١٨٨.

(٣٧) يذكر ارنست باركر في كتاب «تراث الاسلام» قائلاً: «لكن علينا ان نذكر ونعيد القول بأن الاسلام قد سبق فثبتت اصوله في الغرب واستطاع ان يخلف اثاره في اسبانيا وصقلية. كان ثم صراع بين قوى متناثرة. هذه القوى التي وان عجزنا عن تحديد مداها بالضبط كلاً على حدة - ففي امكاننا ان نرى تأثير الاسلام في الغرب المسيحي في قاعدتيه صقلية واسبانيا كان اشد مما هو في مراكزه (الموصل وبغداد والقاهرة).

هناك سببان يدعمان هذا الغرض اولهما انه لم نر في سورية ذلك التأثير الناجم عن امتزاج الثقافات كما نراه في صقلية ابان حكم روجر الثاني وفريدريك الثاني. وثانيهما هو ان لاتين سوريا عجزوا تماماً عن التشرب بثقافة الاسلام الغنية، وهي بعد ثقافة اجنبية ولكنها قريبة من تناول ايديهم لا كما أفلحَ مسيحيو غرب البحر المتوسط في الاستفادة من ينابيع ثقافة قرطبة واسبانيا المسلمتين».

كما يذكر في مكان آخر في نفس الصفحة «كانت المملكة اللاتينية في اورشليم معسكراً حربياً خشناً لا روح فيه او بكلمة اخرى معسكراً لا وقت كاف لديه للمساهمة في بناء الحضارة».

اما ستيفن رنسيمان: «تاريخ الحروب الصليبية» ترجمة السيد الباز العريني. دار الثقافة بيروت ١٩٦٧ المجلد الثالث ص ٨٢٢. يعلق على ذلك قائلاً: لا والواقع ان الحياة العقلية في الشرق الفرنجي ليست الا حياة عقلية لمستعمرة فرنجية، اذ اختصت قصور الملوك والامراء بسحر مختلط، على ان عدد العلماء المقيمين بالشرق الفرنجي كان قليلاً. وما نشب من الحروب وما ساد من متاعب مالية منع قيام نظام لانشاء مراكز فعلية للدراسة، حيث يجري ارتشاف علم الوطنيين والمجاورين. وترتب على انعدام قيام هـذه المراكز، ان ما اسهمت به الحروب الصليبية من ثقافة لغرب اوروبا كان بالغ الضآلة ومخيباً للرجاء». كما يذكر ايضاً ص ٨١٧ «الواقع ان الحياة العقلية في الشرق الفرنجي كانت مخيبة للآمال، اذا جرت مقارنتها بما حدث في صقلية واسبانيا».

اما سعيد عاشور فيذكر في كتابه الحركة الصليبية (١٩٦٣) الجزء الثاني ص ١٢٧٠ «واذا كانت هناك معابر انتقلت عنها علوم العرب الى الغرب الأوروبي في عصر الحروب الصليبية، فاننا يجب ان نلقي الاضواء على اسبانيا وصقلية اولاً وقبل كل شيء آخر».

(٣٨) REY. E: Les Colonies Franques en Syrie aux XII et XIII siècle Paris 1883. P 172.

(٣٩) GLOTZ: Histoire Genérale. Paris 1995 t. IX, P. 485.

(٤٠) ابن جبير: الرحلة دار التراث بيروت ١٩٦٨ ص ٢٤٩.

(٤١) المرجع السابق ص ٢٣٤.

(٤٢) Documentation Pedagogique N° 142 (1967) janvier

انظر أيضاً: مونتغمري واط: اثر الحضارة العربية الاسلامية على اوروبا، ترجمة جابر ابي جابر. وزارة الثقافة دمشق ١٩٨١ ص ١١٤ وما بعدها.

(٤٣) SÉDILLOT. L: Histoire générale des Arabes Paris 1877 P. 207

(٤٤) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (١٣) ص ١١٩.

(٤٥) انظر جلال مظهر: مرجع مذكور ص ٢٤٢.

(٤٦) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (١٧) ص ١٨٨.

(٤٧) عبدالحليم منتصر: المجلة العربية. السنة الثانية العدد الثاني ١٩٧٧ مقالة عن اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية.

(٤٨) جلال مظهر: مرجع مذكور ص ٢٩٥.

(٤٩) للمزيد راجع عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة. منشورات المكتبة العصرية الطبعة الثانية ١٩٦٩، ايضاً عبدالحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه. دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة ١٩٧١.

(٥٠) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (١٣) ص ١٨٧.

(٥١) BRÉHIER. E: La Philosophie du Moyen - Age Paris 1937 P 336

(٥٢) جاك ريسلر: المرجع نفسه ص ٢٢٤.

(٥٣) الفرد غيوم: تراث الاسلام ص ٣٩٢.

(٥٤) سهير القلماوي ومحمود علي مكي: اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧٠ ص ١١٥.

(٥٥) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (١٣) ص ٢٢٥.

(٥٦) Le BON. G. La civilisation des Arabes Paris 1884 P. 632.

(٥٧) ڤازيليف: بيزنطة والاسلام. فصل ملحق بترجمة كتاب بينز: الامبراطورية البيزنطية ص ٣٧٩.

(٥٨) اسد رستم: الروم. الجزء الأول ص ١٤٠ وما بعدها.

(٥٩) المرجع السابق ص ١٤٣.

(٦٠) انظر فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية. الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ الجزء الثالث في امكنة متعددة.

(٦١) ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية ترجمة عبدالعزيز جاويد مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ القاهرة. ص ٢١٦.

(٦٢) ابراهيم العدوي: الامويون والبيزنطيون الدار القومية للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٦٣ ص ٢٧١.

(٦٣) ابن خلدون: المقدمة الطبعة الثالثة. مكتبة المدرسة بيروت ١٩٦٧ ص ٨٩٢.

(٦٤) بينز: الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨٥.

(٦٥) فازيليف: فصل ملحق بترجمة كتاب بينز: الامبراطورية البزنطية ص ٣٩٨.

(٦٦) BRÉHIER. l. La civilisation Byzantine t. III P. 558 Paris 1933.

انظر أيضاً:

DIEHL. C.: Figures Byzantine t. II. Passim

(٦٧) سقطت القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣

(٦٨) DIEHL. C.: Byzance grandeur et décadence. P 314.

(٦٩) اسد رستم: الروم الجزء الثاني ص ٢٧٧.

(٧٠) DIEHL. C.: Op. cit. P 318.

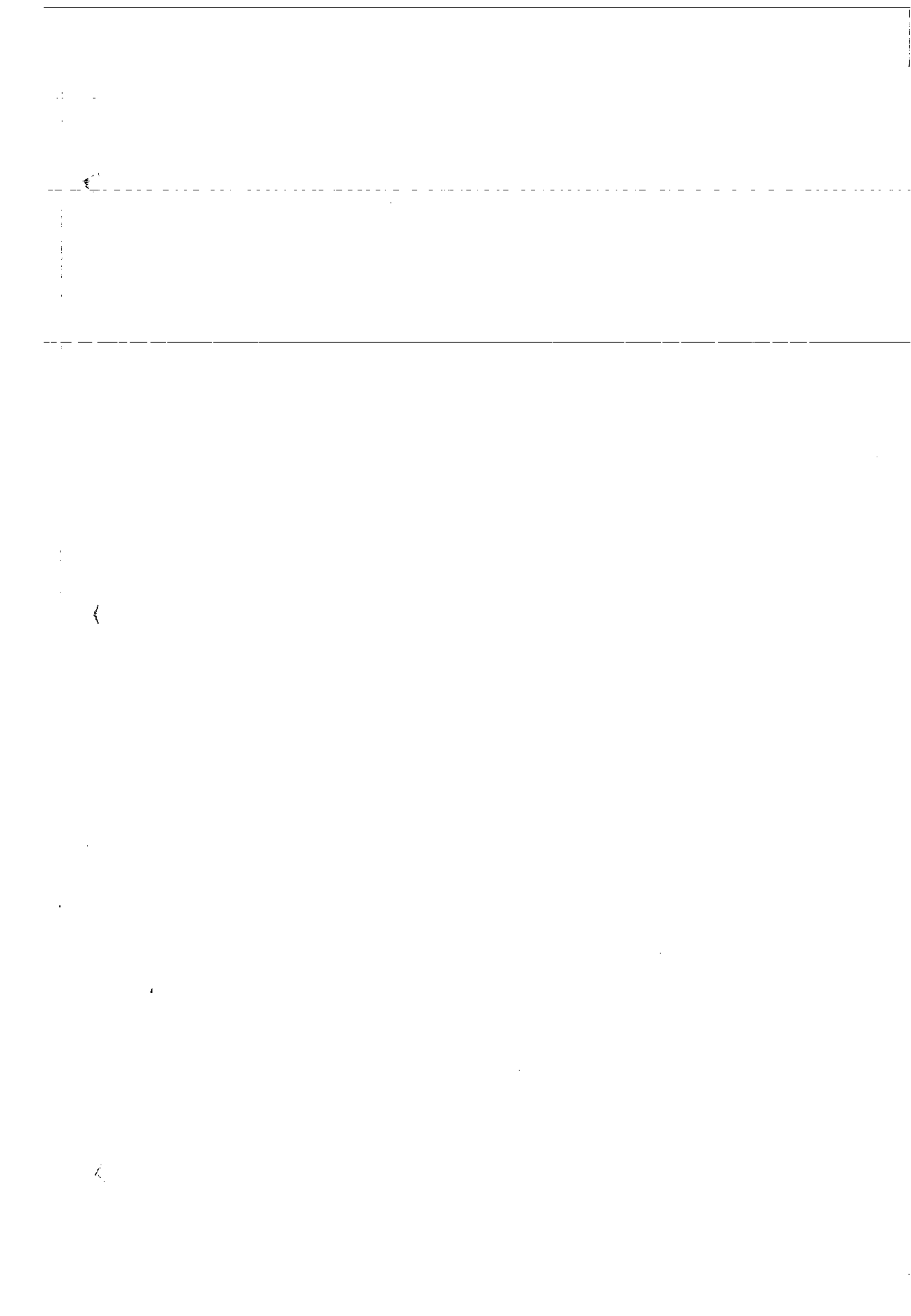
(٧١) بينز: الامبراطورية البيزنطية ص ٢٤٧

(٧٢) BRÉHIER. L: La civilisation Byzantine t. III P. 558.

(٧٣) انظر بينز: الامبراطورية البيزنطية ص ٣٠٢ وما يليها

# الفصل الثاني

# عصر النهضة الأوروبية



يمثل عصر النهضة الاوروبية في عملية التطور الانساني امتدادا طبيعياً لما سبقه من تيارات فلسفية واقتصادية وعلمية وادبية عرفتها اوروبا في العصور الوسطى. فمن الناحية الزمنية يبدأ عصر النهضة بتراجع مؤسسات القرون الوسطى وانحلالها منذ القرن الرابع عشر ليمتد حتى يشمل القرن السابع عشر. وقد تفاوتت النهضة بين دول اوروبا باختلاف مقوماتها الاساسية. فحيث عرفت بعض دول ومدن غرب اوروبا النهضة منذ القرن الرابع عشر، كايطاليا مثلاً، فإن مجتمعات اخرى في شمال وشرق اوروبا ظهرت فيها النهضة متأخرة عن هذه الفترة بمدة طويلة. ولما كان التعريف السائد لقيام نهضة معينة في عصرٍ ما يقتصر على وضع مؤلفات علمية وادبية وفلسفية وما يحيط بهذا العمل من نشاط اجتماعي، افقي، يقتصر على فئة معينة تشتمل على حاشية البلاط وفئة المتعلمين؛ فقد اطلق بعضهم اسم «نهضة» على ما قام به شارلمان من نشاط ثقافي لم يتعد فئة قليلة من الناس بهدف تحقيق مآربه السياسية والدينية، فان النهضة الاوروبية التي بدأت في القرن الرابع عشر او قبل هذا التاريخ بزمن قصير او بعيد لم تؤت ثمارها الحقيقية الا بعد القرن السادس عشر عندما بدأت تتحطم الحواجز الثقافية والعلمية بين طبقات المجتمع الاوروبي. وقد تجلت هذه الاستفادة عبر الثورات الدينية، والمصالح القومية، وفي الثورات التي قامت ضد استبدادية الملوك والامراء وضد

التفاوت الاجتماعي. ولهذا تعتبر الثورة الفرنسية اعلاناً عن خاتمة عصر النهضة اكثر مما تعتبر اعلاناً عن بداية عصر جديد. حيث نجد فيشر يذكر أنه: « قد لا يوجد بلد في اوروبا كـان أكثر اطـراحـاً للعصـور الوسطـى من بريطانيا، ومع ذلك فقد بقيت نظم العصور الوسطى في المدن الانجليزية دون أي تغيير حتى عام ١٨٣٥ بما تحمل من مثالب بهيجة خلابة، لتفسح المجال للنموذج الديموقراطي المألوف الذي يتمشى والانقلاب الصناعي والتسوية بين الناس[1]». اذن فالنهضة التي ولدت في احضان البورجوازيـة وبفضلهـا، لم تمتد إلى جميع الطبقات الاجتماعية بل انها اقتصرت على بطانة الامراء والملوك وعلى الارستقراطيين والمثقفين وهم قلة. اما الانسان العادي فـاستمـر يقـوم بـالاعمال الزراعية واعباء العيش المرهق بعيداً عن مظاهر النهضة، تسيطر عليه اوهام العصور الوسطى وخرافاتها حتى ما بعد القرن السابع عشر بكثير من الوقت.

فعلى الصعيد الاقتصادي فان عصر النهضة شهد تحولاً وتبدلاً جذرياً بين ما كان سائداً في اوروبا في العصور الوسطى من اقتصاد « عيني » إلى اقتصاد نقدي الأمر الذي ساعد على انهيار الاقطاعية التي كان يتعارض وجودها مع تشكل البورجوازية النامية. ونتيجة للثراء الفاحش الذي اصاب طبقة البورجوازية التجارية المرابطة في المدن، فقد اخذ الفكر الاقتصادي يشهد استقلالاً عن المفاهيم الدينية التي كانت سائدة قبلاً. فاقيمت المصارف وظهر الرأسمال الربوي وانتشر التعامل بالصكوك والعقود المكتوبة ووضعت قوانين اقتصادية تحدد علاقة المواطن بالدولة، وتتوافق مع متطلبات الطبقة الوسطى. واضحت التحالفات والمنازعات الدولية تقوم على اساس المصلحة الاقتصادية دون مراعاة للمذهب الديني، كما حدث في حروب الثلاثين عاماً الدينية عندما وقفت « فرنسا الكاثوليكية » الى جانب التحالف البروتستانتي. أما الكشوف الجغرافية فقد ساهمت في تنشيط الحركة التجارية الاستعمارية، بعد ان شلها التوسع العثماني، باقامة محطات ثابتة في الاماكن المكتشفة كما حدث في الشرق الاوسط اثناء الحركة الصليبية. كما ساهمت حركة الكشوف ايضاً في عملية

التوسع التجاري ففتحت امام الاوروبيين اسواقاً جديدة تدفقت منها الاموال على اوروبا. فامتلكت بفضلها دول اوروبا كميات وافرة من الذهب والفضة مما كان له اثر كبير على نمو البورجوازية التي كان لها الفضل الاول في قيام النهضة.

ولما كان الانتاج الحرفي في العهد الاقطاعي ملازماً لاعمال الفلاحة فقد شهد عصر النهضة تطوراً عظيماً للحرفة على اثر تزايد الحاجة إلى الانتاج السلعي. فازدهر نظام المشاغل (manufacture) بعد أن انفصلت الحرفة عن العمل الزراعي وظهرت ورشات العمل الكبيرة التي قامت البورجوازية بدفعها وتنظيمها بتقديم الرأسمال مقابل العمل الذي يقوم به العامل. وهكذا ساعد ظهور المشاغل في تسريع عملية التوسع الصناعي وازدهاره. فظهرت صناعة الكتب، وازدهرت صناعة التعدين وازداد الاعتماد على القوى المائية. فانتشر استعمال المحراث الحديدي المتطور في الاعمال الزراعية ونشطت الدول في استثمار مناجم الفحم الحجري والفضة وحجر الشب كما تطورت صناعة المنسوجات بمختلف انواعها.

أما على الصعيد الفكري فقد ظهرت في عصر النهضة تبدلات فكرية تختلف عن مفاهيم العصور الوسطى. وان هذه التبدلات قامت اساساً على انقاض المفاهيم الاقطاعية التي كانت سائدة: فامتلك الفرد شخصية مستقلة مشكلاً الخلية الاساسية في المجتمع بعد ان كانت الضيعة أو القومون أو النقابة هي التي تمثل اساس تكوين وبناء المجتمعات. كما تمتع انسان النهضة بالفَردية والجرأة الفكرية واحتقار الضعف والوهن والاعراف والتقاليد والخرافات والتحلل من سيطرة رجال الدين وديكتاتورية الكنيسة الروحية وتوجيه النقد للبابوات انفسهم حتى شهد القرن الرابع عشر هبوطاً للسلطة الروحية. وامتاز القرن السادس عشر بقيام حركة الاصلاح الديني وقيام الكنائس القومية الموّجهة ضد السلطة البابوية والقوى الاقطاعية المتحالفة معها.

وقد شهد عصر النهضة ايضاً قيام الحكومات المركزية ونمو الاتجاهات

القومية للأمة. الأمر الذي ساعد على تقوية الحكومات الملكية ورسوخ الاعتقاد الشائع بسلطة الملوك المستمدة من الحق الالهي. ولما كانت البورجوازية وما زالت في عصر النهضة في نضال مستمر مع الارستقراطية فقد وقفت إلى جانب الملوك في فرض سيطرة الدولة على جميع طبقات المجتمع وبالاخص على النبلاء والاكليروس. فوجدت الحدود القومية للدولة ونظمت الواردات والضرائب ووحّدت التشريعات القضائية والقوانين. وزاد في توطيد سلطة الملكية واستبداديتها خاصة في فرنسا واسبانيا الحروب التي اشعلها الملوك داخل اوروبا وخارجها بسبب التنافس على المستعمرات عبر المحيطات في الهند وفي القارة الاميركية.

لقد كانت البورجوازية أكثر الفئات استفادة من تبدل الاوضاع الاقتصادية التي حصلت في عصر النهضة. فازدادت ثرواتها الاقتصادية مع الزمن حتى تمّ لها منذ القرن السادس عشر السيطرة التامة على الطبقة الثالثة التي تنتمي اليها عرفاً وقانوناً. فاستغلت تمثيل هذه الطبقة لمصلحتها إلى ابعد الحدود ضد امتيازات النبلاء في مساندة الثورات الدينية وضد استبدادية الملوك بعد القرن السابع عشر في اعلان ثوراتها السياسية التي تتوافق ومصالحها. وهكذا تم للبورجوازية خلال عصر النهضة القضاء على امتيازات النبلاء والاكليروس بتقوية ومساندة السلطة الملكية من جهة وتشييد الكنيسة القومية من جهة ثانية. كما تم لها ايضاً تحطيم الاستبداد الملكي المرتكز على نظرية الحق الالهي للملوك في الحكم بواسطة الفئات الشعبية حتى اصبحت في اواخر القرن التاسع عشر سيدة الموقف في جميع دول اوروبا دون استثناء

أما الغنى والثراء الفاحش اللذين تمتعت بهما البورجوازية خلال عصر النهضة فقد أديا إلى الاسهام في عملية الانفاق المادي التي تمثلت في الاقبال عن مباهج الحياة. فصرفت الاموال الطائلة على تشجيع الفنون واقامة المدارس والاكاديميات واقتناء المخطوطات والمكتبات وتشييد القصور والكنائس الضخمة واقامة الجنائن والتماثيل واغواء الشعراء والادباء والعلماء والفنانين

للاقامة في بلاطات الامراء ليضفي هؤلاء على حكمهم الصفـة الشرعية بعد ان ساهمت النهضة في احلال الالجاركيات التجارية والدكتاتوريات العسكرية ـ خاصة في ايطاليا ـ محل حكومات المدن الجمهورية المستقلة [٢] . ففي فلورنسا مثلاً ازدهرت حركة النهضة حول اسرة مدتشي التي كانت تسيطر على الاقتصاد وتوجهه. وفي البندقية تمركزت حول الطبقة التجارية وفي ميلانو عند ادواق آل سفورزا وفيسكونتي وفي ڤيرونا نمت النهضة برعاية اسرة سكاليجر وفي پدوا قامت بتشجيع آل كراريسي (Carraresi) وفي روما قامت النهضة ايضاً في بلاطات بابوات عصر النهضـة الذيـن اشتهـر منهـم نقـولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) وليـو العـاشر (١٥١٣ ـ ١٥٢١). امـا في فرنسا وانكلترا فقد نمت النهضة في المدارس والكاتدرائيات والجامعات. وهكذا قامـت النهضـة الأوروبيـة بمسـاعـدة سكـان الحواضر مـن الطبقـة البورجوازية. وازدهرت بتشجيع الملوك والامراء والادواق حتى عمت فيما بعد جميع طبقات المجتمع الاوروبي.

أما على الصعيد السياسي فعلى الرغم من نمو الشعور القومي الذي ساد اوروبا في عصر النهضة فقد واجهت ايطاليا تفككاً سياسياً نتيجة لظهور قوة الامارات التي اسسها الامراء ورجال الدين ثم للتنافس الاستعماري الذي نشأ بين اسبانيا وفرنسا وادى إلى قيام الحروب الايطالية. كما ادت النهضة ايضاً إلى ظهور عدة نظريات سياسية واتجاهات في الحكم كان لها اثر بعيد في الحياة السياسية التي عرفتها اوروبا في العصور الحديثة. وقد ظهرت هذه النظريات في كتاب « الامير » لمكيافللي الذي اباح للحاكم جميع الوسائل لتحقيق اهدافه في فرض سيطرته وفي كتاب « رجل البلاط » لكاستليوني الذي رسم فيه انموذجاً لرجل البلاط وما عليه ان يتمتع به من الثقافة والادب والالمام بجميع الفنون ثم في كتاب « عالم الكمال » للسياسي الانجليزي توماس مور الذي يبين فيه اهداف الحكومة المثالية وانظمتها السياسية والاجتماعيـة والاقتصـاديـة وهـي حكومة تخيلها المؤلف لتقوم في جمهورية حرة ديموقراطية.

وهكذا طبعت النهضة المجتمع الاوروبي الذي قامت فيه بطابع خاص ومميز. فادت إلى خلق مجتمع جديد انصرف افراده الى الانغماس في حياة المجون والتمتع بملذات الحياة وتقديس الجمال واباحة المحرمات. فتحطمت قيود الاخلاق والتقاليد والاعراف. واقبل انسان النهضة على التلذذ بالاطعمة الشهية المختلفة واقتناء الألبسة الفاخرة، ولازمه حب جارف نحو سماع الموسيقى وقراءة الشعر والادب الرفيع والاطلاع على مجادلات الفلاسفة، واعمال النحاتين والمصورين والمهندسين. هذه الرغبة الزاخرة بحب الحياة ميزت انسان النهضة عن انسان العصور الوسطى المتزمت الزاهد المتمسك بالفضيلة والمكبل باغلال الكنيسة والعادات والتقاليد المتخلفة. واخيراً فالنهضة الأوروبية حسب تعبير ديورانت «قامت من الناحية المادية على الاستغلال الاقتصادي للكثرة الساذجة على ايدي القلة البارعة. ذلك ان ثروة رومة البابوية قد جاءت من النقود الصغيرة التي تبعث بها آلاف الآلاف من بيوت الصالحين الاتقياء في اوروبا. وان بهاء فلورنس كان مصدره عرق الدهماء المغمورين الذين كانوا يكدحون الساعات الطوال. وليس لهم حقوق سياسية، ولم يكونوا يمتازون عن رقيق الأرض فِي العصور الوسطى الا باشتراكهم في زهو وخيلاء في مجد الفن المدني ولآلئه، وفي حياة المدنية الثائرة وما فيها من دوافع ومغريات» [٣].

## ١ ـ النهضة الايطالية

شهدت المدن الايطالية اواخر العصور الوسطى بزوغ نهضة شاملة في جميع الميادين الادبية والفنية والعلمية والاجتماعية لم يشهدها العالم منذ قيام الحضارة الكلاسيكية في اثينا. ومن هذه المدن انتقلت النهضة الى اوروبا الغربية (فرنسا ـ انكلترا ـ اسبانيا ـ المانيا) اما دول اوروبا الشرقية، فقد بقيت حتى وقت متأخر تعاني من الضغط العثماني على حدودها مما ادى الى تأخر قيام النهضة بين ربوعها.

ومما ساعد على قيام هذه النهضة في ايطاليا قبل غيرها من دول اوروبا ان شبه الجزيرة هذه كانت ما تزال تزخر بتراث الرومان العمراني المتمثل في المباني العظيمة والتماثيل والنقوش والقنوات والسدود المائية. كما كانت تزخر بالمخطوطات المتعددة التي حفظت تراثهم القانوني والادبي والعلمي والسياسي على الرغم من كون ايطاليا قد تعرضت خلال العصور الوسطى لهجمات القبائل البربرية المتعددة وتدميرهم الشديد. كما ان الرخاء الإقتصادي الذي تمتعت به بعض المدن الايطالية نتيجة لازدهار تجارتها واحتكارها للتجارة بين الشرق والغرب منذ القرن الحادي عشر الميلادي، قد أدى بدوره الى استقرار ملموس في هذه المدن التي خضعت لحكومات مستبدة ومستنيرة مما ادى الى احتدام التنافس بينها على تشجيع الاداب والفنون وانشاء المكتبات الزاخرة بالكتب والمجلدات والمخطوطات واستهواء العلماء والادباء والفنانين وتشجيعهم على التأليف والخلق والابداع كما ان الاسر الحاكمة في هذه المدن اقامت الاكاديميات التي ساهمت بدورها في نشر الدراسات القديمة في الفلسفة والاداب والفنون. فقامت في فلورنسا الاكاديمية الافلاطونية، وفي روما أكاديمية اهتمت بالدراسات التاريخية والاثار وفي نابولي اكاديمية لدراسة الاداب وفي البندقية اكاديمية للدراسات الاغريقية.

وعلى الرغم مما اتسمت به البابوية خلال العصور الوسطى من التزمت والجمود وتقييد حرية الفكر، فانها ما لبثت ان اخذت تهتم منذ اواخر العصور الوسطى بتشجيع العلماء ورعاية الفنون والاداب. وغدا البلاط البابوي في هذا الوقت مشابهاً لبلاطات الامراء العلمانيين يعج بالدسائس وحياة المجون. فتهافت اليه العلماء والادباء يبغون الشهرة والاستقرار والكسب المادي. ولم يكن موقف البابوية هذا نابعاً من الظروف السياسية التي احاطت بايطالية في تلك الحقبة فقط، بل لتخوفها من اتجاه النزعة الانسانية نحو وثنية جديدة تتعارض ومفاهيم المسيحية. فحاولت احتضانها والتوفيق بينها وبين المسيحية حتى لا تخسر الفئات المثقفة التي عظم شأنها في هذه الفترة. وهكذا برز بعض البابوات اطلق عليهم «بابوات النهضة» عملوا على نشر العلم والمعرفة وانشاء المكتبات واقتناء المخطوطات واقامة الاكاديميات للتوفيق بين الكنيسة والنهضة. فكان منهم نقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) الذي كان يتمتع بثقافة عالية ومن مؤيدي النزعة الانسانية. فارسل البعثات العلمية الى اثينا والقسطنطينية لجمع المخطوطات التي بلغت ٨٢٤ مخطوطاً لاتينياً و ٣٥٢ مخطوطاً يونانياً [٤]. ومما ينسب الى هذا البابا ولعه الشديد باقتناء الكتب حيث احتوت الفاتيكان في عهده على اكثر من اثني عشر الف مجلد. وكذلك سار البابا بيوس الثاني (١٤٥٨ - ١٤٦٤) على خطى نقولا الخامس. فكان مولعاً بحبه للادب وكتابة القصص والشعر والمقالات. اما ليو العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) فقد مثل بحق عصر النهضة وكان بلاطه نموذجاً لبلاطات الامراء بما ضم من العلماء والادباء والموظفين. كما انه اسس جامعة روما وضم اليها معهداً لتعليم اللغات السامية وانشأ مجمعاً لدراسة العلوم اليونانية. كما أقر في بولونيا تدريس اللغتان السريانية والكلدانية. ولكن نفقات البلاط الباهظة واعطيات الاقارب والاصدقاء وما تطلبته الحروب التي خاضها لضم بعض الولايات من اموال قد افقرت الخزانة البابوية وجعلته يلجأ الى تشجيع بيع صكوك الغفران مما فجر الصراع داخل الكنيسة وأدى الى ظهور الحركة البروتستانتية.

واخيراً فان ايطاليا قد تمتعت في العصور الوسطى بموقع جغرافي مهم على حوض البحر المتوسط، مهد الحضارات القديمة. ففي وقت كان فيه المتوسط يعتبر مركزاً مهماً للنشاط التجاري كونت المدن الايطالية حلقة الاتصال بين أسواق شرقي الحوض وغربه من جهة وبين موانىء الشرق الأوسط، اغنى الاسواق بالمنتوجات والسلع، من جهة ثانية. فهيأ لها هذا الدور رخاء اقتصادياً واطلاعاً واسعاً على حضارات الشرق وعلى الاخص الاسلامية والبيزنطية.

وابرز الاتجاهات التي اشتملت عليها النهضة الايطالية كانت النهضة الادبية والنهضة الفنية.

## أ - النهضة الأدبية

كان من اولى مظاهر النهضة الادبية في ايطاليا بعث الدراسات الاغريقية واللاتينية أو ما يسمى بحركة احياء الدراسات الكلاسيكية او الحركة الانسانية. **(L'Humanisme)**.

قامت هذه الحركة بتشجيع الاسر الحاكمة في المدن الايطالية على دراسة المخطوطات التي كانت تحويها الاديرة والكنائس والكاتدرائيات ومكتبات الامراء [٥]. وقد تمت دراسة المخطوطات الاغريقية عن طريق الاتصال الثقافي الذي نشأ بين ايطاليا والقسطنطينية منذ اوائل القرن الخامس عشر. مما مهد الى هجرة علمائها الى ايطاليا بعد احتلال الاتراك العثمانيين لها. وقد نبغ من الانسانيين الذين اهتموا بادخال الاغريقية الى ايطاليا: بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥) الذي ذهب الى القسطنطينية للتعمق في دراسة الاغريقية. وقد احرز بوكاشيو شهرة واسعة في المائة قصة التي كتبها والتي تعرف باسم «الايام العشرة» وهي مستوحاة من المصادر اليونانية والرومانية القديمة وقصص الشرق والخرافات الفرنسية والاقاصيص الشعبية المنتشرة في ايطاليا نفسها [٦]. وتقوم افكارها الرئيسية على احتقار خرافات العصور الوسطى والتهجم على مفاسد رجال الدين وتهتكك بعضهم.

اما اللاتينية التي يعتبرها الايطاليـون لغـة الحضـارة الرومـانيـة والاداب الرفيعــة. فقــد اهتم بــدراستهـــا العــــالم الشهير بترارك (Pétrarque) (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) واجاد كتابتها على النمط القديم. وقد عمل على نشر الدراسات الانسانية حتى جمع ما يقرب من مائتي مخطوطة. وبترارك في كتاباته يمثل طليعة عصر يختلف في مفاهيمه عن العصر الوسيط اذ لقبه النقاد « بـأبي النهضة » واول النقاد المحـدثين واجمعـوا على انـه اول الكتّـاب الانسـانيين. وبترارك في تفكيره السياسي الذي ظهر في ملحمته التي سماها « افريقا » يظهر اسفه الشديد للانقسامات السياسية بين الامارات الايطالية المختلفة داعيا الى قيام وحدة سياسية تجمع شبه الجزيرة الايطالية باجمعها.

والانسانيون اهتموا بدراسة الانسان وما يتمتع به من قـوة ومشاعر وجمال جسماني وتأثروا كثيراً وهم ينقلون او يترجمون ما كتبه اليونان، بما تمتع به هؤلاء من حرية في مناقشة الامور الدينية والسياسية، فاخذوا يدعـون لها فحرروا العلم من سيطرة الدين بدعوتهم الى تمجيد العقل والتحرر من الاوهام والخيالات مما اكسب أدبهم نزعة واقعية مناهضة لبطولة العصور الوسطى وشجاعتها وفروسيتها وملاحمها الغنائية. ومع ذلك فالحركة الانسانية اتسمت بطابع خاص مميز بدعوتها الى اباحة الملذات والتمتع بالحياة الدنيوية والتحلل من القيود الخلقية واحتقار الضعف والوهن وتحدي العرف والتقليد. لهذا انطلقت الحركة الانسانية من خارج الجامعات التي استحوذ عليها حتى هذا العصر تزمت العصور الوسطى.

وهكذا فان النهضة التي ظهرت اواخـر العصـور الوسطـى قـد اتسمـت بالرجعة الى العالم القديم[٧] واكدت على وحدة الثقافة البشرية ويذكر نور الدين حاطوم بأن الانسانيين « كانوا رسل العالم القديم، ويزعمون احياءه، ويحاولون ان يبعثوه كعلماء ومؤرخين، ويفهموه بـذاتـه، ويتـذوقـوا جمال الاغريقي، وينفذوا منه الى اسباب وجوده. لقد كان القديم وسيلة بالنسبة الى هؤلاء الانسانيين، لانهم يريدون حياة اخرى غير حياة العصر الوسيط، حياة

يشعرون بها، وتغلي في عروقهم »[٨].

ومما يؤخذ على الانسانيين شغفهم باللاتينية الى حد انهم كتبوا معظم ادبهم وفلسفتهم وشعرهم وقصصهم بها مما جعل العامة تفقد اتصالها بهذه الحركة لتقتصر فقط على طبقة الارستقراطية والمثقفين البورجوازيين[٩]. ومع ذلك فقد ظهرت مؤلفات كتبت باللغات المحلية وان كانت اقل قيمة عما كتب باللاتينية. فمع ازدياد ونمو الشعور القومي والاتجاهات المحلية اخذت اللهجات المحلية المختلفة تحل شيئاً فشيئاً محل اللغة اللاتينية. فدانتي منذ القرن الثالث عشر كان قد كتب الكوميديا الإلهية باللغة الايطالية ومن بعده سيبروني. وفي فرنسا ظهر دوبلليه (Du Bellay) (١٥٢٢ - ١٥٦٠) ومونتاني (Montaigne) (١٥٣٣ ١٥٩٢) الذي كتب رسائله: المحاولات (Essais) في الفلسفة والاخلاق باللغة الفرنسية. اما في اسبانيا فقد نشر سرفنتس (Cervantes) (١٥٥٧ - ١٦١٦) قصته دون كيشوت Don Quichotte باللغة الاسبانية وفي انكلترا صاغ كل من لنغلاند Langland (١٣٣٢ - ١٤٠٠) وشوسر Chaucer (١٣٤٠ - ١٤٠٠) افكاره باللغة الانكليزية. اما اللغة الالمانية فقد بلغت كمالها مع لوثير (Luther) في ترجمته للانجيل الى اللغة الالمانية. وفي بوهيميا اخذت اللغة التشيكية تعالج اصعب الموضوعات في القانون والطب والفلسفة واللاهوت حتى اصبحت لغة المصلحين والوعاظ والدعاة ضد محاربيها من الالمان. ويعبر احدهم عن ذلك بقوله « ان محبة الرب للتشيكية لا تقل عن محبته للاتينية »[١٠].

والانسانيون اظهروا ايضاً اهتماماً بالغاً بالنقد التاريخي منذ اواخر القرن الخامس عشر وكان من ابرز اعلام هذه الحركة لورنز ڤالا Loranzo Valla (١٤٠٥ - ١٤٥٧) الذي انتقد صحة « هبة قسطنطين » مستنداً على قواعد تثبت ان قسطنطين لم يمنح هذه الهبة وقد وجد بحثه هذا تقديراً عند البابا نقولا الخامس الذي عينه سكرتيراً في حكومته. كما قامت في فلورنسا مدرسة تاريخية اعتمدت في بحث موضوعاتها على الواقعية والبعد عن قيود

وخرافات العصور الوسطى بجرأة فائقة وكان من اهم اعلامها مكيافللي (١٤٦٩ ـ ١٥٤٢) الذي كتب تاريخ فلورنسا وكتاب آخر عن الاستبداد سماه «الأمير».

### ب ـ النهضة الفنية

عرفت المدن الايطالية منذ القرن الخامس عشر نهضة فنية رائعة، ساعد على قيامها ما كانت تزخر به ايطاليا حتى هذا العصر من الاعمال الفنية المختلفة سواء على الطراز الكلاسيكي ام على الطراز القوطي. فعاش الفن وترعرع جنباً الى جنب مع بعث الدراسات الكلاسيكية بتشجيع الاسر الحاكمة التي تنافست فيما بينها على الاقبال على مباهج الحياة وتزيين قصورها وبلاطاتها وعواصمها باعمال فنية ما زالت حتى اليوم تمثل اروع ما ابتدعه الانسان في هذا المجال.

وتركزت الفنون الايطالية على الانسان الذي اتخذته موضوعها الاساسي واعتبرته اعظم المخلوقات. فاهتمت بابراز قوته واشكاله الجسمانية اكثر مما اهتمت بمعانيه الروحية وذلك لارتباطها بالفنون اليونانية والرومانية التي اعتبرت اهم مصدر لها [١١]. ولهذا ابتعدت حركة الفن عن الروح الدينية وموضوعات العصور الوسطى وجاءت علمانية متحررة وممتزجة بتراث حياتهم اليومية [١٢]. وقد تمتع فنان النهضة بميزات علمية متعددة والمام بكل التقنيات التي أصبحت معروفة في عصره [١٣]. فكان أنج مهندساً معمارياً ونحاتاً ورساماً في نفس الوقت كما كان رافاييل رساماً ومهندساً معمارياً ايضاً ودافنشي مهندساً معمارياً ورساماً ونحاتاً وموسيقياً وملماً بعلم التشريح.

وامتاز فن التصوير عند الايطاليين بالابداع والتحرر من قيود العرف والدين. وقد زاد من روعته استخدام المصورين للاصباغ الزيتية ومعرفتهم لجميع الوسائل العلمية لا سيما الأبعاد الخطية واللونية اي علم المنظور. وكانت موضوعاته جسد الانسان وجمال الطبيعة والتعبير عن المشاعر والغرائز الكامنة

في الحب والألم واللذة على اوسع نطاق.

ووصــل فــن التصــويــر الى قمتــه على يــد رافــاييــل Raphael (١٤٨٣ - ١٥٢٠) الذي تمثل اعماله الفنية ذروة الفن الايطالي في عصر النهضة. ومن اهم اعماله جدرانيات الفاتيكان ذات المواضيع المتعددة التي تدل على تاريخ اللاهوت والفلسفة وما ترمز اليه من القوة والعدالة والحكمة الانسانية والإلهية وما تتصف به من السهولة والاتزان والمثالية. اما في صورته للبابا جول الثاني فقد امتازت بالعمق وغنى الالوان.

اما اعمال ليونار دافنشي Léonard de Vinci (١٤٥٢ - ١٥١٩) الفنيـة فقد تجسدت في لوحته «العذراء بين الصخور» التي اظهر فيها اهمية النور والظل وفي «العشاء الأخير» التي اظهر فيها الهدوء والاتزان والصفاء الرائع واحاسيس النفس البشرية التي تظهر في اوضاعهم المختلفة. ثم الجوكندا أو الموناليزا التي تجسدت فيها مشاعر النفس الانسانية عميقة تنبض بالحياة(١٤).

واشتهر من المصورين الإيطاليين ايضـاً ميشـال أنـج Michel - Ange (١٤٧٥ - ١٥٦٤) الذي برزت مواهبه ايضاً في النحت والهندسة. ومن اهم رسومه تزيين سقف كنيسة السكستين (Sixtine) بالرسوم التي تمثل عملية الخلق. ثم جـدرانيـات كنيسـة بـولين في الفـاتيكـان. امـا تيسيـان Titien (١٤٨٥ - ١٥٧٦) فقد اظهر معرفة عظيمة في الألوان وكانت موضوعاته ميتولوجية. كما برع في رسم الصور الشخصية وأهـم لـوحـاتـه «فينـوس» و «الحب العذري والحب الدنيوي» و «صورة شارل الخامس» و «صورته» هو.

اما فن النحت فقد اتصف بمحاكاة الاقدمين اكثر من اي فن آخر، وذلك لأن تماثيل ومنحوتات اليونان والرومان ما زالت متبقية كنماذج حية امام فناني النهضة الايطاليين. ومن اشهر الذين ابدعوا في فن النحت جيبرتي Ghiberti (١٣٧٨ - ١٤٥٥) الذي جاءت منحوتاته اشبـه بـاللـوحـات الزيتيـة، ثم دونـاتللـو Donatello (١٣٨٦ - ١٤٦٦) الذي يتميـز فنـه

بالواقعية والقوة التعبيرية حيث اظهر معرفة دقيقة لجسم الانسان وعلم التشريح ومن ابرز منحوتاته « القديس جورج » و « النبي داوود ». اما ميشال أنج فيعد بحق من ابرز نحاتي ايطاليا اد استطاع ان يجعل من تماثيله كائنات تكاد تكون حية باهتمامه اظهار مفاتن جسم الانسان. ومن اهم اعماله تمثال « داوود » ثم « العذراء والطفل » و « قبر البابا جول الثاني » وضريحي « جوليان ولوران دي مدتشي » في كنيسة سان لوران في فلورنسا.

اما فن العمارة فقد شهد في ايطاليا تقدماً عظيماً في عصر النهضة لكونه نجا من الدمار والاندثار خلال العصور الوسطى. ومع ان فن العمارة في عصر النهضة تفوق على فن العمارة القوطي في تفاصيله الا انه لم يكن يجاريه في العظمة. لهذا جاءت عمارة النهضة افقية تمتد في السعة أكثر مما تعلو في السماء باستثناء بعض الابنية الضخمة. في حين جاء الطراز القوطي عمودياً يبعث في النفس النشوة ويعقد الآمال على السماء ومسكن الارباب[١٥]. اذ امتازت الكنائس والكاتدرائيات التي شيدت على الطراز القوطي بالاقبية العالية والدعائم المعلقة نتيجة للحماسة الدينية التي اظهرتها الشعوب الجرمانية. ومع ان ايطاليا قد اخذت بالطراز القوطي منذ اواخر القرن الثالث عشر فانها لم تتخل تماماً عن الطابع الكلاسيكي في هذا الميدان. وابرز فنون العمارة في ايطاليا ظهرت في كاتدرائية فلورنسا التي أنشأها برونلسكو (Brunellesco) ثم كنيسة القديس بطرس في روما التي وضع تصميمها برامانت (Bramante) ثم في القصور والمباني العظيمة التي شيّدت في انحاء مدن ايطاليا[١٦].

لا شك ان النهضة الايطالية قد تركت اثارها واضحة على غيرها من النهضات الاوروبية التي قامت في مختلف بلدان غرب اوروبا. مع ان هذه احتفظت بروح الاصالة والمحلية تبعاً لظروف واحوال البلد الاقتصادية والاجتماعية. وقد تم انتقال النهضة من ايطاليا الى خارجها عبر انتشار الكتب بعد اختراع الطباعة، وعبر الباحثين وطلاب العلم من جميع الجنسيات الذين وفدوا اليها بدافع الاعجاب الشديد بالنهضة التي قامت فيها.

## ٢ ـ النهضة في فرنسا

لقد عاد الغزو الفرنسي لايطاليـا خلال القـرن السـادس عشر بفـوائـد حضارية عظيمة على الفرنسيين. اذ استطاع كل من شارل الثامن وفرنسوا الأول ملكي فرنسا ان يشدا معهما عند عودتهما من ايطاليا الى فرنسا عدداً كبيراً من الفنانين الايطاليين من بينهم ليونارد دافنشي. كما انهما جلبا معهما مجموعة عظيمة من التحف الفنية ايضاً منها الجوكندا والعذراء والقديسة آنا وباخوس والقديس يوحنا لدافنشي وعدد آخر مماثل من لوحات رافاييل وغيره من نحاتي ومصوري ايطاليا الشهرين.

### أ ـ النهضة الادبية

لقد احتفظ الادباء الفـرنسيـون في عصر النهضـة بـاسلـوبهم الخاص في التفكير والتعبير عنه. فمع كونهم قـد اطلعـوا على مخلفـات الاقـدمين مـن الاغريق والرومان في هذا المجال الا ان انتاجهم الادبي بقي مزيجاً بين التراث القديم وبين ما تمثلت به خصائصهم الذاتية بعكس الانتاج الإيطالي الذي ظهر نموذجاً للمخلفات القديمة.

ومن اعلام النهضة الأدبية في فرنسا رابليه Rabelais (١٤٨٣ ـ ١٥٥٣) الذي كان استاذاً في علم التشريع وقسيساً واديباً في نفس الوقت. وقد لاقت رواياته النقدية لافكار ونزعات وعادات عصره رواجاً عظيماً بين الفرنسيين لأسلوبه الممتع وموضوعاته التي تناولها. اما مونتاني (Montaigne) فيظهر لنا في كتابه « المحاولات » ذو ثقافة وتفكير « إنساني » لا يقل عما ظهر في ايطاليا في هذا الميدان.

اما في عالم الشعر فقد نبغ رونسار (Ronsard) (١٥٢٤ ـ ١٥٨٥) الذي كان متعمقاً في دراسة الثقافة القديمة. فكتب شعراً نقياً رقيقاً امتاز بحسن الايقاع والقافية الموسيقية متخذاً من الحب والشباب والشيخوخة مواضيع له.

ب ـ النهضة الفنية:

تعتبر النهضة الفنية في فرنسا وليدة النهضة الايطالية، مع ان الاتجاه الفني الذي برز فيها حتى منتصف القرن الخامس عشر بقي يمثل التقاليد الفرنسية مع تأثير قليل للفن الايطالي عليه. اما في الدور الثاني فقد طغى الاسلوب الايطالي واصبح الفن الفرنسي فناً كلاسيكياً دون ان يفقد صفاته الخاصة الفرنسية من تذوق للوضوح والضياء والبساطة والرشاقة [١٧].

وتمثل فن البناء في فرنسا بالكنائس والقصور البلدية وقصور الملوك والنبلاء الفخمة. ومع ان المعماريين الفرنسيين تأثروا إلى حد بعيد بفن العمارة الايطالية الا ان فنهم بقي اميناً في اسلوبه على التقاليد القومية. واشتهر من المعماريين ليسكو Lescot (١٥١٥ ـ ١٥٧٨) مخطط قصر اللوفر الذي تتجلى فيه «دقة البناء والتناظر وجميع العناصر المستوحاة عن القديم ممتزجة بالرشاقة النادرة والاهتمام بالاسلوب ونقاوة الخطوط» [١٨]. كما اشتهر الفنان جان بولان (Bullant) الذي استوحى فنه في بناء قصر ايكون (Ecouen) بالقرب من باريس، من معبد جوبيتر في روما.

أما عن فن النحت فقد وجد في فرنسا خلال عصر النهضة مدرستان للنحت تمثل احداهما التقاليد الفرنسية والاخرى تمثل الفن الايطالي الذي يعود في جذوره إلى العصر الكلاسيكي. ومن اشهر النحاتين الفرنسيين ميشال كولومب Colombe (١٤٣٠ ـ ١٥١٣) الذي نحت ضريح فرنسوا الثاني في كاتدرائية نانت ثم بونتان Bontemps الذي نحت تماثيل ضريح فرنسوا الاول ثم غوجون Goujon الذي تأثر بالنهضة والفنون القديمة فجاءت منحوتاته كلاسيكية خالصة.

أما اعمال الفرنسيين في الرسم والتصوير فقد كان اضعف منها في مجالي النحت والبناء. اذ اعتمد ملوك فرنسا في تزيين قصورهم على فنانين ايطاليين وفلامنديين لا سيما في عهدي لويس الثاني عشر وفرنسوا الأول. ومن اهم

الرسامين الفرنسيين جان برال ثم بوريثون الذي اشتهر بالمنمنات الغنية بالالوان ثم كوزان Cousin الذي كان متأثراً بمدرسة البندقية من حيث التقنية وينسب اليه اول عارية في التصوير الفرنسي (١٩).

## ٣ ـ النهضة في اسبانيا

كان اتصال اسبانيا بالنهضة الايطالية قد تم بسبب ما كان للاسبان من وجود سياسي في ايطاليا منذ اواخر العصور الوسطى، وعلى الاخص بواسطة بابوات روما الذين كانوا من اصل اسباني وكان لهم في ميدان النهضة اثر واضح ونذكر منهم كاليكست الثالث واسكندر السادس.

ولكن مع قيام حركة الاصلاح الديني ـ منذ اوائل القرن السادس عشر تراجعت حركة النهضة المتمثلة في الاقبال على الدراسات الكلاسيكية في اسبانيا. وذلك لأن هذه الحركة ظهرت كأنها علمانية معادية للكنيسة الكاثوليكية التي تتزعمها البابوية المتحالفة مع ملوك اسبانيا والكنيسة فيها.

لقد كان المسرح ابرز المظاهر الادبية في اسبانيا. واشتهر في هذا المجال دوفيغا (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥) الذي كتب اكثر من مائة ملهاة. كما كان دوكاسترو ملهماً للكاتب الفرنسي الشهير كورني (Corneille). ولكن اهم آداب الاسبان في هذا العصر سطرها الاديب سرفانت (Cerventes) الذي وضع قصة «دون كيشوت» وفيها ينتقد اوضاع وتقاليد الاسبان السائدة وخاصة فروسية القرون الوسطى.

أما الفن الاسباني فقد تأثر الى حد بعيد في الاسلوب الايطالي وان بقي متمسكاً بالفنون القوطية. ومن اهم آثار الاسبان في هذا المجال: الاسكوريال (L'Escurial) الذي بناه المهندس هيريرا (Herrera) وكذلك قصر طليطلة وقصر شارل الخامس.

## ٤ - النهضة في المانيا

لم يُقبل الالمان على دراسة التراث القديم منذ بدء النهضة كما اقبل عليها رواد العلم من مختلف بلدان اوروبا، وذلك بسبب معارضة رجال الدين لهذه الدراسات ذات الاتجاهات الوثنية والعلمانية المتحررة. وما ظهر في المانيا بعد ذلك من دراسات انسانية انما كان لخدمة الغرض الديني، اذ اتخذها دعاة الاصلاح الديني وسيلة لبث ارائهم الدينية الجديدة التي تتعارض ومفاهيم رجال الدين التقليدية.

أما النهضة الفنية فقد خضعت في المانيا منذ منتصف القرن الخامس عشر لتأثيرات متعددة اهمها التأثير الفلامندي والايطالي. فبينما كانت الفنون في المانيا قبل القرن الخامس عشر في مواضيعها الدينية ذات قدرة تعبيرية رومانطيقية ومخيلة غريبة نراها بعد ذلك اكثر اتجاهاً نحو الواقعية الطبيعية. وقد مثل هذا الاتجاه شونغاور (Schongauer) الذي تأثر الى حد بعيد بالفنانين الفلامنديين. وامتازت الفنون الالمانية بعدة خصائص اهمها:

١ - تغلب الحفر والرسم على التصوير الملوّن.

٢ - التركيز على ابراز الجزئيات الدقيقة.

٣ - الواقعية.

٤ - ان المواضيع الدينية جاءت ذات طابع درامي خاصة في الصور التي وضعت حول «آلام السيد المسيح».

٥ - ذات ذوق شعبي بعكس الفنون الايطالية التي جاءت خاصة ببطانة الملوك والأرستقراطيين.

وأهم الفنانين الألمان غرونوالد Grünewald (١٤٦٠ - ١٥٢٨)

صاحب اللوحة المتعددة الوجوه التي تمتاز بالواقعية والرمزية الدينية ثم البير دورر Dürer الذي يعتبر الممثل الاول لاتجاهات العصر الفنية والروحية، حيث حمل إلى مناطق اوروبا الشمالية ذات الطراز القوطي في الفن روح النهضة الايطالية وشاعريتها. ومن اهم اعماله في هذا المجال «ادم وحوا» و «الرسل الأربعة» كما ان دورر اشتهر بالحفر على الخشب والنحاس بالاضافة الى كونه رساماً ماهراً.

## ٥ - النهضة في انكلترا

لقد تأخر ظهور النهضة في انكلترا بسبب ما عانته من حرب المائة عام وحرب الوردتين. ومنذ مطلع القرن السادس عشر اخذ طلاب العلم من جامعة اكسفورد يفدون الى ايطاليا للاطلاع على علوم وفنون واداب النهضة فيها. كما ساهم اراسم (Erasmes) ايضاً في محاضراته العديدة التي القاها في جامعتي اكسفورد وكمبريدج في احياء الدراسات الانسانية والاقبال على دراستها.

وقامت النهضة الانكليزية على اكتاف البورجوازية الناشئة فيها. فنادت بتحرير الفكر والبحث العلمي من قيود الكنيسة، كما نادت بكنيسة قومية متحررة من سيطرة البابوية وهيمنتها الدينية. ومن اهم اعلام النهضة في انكلترا كوليت Colet وتوماس مور (More) اللذين برعا في علم اللاهوت والدراسات الانسانية. وقد بلغ الانتاج الادبي في انكلترا حد الروعة في القرن السابع عشر في مؤلفات شكسبير (Schkespeare) وملتون Milton.

## ٦ ـ النهضة في الاراضي المنخفضة

لقد تميزت النهضة الفنية التي قامت في منطقة الفلاندر منذ القرن الخامس عشر بمثالية دينية عميقة ميزتها عن الفنون الايطالية التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالتقاليد الكلاسيكية. والفنان الفلامندي لم يعتمد على الدراسة العقلية والمنطقية للابعاد كالفنان الايطالي. فكان ينقل الطبيعة الى مرسمه لا كما يتخيلها بل كما تتراءى له. فامتازت رسومه بالدقة والوضوح والالوان الفنية المنسجمة. ومن اهم الفنانين الفلامنديين في القرن الخامس عشر جان فان ايك EYCK (١٣٩٠ ـ ١٤٤١) الذي عاش في بلجيكا ومن اعماله «عبادة الحمل» (Adoration de l'agneau megestiqe). ثم روجيه فان در ويدن Van Der Weyden الذي امتازت اعماله بالاناقة والرقة في التعبير. وفان در غوس VAN Der Goes وتنتمي لوحته عبادة الرعاة (Adoration des Bergers) إلى الفن الشعبي الذي يعبر عن السذاجة والروح الدينية العميقة.

أما الجانب الادبي في الاراضي المنخفضة فلم يبرز الا بعد الصراع القومي الذي خاضته شعوب هذه المنطقة للاستقلال عن الحكم الاسباني. فكانت جامعة ليدن Leyden (١٥٧٤) مركزاً هاماً للدراسات الانسانية الاغريقية منها واللاتينية. واعتبر اراسم، وهو هولندي، من الم معاصريه في هذه الدراسات التي اتخذها وسيلة لخدمة المجتمع وتخليصه من الجهل والعادات الفاسدة وخاصة ما يتعلق منها بالدين. فكانت اهم اعماله نشره للانجيل بلغته الاصلية الاغريقية وترجمته إلى اللاتينية ليستطيع العامة الاطلاع عليه.

## هوامش الفصل الثاني

(١) فيشر. هـ: اصول التاريخ الاوروبي الحديث ترجمة زينب عصمت راشد دار المعارف بمصر ١٩٦٥ ص ٨.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢١) ص ٣٥٧.

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٧.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٠) ص ٣٥.

(٥) درسدن. س: الحركة الانسانية والنهضة ترجمة عمر شُخاشيرو. منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٧٢ ص ١٣.

(٦) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (١٨) ص ٥٦.

(٧) درسدن. س: المرجع نفسه ص ٦٣.

(٨) نور الدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة الاوروبية. دار الفكر الحديث - لبنان ١٩٦٨ ص ٧٩.

(٩) انظر GARIN. E: Moyen -Age et Renaisance traduit de l'italien par claude Carme. éd. Gallimard Paris 1969, P. 98

(١٠) PERROY. E.: Histoire général des civilisations Paris 1955. T.III, P 412

(١١) انظر DELUMEAU. J.: La civilisation de la Renaisance . Arthaud 1973 P. 123.

(١٢) ARGAN. G.: Histoire générale de la peinture - Renaisence . Marian Paris 1968. P. 11

(١٣) DELUMEAU: op. cit P. 176

(١٤) KENNETH. C.: Léonard de Vinci. Le Livre de POCHE 1967

(١٥) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء ٢١ ص ٣٦٢.

(١٦) انظر سعيد عاشور: أوروبا في العصور الوسطى الجزء الثاني. دار النهضة العربية الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٠٣.

(١٧) نور الدين حاطوم: المرجع نفسه ص ٢٣٥.

(١٨) المرجع السابق ص ٢٣٦.

(١٩) للاطلاع بتوسع على اعمال الفنانين الفرنسيين انظر.
FAURE. E.: Histoire de l'ART (l'art renaissant). PASSIM.

# الفصل الثالث

# حركة الكشوف الجغرافية

تمثلت النهضة الاقتصادية في غرب اوروبا، اواخر القرن الخامس عشر، بحركة الكشوف الجغرافية التي تعتبر نتيجة حتمية للنهضة العلمية، وحيوية عصر النهضة، وأزمة التجارة التي حال الاتراك العثمانيون، بعد سقوط القسطنطينية، دون توسعها وازدهارها. وهي لا تعود بأي حال الى روح المغامرة والمبادرة الفردية، التي وصفها بها بعضهم، بقدر ما هي تفتيش وبحث عن وسائل جديدة للرزق وتكديس الثروات. ولا شك ان عصر النهضة قد وفر للمكتشفين كتابات الجغرافيين اليونان التي ترجمت الى اللاتينية وأهمها كتابات سترابون الذي حاول الطواف حول الأرض ثم كتابات سينسكا عن العوالم التي ستكتشف وغيرها مما وضعه اليونان والعرب في ايدي علماء اوروبا خلال هذا العصر. بالاضافة الى ما شهده عصر النهضة من تقدم هائل في علم الفلك والرياضيات ورسم المصورات الجغرافية، وصناعة السفن. فقد اصبحت السفن الكبيرة ذات الدفة المتحركة والشراع المثلث والمزود بالبوصلة والاسطرلاب اشد مقاومة لعبور المحيطات، واكثر توغلاً في الاتجاهات المخالفة للرياح من السفن القديمة التي كانت تعتمد في سيرها على المجداف.

ومن المؤكد ان العوامل الاقتصادية لعبت دوراً مهماً في دفع حركة الكشوف الجغرافية الى الأمام. اذ حظي البحارة الذين اتصفوا بالحيوية، بتشجيع الحكومات التي لم تكن تُحل مشاكلها الاقتصادية كاسبانيا

والبرتغال الا بالعثور على طريق تجاري جديد للحصول على بضائع آسيا من التوابل كالقرفة والبهار وجوز الطيب لاعداد مختلف اصناف الطعام. وعلى العقاقير الهندية كالافيون والكافور والصمغ للاعمال الطبية. والعطور العربية كالمسك والعنبر وماء الورد لكثرة استخدام نساء الامراء لها. وعلى البخور للكنائس ثم الحرير والبن والسجاد والاحجار الكريمة والعاج لتكملة مظاهر الابهة والعظمة في بلاطات الملوك وقصور النبلاء. كما ساهمت فيما بعد حاجة اوروبا الشديدة الى المعادن الثمينة كالذهب والفضة في اندفاع حركة الكشوف للخلاص من الازمة الاقتصادية التي انتابت اوروبا خلال القرن الخامس عشر وأدت بالتالي الى تضاءل الانتاج وانكماش المبادلات التجارية وهبوط الاسعار. بالاضافة الى ان طمع الحكومات الاوروبية في السيطرة وزيادة النفوذ وامتلاك المستعمرات في الامكنة المكتشفة ادى بدوره الى تنافس مستمر طيلة القرن السادس عشر لاكتشاف بقية القارات.

لقد كانت اسعار هذه البضائع مرتفعة جداً إلى حد بلغت معه في وصف الرجل الثري بانه (كيس بهار). مما يعود الى صعوبة الطرق التي كانت تمر بها هذه البضائع وللرسوم الجمركية الباهظة التي كانت تفرض على عبورها من قبل سلاطين المماليك في موانيء مصر كالاسكندرية والسويس او من اسواق سورية في دمشق وحلب وغيرها. او لسيطرة العثمانيين فيما بعد على الطرق البرية والبحرية التي كان على التجار الاوروبيين المرور بها. كما ان احتكار تجار البندقية لهذه البضائع قد أدى في نفس الوقت الى ارتفاع اثمانها، اذ ان الصراع الحربي الذي قام بين البندقية ومنافستها جنوى في هذا الميدان قد ادى الى القضاء على قوة الجنويين في المتوسط.

وللتخلص من سيطرة واحتكار تجار البندقية والعرب لهذه البضائع، ومن خطورة طرق المواصلات عبر آسيا، وصعوبة النقليات وازدياد كلفتها اخذ الاوروبيون يفتشون عن منفذ يصلون بواسطته مباشرة الى البلاد المنتجة عبر المحيط الاطلسي دون عبور المتوسط.

اما الدوافع الدينية فقد لعبت دوراً بارزاً في حركة الكشوف الجغرافية. حيث جعلت البرتغال شعارها في هذه المرحلة ضرب قوة المسلمين في غرب افريقيا منعاً لمحاولات القرصنة التي كان يقوم بها هؤلاء على شواطىء الاطلسي والمتوسط. كما ان فرديناند حاكم ارغونة وايزابيلا حاكمة قشتالة سيطرت على تصرفاتهما بعد ان نجحا في طرد المسلمين من اسبانيا روح صليبية جديدة بدت اكثر تعصباً وتأججاً من صليبية القرن الحادي عشر للميلاد. وهكذا حازت حركة الكشوف على اهتمام بالغ من قبل البابوية. فكان رجال الدين يرافقون الرحالة الى الامكنة المكتشفة لنشر الكاثوليكية فيها. كما ان البابوات وعدوا البحارة الذين يشاركون في هذه الرحلات بالفوز بالجنة. واصدر بعضهم مراسيم عديدة يخولون بها ملوك اسبانيا والبرتغال الحق في امتلاك الاقاليم التي تم اكتشافها او التي ستكشف فيما بعد[١].

واخيراً فقد كانت رحلات المغامرين الى آسيا منذ القرن الثالث عشر دافعاً لاجتذاب الرحالة اليها. وكان كتاب ماركو بولو **(Marco Polo)** «كتائب العجائب» الذي وضعه بنفسه يحوي الكثير من القصص عما شاهده من الكنوز والخيرات الزراعية والصناعية في البلاد التي زارها اثناء تجواله طيلة اربع وعشرين عاماً (١٢٧١ - ١٢٩٥) قد شجع العديد من المغامرين للمجيء الى الشرق حيث اثبتوا صدق ما رواه ماركو بولو عن رحلته.

## ١ ـ الكشوف البرتغالية

يعود فضل اهتمام البرتغال بالكشوف الجغرافية الى الأمير هنري الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤١٠) ابن الملك جان الأول الذي كان يرغب في السيطرة على شواطىء المغرب المطلة على المحيط الاطلسي بغية الوصول الى غانا والاستيلاء عليها بدافع الحماس الديني من جهة والكسب المادي من جهة ثانية. ولتحقيق هذه الرغبة التي تنبتها البابوية اصدر البابا نقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) مرسوماً بعث به الى هنري يشجعه على المضي في عمله ويمنحه الحق في السيطرة على جميع البلاد التي تخضع للمسلمين. «ان سرورنا لعظيم ان نعلم ان ولدنا العزيز هنري امير البرتغال قد سار في خطى ابيه، الملك جون، بوصفه جندياً قديراً من جنود المسيح ليقضي على اعداء الله واعداء المسيح من المسلمين والكفرة»[٢].

بدأ هنري عمله في تأسيس اكاديمية بحرية ومرصداً. وجمع لديه مجموعة كبيرة من العلماء الجغرافيين والخرائط التي كانت موضوعة حتى عصره. وفعلاً بدأت تباشير النجاح عندما كشف البرتغاليون جزائر ماديرا وجزر أزور ومصب نهر السنغال ثم الرأس الأخضر حيث وصلوا الى غانا. وقد سجل كشف غانا حدثاً مهماً في التاريخ الحديث حيث بدأت منها تجارة الرقيق التي حققت ارباحاً طائلة على المشتغلين بها. وازداد الاقبال على هذه التجارة بعد حركة الكشوف الاميركية حتى ادت الى قيام مجتمع غير متجانس في الولايات المتحدة الاميركية ووضعت قضية الملونين التي ما زالت حتى يومنا من المشاكل الاجتماعية التي يصعب حلها.

بعد الكشف البحري الى غانا، ازداد تطلع البرتغاليين الى اكتشاف طريق يؤدي الى الهند. فنجحوا في عبور خط الاستواء سنة ١٤٧١. وتوصلوا بعدها الى كشف مصب نهر الكونغو. وهكذا احتكر البرتغاليون طريق الملاحة

البحرية على طول الشاطىء الافريقي الى غينيا.

اما كشف الطريق البحرية عبر رأس العواصف، الذي اطلق عليه فيما بعد رأس الرجاء الصالح، انما يعود الى سنة ١٤٨٧ عندما قام الملاح البرتغالي برتلمي دياز (Diaz) على رأس حملة بحرية برحلة على محاذاة الشاطىء الافريقي ووصل الى اقصى الطرف الجنوبي لافريقيا بل عبره وسار بمحاذاة الشاطىء الشرقي. ولكنه ما لبث ان اضطر الى العودة بعد ان رفض بحارته التوغل في المغامرة. وفي عهد مانويل الثاني ملك البرتغال بدأت رحلة فاسكودي غاما (Vasco de Gama) سنة ١٤٩٧ في أربع سفن ومائة وخمسين بحاراً. فوصل الى موانىء شرق افريقيا في العام التالي. وكان فيها موزمبيق وممبسه (Mambassa) ثم ماليندي (Malinde) التي تتبع حالياً جمهورية كينيا. ومن هذا الثغر أبحر فاسكو باتجاه الهند مصطحباً معه البحار العربي ابن ماجد (شهاب الدين احمد بن ماجد السعدي النجدي) الذي ترك مؤلفات عديدة في اصول علم البحر. وكان ابن ماجد يمتلك اسطرلاباً من المعدن وخرائط تتصف بالدقة المتناهية لمعرفة خطوط الطول والعرض. فسلمه فاسكو قيادة سفينته عندما لمس منه القدرة والمهارة على الابحار.

وفي ايار من عام ١٤٩٨ وصلت السفن الى ثغر كاليكوت (Calicut) على الشاطىء الغربي للهند. وكانت هذه المدينة من المراكز التجارية الشهيرة يقطنها جالية كبيرة من التجار العرب. ومكث فاسكو في كاليكوت مدة ثلاثة اشهر ليعود بعدها الى البرتغال يحمل الاحجار الكريمة والبضائع الهندية حيث وصل لشبونة عام ١٤٩٩.

وهكذا نجح البرتغاليون اخيراً في التخلص من احتكار تجار البندقية والعرب لطريق التوابل. وانشأوا لهم المراكز المسلحة في افريقيا الشرقية والساحل الغربي للهند وجزر المحيط الهندي والخليج العربي حتى حدود الصين واليابان (دلاجوا وموزمبيق وسوقوطره وهرمز ومسقط وسومطرا وجاوا وسيلان...) كما أقاموا المخازن والقلاع في امكنة عديدة فتحول المحيط

الهندي فعلاً الى مستعمرة برتغالية لا تستطيع اية سفينة ان تمخره الا باذن من ملك البرتغال او (ملك الفلفل). وبدت لشبونة منذ ذلك التاريخ من اهم المراكز المالية المرموقة، بل منافساً لأعظم مدن اوروبا الغربية بما فيها الجمهوريات الايطالية نفسها.

وما لبث البرتغاليون ان اضافوا الى كشوفهم هذه منطقة البرازيل عندما ضلّت احدى حملاتهم البحرية (بقيادة كبرال) طريقها وهي متجهة نحو المحيط الهندي فوصلت الى البرازيل عام ١٥٠٠ عند خط عرض ١٦ جنوباً. وازدادت كشوف البرتغاليين في تلك المنطقة بتشجيع ملك البرتغال مانويل (١٤٩٥ - ١٥٢٠) الذي وقع اختياره على رحالة ماهر هو امريكو فيسبوتشي (Amerigo Vespussi) الذي أطلق اسمه على القارة الجديدة. فعرفت منذ ذلك الحين باسم القارة الاميركية.

## ٢ - الكشوف الاسبانية

في الوقت الذي كان فيه البرتغاليون منهمكين في الكشف عن طريق بحرية تصل اوروبا بالهند كان كريستوف كولمبوس، من سكان جنوى، يمخر عباب الاطلسي للوصول الى شواطىء آسيا الشرقية لحساب اسبانيا. اذ ان دوافع الاسبان في كشف طريق جديدة الى الهند لم تكن تقل في اهميتها عن دوافع البرتغاليين.

بدأ كولمبوس رحلته من ميناء بالوس (Palos) في الثالث من آب سنة ١٤٩٢ في ثلاث سفن[٣] تحمل تسعين ملاحاً، ووصل بعد مرور سبعين يوماً الى جزيرة تدعى غوانا هاني (Guana hani) احدى جزر باهاما. فاطلق عليها اسم سان سلفادور، ثم ابحر منها الى كوبا وهايتي التي دعاها اسبانيولا. واعتقد كولمبوس انه وصل جزر الهند الشرقية على الرغم من انه لم يجد اثراً للتوابل والافاوية. وعاد في اذار سنة ١٤٩٣ الى اسبانيا يحمل معه نماذج من النباتات غير معروفة في اوروبا كالبطاطا والتبغ والذرة والقطن. بالاضافة الى كميات الذهب والفضة اللذين جاء من اجلهما، كما حمل معه مجموعات من السكان الاصليين (الهنود الحمر).

وقام كولمبوس بثلاث رحلات أخرى (١٤٩٣، ١٤٩٨، ١٥٠٢) اكتشف خلالها جزر جديدة في البحر الكاريبي وجزءاً من شاطىء اميركا الوسطى وشاطىء اميركا الجنوبية. وتوفي سنة ١٥٠٦ دون ان يعلم انه اكتشف عالماً جديداً. والاسم الحالي للقارة نسبة الى امريكو فيسبوتشي الذي كشف فنزويلا ووصل الى الشاطىء الشرقي لاميركا الجنوبية حيث وضع رسالة اثبت فيها ان الاقاليم الجديدة ليست الهند أو الصين او اليابان انما هي اقطار جديدة. فاطلق عندها اسمه على اميركا الشمالية واميركا الجنوبية.

بدا للبرتغاليين ان كشف الاسبان « للشواطىء الغربية للهند ». يهدد بشكل مباشر نفوذهم في الجهات التي منحهم اياها المرسوم البابوي الذي نص امتلاكهم لجميع الاراضي والجزر التي يكتشفوها فيما وراء رأس موجادور. وكادت الحرب تقع بين اسبانيا والبرتغال اثر رحلة كولمبوس. مما يؤكد ضعف الدافع الديني لحركة الكشوف هذه اذا ما قيس بالمنافع الاقتصادية التي تحلم بها كل من الدولتين. والا ما مبرر التخوف المستجد اذا كان هدفهما يقتصر فقط على نشر الكاثوليكية في الامكنة المكتشفة؟.

ولما كانت كل من اسبانيا والبرتغال اقرب الدول المسيحية الى البابوية فقد أصدر البابا اسكندر السادس مرسوماً قرر بمقتضاه اتخاذ خط وهمي يفصل بموجبه بين ممتلكات الامبراطوريتين. ويبدأ هذا الخط من القطب الشمالي الى القطب الجنوبي ويمر على بعد مائة فرسخ الى الغرب من جزر الخالدات وجزر الرأس الأخضر. وتكون الاقاليم التي تقع الى الشرق منه ممتلكات برتغالية والاقاليم التي تقع الى الغرب منه ممتلكات اسبانية. ولكن البابا رسم خطاً جديداً بعد أن طعنت البرتغال بالتقسيم الأول ونقل الخط الوهمي الى نقطة ثانية تبعد ٣٦٠ فرسخاً غرب جزائر الرأس الأخضر. وقد قوبل قرار البابا هذا بنقد شديد من قبل بقية الدول الاوروبية لأنه جعل اكتشاف الاقاليم حكراً على اسبانيا والبرتغال دون ان يأخذ بعين الاعتبار مصالح بقية الدول الاوروبية كانكلترا وفرنسا وهولندا.

بعد كولمبوس انتعشت حركة الكشوف الاسبانية في القارة الجديدة، وذلك بسبب ضرورة السيطرة على مناجم جديدة للمعادن الثمينة من ذهب وفضة. فاتخذ الاسبان من كوبا قاعدة لهم واخذوا بالتوغل نحو الجنوب. فاستولى فرناند كورتيز (Cortez) على المكسيك عام ١٥٢١ ومنها اخذت تتدفق الى اسبانيا كنوز الذهب والفضة حتى غدت مدريد منبع الفضة في غرب أوروبا. ثم استولوا على غواتيمالا عام ١٥٢٢ وهندوراس ونيكاراغوا سنة ١٥٢٤ وسلفادور سنة ١٥٢٦. وما لبث احد المغامرين الاسبان ويسمى

فرنسوا بيزار (Pizare) ان اكتشف البيرو (Pérou) ومدّ الأسبان نفوذهم بعدها الى بوليفيا وفنزويلا وكولومبيا وساحل التشيلي واستعمروا الارجنتين واسسوا فيها بيونس ايرس (Buenos - Ayros). وهكذا دانت اميركا الجنوبية بمعظمها لاسبانيا عدا البرازيل التي كان البرتغاليون قد سيطروا عليها منذ سنة ١٥٠٠.

اما حركة الكشوف الجغرافية في اسبانيا فقد حفلت في عهد شارل الخامس، ملك اسبانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، بتنفيذ اعظم مشروع جغرافي. وهو الطواف حول العالم بالانطلاق من نقطة في اتجاه واحد والوصول اليها. اذ اثبت انجاز هذا المشروع كروية الأرض في اذهان شعوب ذلك العصر بالتجربة المحسوسة. ويعود تنفيذه الى شارل الخامس الذي عمل على تمويله. فعهد به الى التاجر البرتغالي المعروف باسم ماجلان (Magellan). وكانت حروب شارل الخامس مع فرنسوا الأول ملك فرنسا (الحروب الايطالية) هي التي دفعت به الى هذه المغامرة لحاجته الشديدة الى الاموال التي عول على جمعها اذا ما نجحت هذه التجربة.

اعتقد ماجلان انه يستطيع الوصول الى جزر الهند الشرقية بالاتجاه نحو الغرب والطواف حول الطرف الجنوبي لامريكا. لأن كشوفه لجزر جديدة على هذه الطريق سيجعل البرتغال في نفس الوقت تتخلى عن ادعائها في ملكية هذه الجزر لأنها تقع فعلاً الى الغرب من الخط الوهمي الذي حدده مرسوم البابا. وهكذا اقلعت سفن ماجلان الخمس في آب سنة ١٥١٩ من ميناء سان لوكار (Saint - Lucar) متجهة نحو جنوبي المحيط الاطلسي بانحراف نحو الغرب فوصلت الى ريودي جانيرو في البرازيل ثم الى مصب نهر ريو دي لابلاتا وسارت بمحاذاة الشاطىء الشرقي لاميركا الجنوبية فوصلت الى خط عرض ٥٢ درجة جنوباً. فاكتشف ممراً مائياً عميقاً محصوراً بين جبلين اطلق عليه فيما بعد اسم مضيق ماجلان.

وفي سنة ١٥٢٠ دخلت السفن محيط كبير اطلق عليه ماجلان المحيط

الهادىء لأنه قليل الاعاصير. ووصلت بعدها السفن الى جزر ماريانا والفيليبين (نسبة الى فيليب الثاني ولي عهد اسبانيا) التي اعتقدها ماجلان خطأ بانها جزر التوابل. وقد استمر احتلال اسبانيا للفيليبين حتى سنة ١٨٩٨ عندما ادعت الولايات المتحدة الاميركية ملكيتها لها. وفي الفيليبين لقى ماجلان حتفه بعد ان دخل في صراع مع سكان الجزيرة منتصراً لملكها الذي خضع لملك اسبانيا واعتنق المسيحية.

بعد وفاة ماجلان، تولى احد رجاله قيادة السفن. فوصلت الى جزيرة تيودور التي يكثر فيها التوابل. وغادرت الحملة جزر التوابل في طريق عودتها الى اسبانيا سنة ١٥٢٢. فعبرت المحيط الهندي ورأس الرجاء الصالح ثم الأطلسي حيث وصلت الى اسبانيا بعد مرور ثلاث سنين على انطلاقها. وفعلاً قاس البحارة خلال هذه الرحلة الاهوال والمصاعب لقسوة الاحوال الجوية ونقص الغذاء وتفشي الامراض بينهم. فبينما كان عدد بحارتها مائتان وخمس وستون بحاراً على متن خمس سفن لم يرجع منهم سوى ثمانية عشر رجلاً وسفينة واحدة اسمها النصر.

## ٣ - الكشوف الانكليزية

في الوقت الذي كانت فيه كل من اسبانيا والبرتغال تهتمان بارسال البعوث الكشفية الى شواطىء افريقيا والتوغل في الأطلسي، كان ملك انكلترا هنري السابع مؤسس اسرة تيودور يعمل على توطيد دعائم اسرته في الحكم. والحقيقة ان انكلترا تدين بكشفوها الجغرافية الى الحركة البرجوازية الناهضة فيها قبل اسبانيا والبرتغال. اذ ان التجارة الانكليزية كانت قبل عملية الكشوف الافريقية والامريكية لا تجد لها في شمال القارة منافساً يشكل عليها الخطر الذي بدأت تشكله لشبونه. فقد اصبحت هذه المدينة تمتلك الاساطيل التجارية الضخمة كما اصبحت مخزناً كبيراً لتوزيع بضائع الشرق. مما دفع بالسوق الانكليزية الى الوراء. ولهذا نشطت البورجوازية الانكليزية في تمويل الحملات الاستكشافية باتجاه البحث عن الثروة في القارة الاميركية.

حدثت اولى محاولات الانكليز الاستكشافية سنة ١٤٩٧ عندما أبحر كابوت (Cabot) من ميناء بريستول في سفينة عبر الاطلسي للوصول الى الهند عن طريق آخر. فوصل الى شواطىء اميركا الشمالية عند نيو فوند لاند (New found Land) ورفع الاعلام الانكليزية عليها. فاعتبرت من املاك انكلترا منذ هذا التاريخ.

وابحر كابوت في العام الثاني في خمس سفن ووصل الى فلوريدا. كما حصلت عدة محاولات بعد كابوت كشفت خلالها سواحل لابرادور وغرينلاند، الا انها لم تكن بالطبع طريق الهند التي يبحث عنها البحارة الانكليز متأخرين. ومع ذلك فان الكشوف الانكليزية على الرغم من ضآلتها الا انها مهدت لاستعمار انكلترا للاراضي التي تدخل اليوم ضمن النطاق الخاص للولايات المتحدة الاميركية.

## ٤ ـ الكشوف الفرنسية

بدأت الكشوف الجغرافية في فرنسا منذ عهد فرنسوا الاول الذي اعلن ازاء احتكار الاسبانيين والبرتغاليين لثروات العالم « ان الشمس تشرق للجميع ». فعهد الى الملاح الفرنسي جاك كارتييه سنة ١٥٢٤ بالقيام برحلات بحرية عبر الاطلسي. ووصل كارتييه الى شواطىء كندا ودخل مصب احد الانهار الكبيرة الذي اطلق عليه اسم سان لوران. وقام كارتييه بعدة رحلات بعدها كشف خلالها مناطق الصيد التي اطلق عليها اسم مونتريال[٤]. واهتم الفرنسيون بعد كارتييه بكشف العالم الجديد. فاسس شامبلان (Champlain) سنة ١٦٠٤ أول مستعمرة في كندا اطلق عليها نوڤاسكوتيا. وفي سنة ١٦٠٨ اسس مدينة كيبك على ضفاف نهر سان لوران. كما انه اكتشف بحيرة تقع بين كندا والولايات المتحدة حالياً اطلق عليها فيما بعد اسم بحيرة شامبلان. كما ان لاسال احد المكتشفين الفرنسيين استطاع سنة ١٦٨٢ ان يكشف نهر المسيسبي حيث نشأت مستعمرة لويزيانا. وانتهى الامر بالفرنسيين اخيراً الى السيطرة على كندا وحوض المسيسبي مما ادى الى اصطدامهم بالمواطنين الانكليز سنة ١٧٥٤ حيث اشتعلت الحرب المعروفة بحرب السبع سنوات. وفيها اثبت الانكليز ملكيتهم لاكثر المستعمرات الفرنسية.

لقد اصابت فرنسا في حركة الكشوف في العالم الجديد فائدة تجارية عظيمة اذ أدت الى احتكارهم لتجارة الصيد والفراء في جهات كندا. كما ادت الى اكتشافهم لكميات كبيرة جداً من النحاس بدلاً من الذهب والفضة. وهكذا دخل الفرنسيون عالم التجارة الواسعة عبر خطوط الاطلسي البحرية. فساهموا مع غيرهم في تنشيط الحركة الاقتصادية التي بلغت أوجها في القرن السابع عشر.

لقد كانت حركة الكشوف الهولندية والسويدية والالمانية ضعيفة جداً في

القرن السابع عشر. فلم يستطع الهولنديون امام المنافسة الانكليزية الاحتفاظ بمدينتهم التي اقاموها (حالياً تسمى منهاتن) لتكون مركزاً لتجارة الفراء. كما ان الهولنديين بدورهم نافسوا السويديين الذين اسسوا سنة ١٦٣٢ شركة الهند الغربية وطردوهم من مستعمرتهم التي تقع عند مصب نهر ديلاوير. اما الالمان الذين استثناهم شارل الخامس من المرسوم الذي جعل فيه التجارة مع العالم الجديد حكراً على الاسبانيين فقط، فانهم انشأوا مركزاً تجارياً لهم في هايتي كما اشتروا مقاطعة بالقرب من باناما. الا ان دوافع الالمان كانت محض تجارية وليست استعمارية الامر الذي اضعف من اهتمامهم للسير في عملية الكشوف الى حد الصدام المسلح مع سكان البلاد الاصليين أو مع الدول التي وضعت اعلامها فوق كل القارة الاميركية تقريباً.

## ٥ ـ نتائج الكشوف الجغرافية

ساهمت الكشوف الجغرافية التي قامت اواخر عصر النهضة في تبدل اوضاع المجتمع الأوروبي فأدت الى انتعاش طبقة البورجوازية التجارية التي عملت على تقويض ما تبقى من نظم اقطاعية وامتيازات للاشراف. وكان للقوة والنفوذ العظيمين اللذين تمتعت بهما هذه الطبقة من جراء تراكم الارباح في ايديها وسيطرتها على المقاليد الاقتصادية، أن بدأت تتطلع الى الحكم والادارة لحماية مصالحها التجارية فيما وراء البحار وفي قلب اوروبا. الامر الذي ادى إلى قيام الحروب الضارية بين دول اوروبا للمنافسة الشديدة على استعمار الأراضي المكتشفة وحماية السلع المستوردة، وهي الحروب المعروفة بحرب الثلاثين عاماً والتي كان من بينها حرب السنوات السبع التي اشتركت فيها كل من فرنسا وانكلترا بدافع السيطرة على الممتلكات في الجهات الشمالية من القارة الاميركية. كما ان هذه الثورة الاقتصادية التي شهدتها اوروبا ساهمت الى حد بعيد في ظهور الانتاج الرأسمالي الضخم عندما أخذ التجار في الفلاندر وانكلترا يؤجرون الانوال ويشترون المواد الأولية للقرويين ويشغلونهم لحسابهم وهذا الأمر ادى ايضاً إلى الاقبال على استعمار الشعوب واستثمارها باشد الطرق وحشية لايجاد اسواق جديدة لتصريف الصناعات التي فاض فيها السوق الأوروبي. فتأسست البنوك التي شهدت نمواً عظيماً وتضخماً مالياً جعل الحكومات الاوروبية تستدين منها لتدعيم نفوذها في الحكم ازاء الحركات الشعبية التي عرفتها القارة الاوروبية منذ قيام الثورة الفرنسية. كما انعشت حركة النقد المصرفية (الشيكات) التعامل التجاري وازدادت عمليات التاجير النقدي فاصبحت الصناعة منذ ذلك الوقت القطاع المهيمن في عملية الانتاج الاجتماعي بعد ان خلخلت جوهر الاستثمار الاقطاعي الذي كان سائداً من قبل.

وادت الكشوف الجغرافية ايضاً إلى انتقال مركز التجارة إلى البحار الغربية والجنوبية. فانهت عهد البحر المتوسط وانتقلت الزعامة لدول اوروبا الغربية. وقامت موانىء لندن وبريستول وانفرس وروان، مكان الموانىء المتوسطية، فقضت على اهمية موانىء الجمهوريات الايطالية التي سيطرت على التجارة الاوروبية ـ الشرقية منذ القرن العاشر الميلادي. وتدفقت منتجات الشرق المختلفة بكميات وافرة الى الاسواق الاوروبية باسعار زهيدة. وعرفت اوروبا محاصيل جديدة من امريكا كالبطاطا والذرة والتبغ والكاكاو والكينا. كما تدفقت المعادن الثمينة على اوروبا واهمها الذهب والفضة حيث تم اكتشاف مناجم الذهب في بيرو والمكسيك ومناجم الفضة في بوليڤيا. وازداد متوسط الانتاج السنوي للفضة زيادة كبيرة حتى سمي عصر فيليب الثاني ملك اسبانيا (١٥٥٦ ـ ١٥٩٨) «بعصر الفضة» في اوروبا. وادى توفر النقد المتداول إلى ازدياد وارتفاع الاسعار نحو اربعة اضعاف خلال القرن السادس عشر[٥]. فانتعشت الطبقة الوسطى وازدادت نقمة الطبقة الفقيرة على التجار واصحاب المهن.

وكان من نتائج الكشوف الجغرافية ايضاً تقدم العلوم الجغرافية. فأثبتت كروية الارض واكتشفت امكنة كانت مجهولة من قبل. فتضاعفت مساحة الارض الزراعية وتغيرت خريطة العالم ولم يبق امام الفلكيين والجغرافيين سوى اكتشاف استراليا والاقاليم القطبية. كما تقدمت سائر العلوم وخاصة علم النبات وعلم الاجتماع نتيجة الاحتكاك بالشعوب الجديدة. فنشأت مفاهيم جديدة نتيجة هذا الاطلاع، كما ان حاجة المستعمرين إلى الايدي العاملة في المواطن الجديدة حملهم على امتهان تجارة الزنوج. فازدهرت هذه التجارة التي حققت الارباح الضخمة لدول اوروبا واستمرت مدة ثلاثة قرون نقلت خلالها ما يقارب من اثني عشر مليوناً.

أما على الصعيد الديني فقد بذل الاسبانيون والبرتغاليون جهدهم في نشر المسيحية بين السكان الاصليين في البلاد التي حلوا فيها. فالرهبان المبشرون

كانوا يواكبون رحلات المستكشفين اينما توجهوا وازدادت الأرساليات الدينية في الامكنة التي استقر فيها النفوذ السياسي لاسبانيا والبرتغال. فانتشرت الكاثوليكية في اميركا الجنوبية والبروتستانتية في المستعمرات الانكليزية في اميركا الشمالية.

## هوامش الفصل الثاني

(١) هذه المراسيم اصدرها على التوالي كل من البابا نيقولا الخامس وكاليست الثالث. واسكندر السادس في السنوات ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٩٣.
انظـــر: Ch. A. Julien: Les Voyages découverte et les premiers établissements. Gérard Monfort Paris 1979: P 30

(٢) عبدالعزيز الشناوي: اوروبا في مطلع العصور الحديثة دار المعارف بمصر ١٩٦٩ الجزء الاول ص ٩٤.

(٣) Santa Maria - Pinta - Nina.

(٤) Ch. A. Julien: Op. Cit. P 118

(٥) رولان موسينيه: تاريخ الحضارات العام. القرنان السادس عشر والسابع عشر باشراف موريس كروزيه ترجمة يوسف داغر وفريد داغر المجلد الرابع منشورات عويدات ١٩٦٦ ص ١١٧.



# الفصل الرّابع

# أزمة الدّين

في الوقت الذي تجلت فيه اوروبا بثوب النهضة الحديثة، برزت ازمة دينية عنيفة لم تشهدها الكنيسة الكاثوليكية منذ قيامها. هذه الازمة احدثت انقلاباً عظيماً في التفكير الديني، وانقساماً خطيراً داخل الكنيسة نفسها التي طالما حرص المسيحيون الغربيون وعلى رأسهم البابوية بالتمسك بوحدتها وعظمتها طيلة العصور الوسطى لمواجهة الكنيسة الشرقية التي يساندها الامبراطور البيزنطي مدعي السيطرة على العالمين الزمني والروحي.

لقد سارت الحركة الدينية التي عرفت فيما بعد، بالحركة البروتستانتية، جنباً الى جنب مع تفكك الأطر الاجتماعية التي كانت سائدة في عصر الاقطاع. ومما ساعد على ذلك نمو البورجوازية التجارية والاتجاهات القومية للدول والامبراطوريات التي تشكلت حديثاً. فبينما كانت الروابط بين الكرسي البابوي والمقاطعات التابعة له في دول اوروبا تتفكك، اصبحت العلاقة بين الحكومات القائمة والبابوية تتحدد على ضوء مصالح الدول فقط.

# أولاً العوامل الممهدة لحركة الاصلاح الديني

## أ ـ الانسانيون المتمردون:

رفض الانسانيون كل ما استجد من انظمة وعادات وتقاليد على المسيحية خلال القرون الوسطى. ودعوا الى الاهتمام بالتراث الكلاسيكي وتطبيق الاصول الحديثة والقواعد الانتقادية على التفسيرات الدينية والنصوص القديمة.

تزعم الحركة الانسانية الاصلاحية في انكلترا جان ويكلف (Wycliffe) (١٣٢٠ ـ ١٣٨٤) الذي تعمق في الدراسات الدينية في جامعة اكسفورد حيث اتخذها فيما بعد منبراً لبث تعاليمه في انحاء انكلترا.

هاجم ويكلف في كتاباته الغزيرة مفاسد رجال الدين وانهماكهم في متاع الحياة وتملقهم للاغنياء وازدرائهم للفقراء. فيبيعون بذلك دم المسيح بدنس الاموال. ووصفهم بانهم نهامين، شياطين ـ ثعالب وذئاب. كما انه انكر ارسال الاموال والثروات الى روما او إلى افينيون في فرنسا عدوة انكلترا اللدودة في ذلك الوقت، مطالباً في نفس الوقت بمصادرة املاك الكنيسة الانكليزية لمصلحة الحكومة. بل انه ذهب الى الدعوة لفصل الكنيسة الانكليزية عن البابوية اذا ما اصرت البابوية على طلب الاموال. فوقف الى جانبه الشعب والملك وبعض الامراء الذين قدموا له حمايتهم في جميع المحاكمات الدينية التي اقامتها الكنيسة لمحاكمته بتهمة التمرد والهرطقة. ومما جاء في منشوره الذي كتبه بهذا الصدد: «ان البابا لا يستطيع ان يطلب هذا المال الاّ على سبيل الصدقة... ولما كان اهل البلاد اولى من غيرهم بهذه الصدقات، فان توجيه صدقات الدولة الى البلاد الخارجية اذا كانت البلاد نفسها في حاجة اليها، يخرج بها عن نطاق الصدقات ويجعلها حماقة وبلاهة»[1].

لم يتوقف ويكلف عند هذه الحدود. بل انه نزع عن القساوسة حق الاعتراف امامهم معتبراً ان الصلة بين الله والانسان يجب ان تكون مباشره دون اية وساطة. «لا حاجة إلى الاعتراف السري امام القساوسة. فذلك اعتراف ادخله الشيطان اخيراً في الدين.. ذلك ان المسيح لم يكن يعمل به، كما لم يعمل به احد من الحواريين من بعده. وبه استحال الناس الآن عبيداً لرجال الدين، وهو يستخدم الآن أسوأ استخدام للاغراض الاقتصادية والسياسية»[٢]. كما نزع عن البابوية صفة القداسة معتبراً تفسير نصوص الانجيل من حق كل مسيحي مؤمن لأن الانجيل بنظره المصدر الاساسي للمسيحية. فترجم الانجيل تحت اشرافه إلى اللغة الانكليزية، اللغة القومية. وكتب لأنصاره من (القساوسة العلمانيين) حوالي ثلاثمائة موعظة باللغة الانكليزية. ودعا إلى نبذ صكوك الغفران التي اقرتها البابوية كطريقة تستخدمها لتكديس الثروات وشراء الانصار والصرف على الحاشية وفعل الشرور لأن المسيح ولا القديسين من بعده قد قالوا بهذه البدعة: «ان الاحبار يخدعون الناس بصكوك الغفران الزائفة أو وثائق المغفرة، وينهبون بذلك اموالهم لعنة الله عليهم.. وما اشد حماقة من يبتاعون هذه الصكوك بهذه الاثمان الغالية. واذا كان في مقدور البابا ان ينتزع الارواح من المطهر، فلم لم ينتزعها منه على الفور عملا بروح الاحسان المسيحية؟»[٣].

لقد وجدت اراء ويكلف صداها في بوهيميا حيث تأثر بدعوته جان هس (Jean Hess) (١٣٧٠ - ١٤١٥) الذي ندد بمفاسد رجال الدين ونزع عن الأوامر البابوية صفة القداسة معتبراً اوامر البابا لاغية في حال تعارضها مع تعاليم السيد المسيح. فرماه البابا بالحرمان وقضى مجمع كونستانس سنة ١٤١٣ إدانته بتهمة الهرطقة. فاعدم حرقاً وهو حي سنة ١٤١٥.

أما في الأراضي المنخفضة فقد تزعم الحركة الانسانية الاصلاحية فيها اراسم (Erasme) (١٤٦٧ - ١٥٣٦) الذي حاول التوفيق بين الدين والعلم. فدعا الى وجوب دراسة اللاهوت على اسس جديدة وسليمة بالاعتماد على

الكتاب المقدس وحده دون الأخذ بحرفية الكلمات بل بما يكمن فيها من روح ومعاني. كما أنكر تقديس الأيقونات التي لا ينتج عنها سوى زيادة التعلق بالاوهام والخرافات. فيقول مخاطباً المسيحي الحقيقي: «انك تعبد عظام بولص، افلا يجدر بك ان تعبد روح بولص التي تحيا في كتاباته؟ انك تعبد تمثالاً للمسيح نقش او ربما شوه على حجر أو خشب، الأفضل لك ان تعبد صورة روحه الموجودة فقط في نص الانجيل»(٤).

ولما كان الكهنة في عصر اراسم ما زالوا يعتبرون الايمان محصوراً بهم دون غيرهم، فقد نزع عنهم اراسم هذه الصفة بل هذا الاحتكار للايمان واعتبره حقاً لكل مسيحي لأنهم برأيه اعداء الداء للمعرفة والتقوى الحقيقية. ومع كونه لم يكن مشغفاً بالثقافة الكلاسيكية إلا انه كبقية رواد النهضة الذين اكدوا على فردية الانسان فلسفياً ومادياً. فضربوا بذلك عرض الحائط كل المؤسسات القروسطية القديمة حتى الدينية منها. ففي كتابه «رفيق المناضل المسيحي» يذكر «ولكي تتجدد فيك الحياة المسيحية، حياة النعمة، لا تذهب للرهبان، اذ انهم قوم استسلموا للخرافات فهم قوم ظلاّم، قساة، حقودون، نمامون، نفاثون، همهم الشجار والنكايات لانهم يعتقدون في انفسهم انهم على حق، يتباهون بما تم لهم من خير، يستنكفون ان يفهموا او يتفهموا الامور، يخيل اليهم انهم على صلاح لأنهم لا يقتلون ولا يسرقون، فهم مراؤون، ومسيحيون زائفون اذ لا يهمهم الا ان يلمعوا، او ان يبزوا سواهم في مجادلاتهم الدينية»(٥).

وهكذا نجد في تعبيرات اراسم التي نفذت الى كل مكان صلابة تكاد لا تقل عن صلابة لوثير وحزمه تجاه الكنيسة ورجال الدين. ورغم موقفه النقدي بقي رجل كنسي رافضاً الخروج على الكنيسة كما فعل لوثير وزونغلي وكلفن، وظل يؤمن بالاصلاح من الداخل. فاتهمه البروتستانت بالجبن وعدم الجرأة واعتبرت روما تعاليمه نوعاً من الهرطقة ادت الى نشوء البروتستانتية وانقسام العالم المسيحي. فلاحقت هيئات التفتيش اتباعه الذين شكلوا النخبة الروحية

والفكرية في اوروبا في كل مكان. ومع ذلك استمرت الاراسمية بعد اراسم كتيار خفي يجري في خط متعرج حتى نهاية القرن السادس عشر[٦].

### ب ـ الاسر البابلي:

ان حركة الانشقاق البابوي التي حدثت في القرن الرابع عشر هي اخطر ما واجهته الكنيسة الغربية، اذ مهدت بشكل أو بآخر الى ازدياد صيحات الاصلاح المعارضة وفي اندفاع رجال الدين نحو تحقيق مآربهم الشخصية على حساب مناصبهم الكهونتية. فقد استطاع ملك فرنسا فيليب الرابع ان يتدخل في اختيار بابا فرنسي هو كلمنت الخامس (١٣٠٥ ـ ١٣١٤) الذي اتخذ من مدينة افينيون مقراً له. واستمر باباوات افينيون يرفضون الانتقال الى روما حتى سنة ١٣٧٧ حيث اصبح امر انقسام الكنيسة لا بد منه امام استغلال ملوك فرنسا للمقر البابوي، في حربهم ضد انكلترا (حرب المائة عام) او في أي نزاع معنوي بينهم وبين ملوك اوروبا.

وبعد ان اختار الكرادلة في عام ١٣٧٨ بابا ايطالياً هو اوربان السادس ليكون مركزه في روما، ما لبثوا ازاء تشدّد هذا البابا على اصلاح المؤسسة الدينية وعزمه على محاربة فساد رجال الدين وتأكيده على استئصال هذا الفساد بالقوة، ان اختاروا بابا آخر هو كلمنت السابع (١٣٧٨ ـ ١٣٩٤) الذي اتخذ مقره في افينيون من جديد. وهكذا اصبح العالم المسيحي منشقاً على نفسه حول شرعية احد البابوين اللذين رمى كل منهما اتباع الآخر بالحرم الكنسي. فوقف الى جانب بابا روما: انكلترا ومعظم المانيا وبولندا والمجر وقسماً من ايطاليا بينما ناصر بابا أفينيون كل من فرنسا واسبانيا ونابولي وصقلية. ومما زاد الانقسام حدة ان مركز البابا كان يعد مورداً اقتصادياً هاماً على الدولة التي يقع فيها. مما دفع مجمع بيزا الديني ان يخلع الاثنين ويختار بابا ثالثاً سنة ١٤٠٩ هو اسكندر الخامس. ولم تنته مشكلة الانشقاق هذه الا في مجمع كونستانس (١٤١٣ ـ ١٤١٧) حيث اعيدت البابوية الى وحدتها باختيار مارتن الخامس الذي اعترفت به جميع دول اوروبا.

لقد شهدت الكنيسة المسيحية في المرحلة الممتدة بين توحيد التاج البابـوي وقيام الحركة اللوثرية، وهي المرحلة التي بلغت فيها حضارة عصر النهضة اوجها في ايطاليا، بابوات بقدر ما كان البعض منهم تقياً متمسكاً بتطبيق اصول الدين في التقشف والزهد كـان البعـض الآخـر يمارس حيـاة الترف والبذخ والرخاء حتى اصبح من الشائع القول في عهد هؤلاء ان الكنيسة بحاجة الى الاموال اكثر مما هي بحاجة الى الاصلاح. كما ان الضغط الذي مارسه ملوك اوروبا على البابوية بواسطة الكرادلة كان له الاثر الكبير على سقوط هيبة البابوية واقحامها في ميدان السياسة والحروب اللذين كثيراً ما كانا يؤديان بخزانة الكرسي البابوي. وحسبنا هنا ان نشير الى مصاريف ليو العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) الباهظة حتى قيل فيه على سبيل التهكم « لقد التهم ليو ثلاثة بابوات اموال يوليوس الثاني، وايراد ليـو، ودخـل مـن خلفـه مـن البابوات »[٧].

قد يكون اصلاح اخطاء بعـض البابوات الناتجة عن المصروفات الضخمة او عن تدخلهم في الامور الدنيوية مسألة بسيطة امام من يخلفهم من البابوات المصلحين، الا ان اخطر التهم التي كانت توجه إلى هؤلاء هي تعيينهم لمحاسبيهم وانصارهم واقاربهم في السلك الكهنوتي. اذ كـان هؤلاء بدورهم يستحوذون على ايراد الاملاك الكنسية دون رقيب. فلم يختلفوا بذلك عن ملتزمي الضرائب الحقيقيين في ايامهم، لأن كثيرين منهم قد اشتروا مناصبهم بالمال. هذا بالاضافة إلى ما كان يعمد اليه الملوك وبعض الامراء من تعيين الاساقفة او التدخل في عملية انتخاب المرشحين منهم لهذا المنصب. فبات عندها كبار رجال الدين لا يختلفون عن الامراء أو الادواق في معيشتهم والانغماس في الحياة الدنيوية وممارسة اعمال الصيد والقنص أو الدخول في المنازعات السياسية كما حصل على مر التاريخ الاوروبي الحديث. والواقع ان بعض الرهبان في اديرتهم لم يكونوا يختلفون في تصرفاتهم عن الاساقفة حيث عزفوا عن تطبيق الشروط الاولى للحياة الديرية، وتخلوا عن الحياة المشتركـة،

والعمل اليدوي وانهمكوا في اعداد المآدب الفاخرة والشراب حتى بات « من يدقق في السجلات الرسمية والصكوك والوثائق والاضابير الكنسية، اذ ذاك، تعتريه الدهشة لكثرة ما تقع منه العين على الدعاوى والقضايا المقامة على رجال الدين لاخلاقهم الفاسدة وتصرفاتهم السيئة. فالسكر والعربدة يأتي في مقدمة هذه الموبقات. وضرب السكين والخنجر لم يكن نادراً قط. وكم من الاحكام صدرت على كهنة او رجال من الاكليروس لاستخدامهم فتيات او شابات مشكوك بفضائلهن: افلم يحكم على مدير مدرسة ثانوية تابعة لبلدية باريس بالسرقة؟ »[٨].

## ج- الأثر القومي:

ساهم نمو الشعور القومي في هذه الفترة في دفع الصراع ضد الكنيسة كمؤسسة عالمية، بشكل خاص الى الامام. فقد اتخذه الامراء اول الأمر، سلاحاً ضد البابا ورجال الدين الذين يعملون على زيادة رقعة اراضيهم التي تتدفق اليها اموال الضرائب وصكوك الغفران وأموال الاديرة وغيرها من انحاء العالم المسيحي. اذ لم تكن البابوية بنظر هؤلاء الامراء سوى دولة علمانية يدير شؤونها مجموعة من رجال الدين الذين يمتلكون سلطة قوية في المجتمع على حساب سلطتهم. لقد كانت الحكومة الانكليزية اول الدول التي ذهبت الى حد بعيد في معارضة البابوية واتهامها بالتحيز لعدوتها فرنسا (عندما كان مركز البابوية في افينيون) وذلك تخلصاً من الضرائب الكنسية وخاصة الأعشار التي تعتبر افدح ضرائب ذلك العصر.

## د - اثر الطباعة:

لقد ساعد اكتشاف الطباعة على انتشار حركة التنوير واطلاع العامة على افكار المصلحين الدينيين وعلى نشر ما كان يوجه الى الكنيسة من نقد لاذع. كما يسرت الطباعة ايضاً للعامة الاطلاع على الكتاب المقدس وتفسيراته المتعددة وجعلت ملكيته شائعة بين الناس يعودون الى قراءة نصوصه عندما

يكثر الجدل حولها. وهكذا قضت الطباعة على احتكار رجال الدين للتعليم والتربية اللذين طالما بقيا في احضان الكنيسة حتى هذا الوقت.

### هـ ـ صكوك الغفران: (Les Indulgences).

تعتبر بدعة «صكوك الغفران» التي روجها البابوات عن طريق رجال الدين من العوامل التي اثارت استياء جميع المصلحين الدينيين. وهي نوعاً من الضريبة غير المباشرة انطوت على جمهور المؤمنين من العامة لتكون مورداً مالياً سهل المنال. ويعود اصلها الى ان السيد المسيح والقديسين من بعده قد اكتسبوا قدراً عظيماً من الفضائل بفضل التضحيات والاستشهاد والتقوى. هذه الفضائل التي ازدادت على مر السنين بالاعمال الخيرة التي قام بها جماعة المؤمنين من المسيحيين تعتبر من حق البابوات ورثة القديس بطرس الذين يمكنهم استغلالها في التكفير عن المؤمنين الذين كان عليهم قضاء مدة معينة في المطهر قبل دخولهم الجنة تختلف بحسب ما عليهم من خطايا. ولهذا كان على الانسان الذي ارتكب خطيئة ما وندم على فعلته وتاب عنها واعترف بها امام القسيس ان يكفر عنها بالصلاة والصوم ثم استعيض عنها بالحج الى روما واخيراً بشراء صكوك الغفران.

ومع ان بعض البابوات قد ندد بهذه الطريقة، إلا ان حاجة بعضهم الى الاموال جعلتهم يعهدون ببيعها لبعض المصارف. كما ان الدعوة اشتدت لبيع هذه الصكوك في عهد البابا جيل الثاني (١٥٠٧ ـ ١٥١٣) وخليفته البابا ليو العاشر (١٥١٣ ـ ١٥٢١) وذلك بحجة بناء كنيسة القديس بطرس من جديد. وهكذا اصبح بامكان مرتكب الخطيئة شراء «صك غفران» للحصول على المغفرة بدل خطيئة ارتكبها او من الممكن ان يرتكبها في المستقبل مما يعتبر تحريضاً على الانغماس في ارتكاب الخطايا طالما ان مرتكبيها قد دفعوا المال بدلاً عنها. ويصور هذه الحالة التي عمت المجتمع الأوروبي في اوائل القرن السادس عشر احدهم بقوله: «يقول المذنبون في هذه الايام:

لست ابالي كم أرتكب من الذنوب امام الله لأن من السهل عليّ ان اتخلص من كل ذنوبي ومما يترتب عليها من العقاب بالمغفرة وصكوك الغفران يمنحني اياها البابا الذي ابتاعها منه مستورة نظير اربع بنات او ست كأني اكسبها في لعبة تنس مع من في مقدرته ان يمنح هذا الغفران»[٩].

## ثانياً ـ الاصلاح الديني في المانيا.

قام بحركة الاصلاح الديني في المانيا مارتن لوثير (Luther) (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) بعد ان شاهد مفاسد المؤسسة البابوية وانغماسها في الانقسام السياسي الذي كان ناشباً في اوروبا مما جعلها تبتعد بنظره عن تعاليم المسيحية الاولى. وكان لوثير من اتباع القديس اوغسطين تأثر بكتاباته الى حد بعيد وعكف على دراسة الكتب المقدسة دراسة صحيحة بعد ان انهى دراساته في القانون في جامعة (Erfrut) وفي اللاهوت في جامعة وتنبرغ (Wittenburg) التي تسلم فيها فيما بعد منصب استاذ لعلم اللاهوت. مما جعلها تشهد على يده اعظم حركة اصلاحية في تاريخ المسيحية.

انطلقت الشرارة الاولى لحركة الاصلاح الديني منذ ان قام لوثير بزيارته الى روما سنة ١٥١١. اذ شاهد فيها مظاهر الفساد والانحلال وانغماس البابوية نفسها ورجال الدين في حياة البذخ والملذات. فهاله الامر وعلق على ذلك قائلاً: «ان كل من يذهب الى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التي تصيبه من جراء ما يرى هناك».

ان اكثر ما اثار دهشة لوثير الاساليب التي اتبعها بعض رجال الدين لجمع صكوك الغفران. فاخذ يهاجم هذه البدعة معتبراً ان الله يغفر جميع الذنوب اذا تاب الانسان المؤمن اليه. وانه لا سبيل لخلاص الانسان الا بالايمان برحمة الله والصلاة واسداء الشكر لله. وقد عرفت هذه العقيدة باسم عقيدة التبرير بالايمان (Justification par la foi).

لم تأبه البابويه اول الامر لاحتجاجات لوثير الموجهة ضد صكوك الغفران اذ كان على البابا ليو العاشر الشروع في انشاء كنيسة القديس بطرس بما يتلاءم مع وضع البابوية في القرن السادس عشر. ففي سنة ١٥١٥ منح ليو

صك الغفران لكل من يسهم في جمع النفقات لاكمال مشروعه على الرغم من احتجاج ملوك اوروبا الذين كانوا يشعرون بأن روما كانت تستنزف ثروات بلادهم القومية بتحويل الاموال اليها وكان من بين الذين اكتسبوا مهارة فائقة في عملية بيع صكوك الغفران الراهب الدومنيكاني تتزل (Tetzel) الذي اشتط في دعوته لشراء صكوك الغفران عندما خاطب جمع من الفلاحين بقوله: « انه ما ان يسمع رنين العملة في الصندوق حتى تكون روح من دفعت عنه الاموال قد تحررت واخذت طريقها الى الفردوس »[١٠]

استغل لوثير هذه الحادثة واعلن احتجاجه الشديد على تصرفات الراهب منتهزاً فرصة اجتماع الاهلين للاحتفال بعيد جميع القديسين وعلق على باب كنيسة وتنبرغ إحتجاجه المتضمن خمس وتسعين حجة Thèse ضد صكوك الغفران اطلق عليها « بحث في بيان فضيلة صكوك الغفران ». وقد ذاع امر هذه الوثيقة بعد ان طبعت وترجمت الى الالمانية ووزعت في جميع انحاء المانيا ومع ذلك لم يكن الاحتجاج اللوثري دعوة الى حمل السلاح أو رد فعل من قبل رجل يرتكب المعاصي بل كان تحذيراً أو دعوة للعودة الى الاصول الدينية تحمل في طياتها موقفاً ثورياً تجاه البابوية ومفاسد رجال الدين.

لقد هاجم لوثير في بيانه الوسائل التي يتم بها جمع صكوك الغفران بل انه حمل على الغفران نفسه كعملية دينية تمارسها البابوية في صورة تتنافى مع المسيحية. وذكر بان سهولة اصدار وبيع صكوك الغفران قد اضعف الاحساس بالندم وجعل الخطيئة تبدو امراً يمكن تسويته مع انه لم ينكر سلطة البابوية في غفران الخطايا. ومما قاله: « لو علم البابا بانواع الاغتصاب والاكراه والظلم التي يمارسها وعاظه الفاسدون المرتشون لفضل رؤية كاتدرائية القديس بطرس وهي تلتهمها النيران وتصير الى رماد بدلاً من ان يراها مشيدة على جلود وعظام ولحوم رعاياه المسيحيين »[١١].

لم يكتف لوثير بهذا الاحتجاج بل انه دعا امراء المانيا الذين هللوا لموقفه ليتزعموا هذه الحركة. وبذلك يكون لوثير أول المصلحين الذين خرجوا على

الكنيسة بعد ان آمن غيره باصلاحها من الداخل. وقد اوضح مضمون حركته في عدة مبادىء طرحها بين العامة. فكانت اساسا لحركة الاصلاح الديني ومن اهمها:

- وجوب اخضاع رجال الدين للسلطة المدنية واعطاء الامبراطور والامراء سلطة تفوق سلطة الكنيسة.

- الكتاب المقدس هو قانون الايمان الوحيد وليس لأحد حتى البابا نفسه الحق في احتكار تفسيره. اذ يحق لكل انسان عاقل قراءة نصوص الكتاب المقدس وتفسيرها وفق مفاهيمه.

- اباحة الزواج والطلاق لجميع المسيحيين بمن فيهم القساوسة وتحريم التبتل والنذور.

- ازالة التماثيل والصور وعدم تقديس القديسين لأنه نوع من عبادة الاوثان.

## أ - المجتمع الالماني في فجر الدعوة اللوثرية:

لم تستطع المانيا حتى القرن السادس عشر ان تشهد تمركزاً سياسياً واحداً كغيرها من دول غرب اوروبا. وذلك بسبب عزلتها عن حركة التجارة العالمية التي انتعشت في القرن السادس عشر على اثر تدمير العصبة الهانزية. كما ان الزراعة فيها بقيت متخلفة بمقياس انكلترا مثلاً. اما الصناعة فقد تركزت حول بعض المدن دون ان ينمو فيها مراكز صناعية هامة ترتبط مع غيرها من المدن بشبكة من المواصلات تسهل عملية التبادل التجاري والصناعي. لهذا بقي الامراء في المانيا بمثابة ملوك مستقلين مما ادى بسلطة الحكومة المركزية المتمثلة بالامبراطور لأن تتذبذب بين مختلف المقاطعات بحسب قوة الامبراطور او ضعفه. ويصف انجلز حالة الامراء الالمان في هذه الفترة بقوله: « كان الامراء يتحدرون من الارستقراطية الكبيرة وكانوا مستقلين تقريباً عن الامبراطور ولهم

معظم الحقوق الملكية، فكانوا يعلنون الحرب ويعقدون الصلح حسب ما يرون ولهم جيوش ثابتة ويعقدون المجالس النيابية ويفرضون الضرائب. واخضعوا لنفوذهم جزءاً كبيراً من صغار النبلاء ومن المدن. ولجأوا دون كلل الى كافة الوسائل ليدمجوا في سلطانهم كافة المدن الامبراطورية الباقية واقطاعيات البارونات. وبينا كانوا يقومون بتجميع هذه المدن والاقطاعيات حولهم كانوا عاملاً مضاداً للمركزية بالنسبة للسلطة الامبراطورية وكان حكمهم في الداخل اوتوقراطياً مستبداً. وكانوا لا يعقدون مجالس الولايات الا مرغمين »[١٢].

ولما كان الجانب الاساسي اذن للمبادىء التي طرحها لوثير تتلخص في وجوب خضوع السلطة الروحية للسلطة الزمنية المتمثلة بالامبراطور والامراء، وهو صراع استمر طيلة العصور الوسطى خرجت منه البابوية ظافرة في معظم معاركها الفكرية والسياسية، فقد وجد امراء المانيا في تعاليم لوثير طريقاً الى شل قوة الامبراطور الذي كان يلحق به مباشرة كبار رجال الكنيسة في الامبراطورية وجيشهم العرمرم من الرهبان المتزايدين باستمرار. كما وجدوا فيها منفذاً لهم لاخضاع رجال الدين لسلطتهم واقامة كنائس وطنية مما سيؤدي ولا شك الى ايقاف تسرب اموال الضرائب الى خارج المانيا. وقد عبر لوثير عن ذلك مخاطباً الأمراء الالمان بقوله: « لقد قرر البعض ان اكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جولدن[١٣] تجد طريقها كل عام من المانيا الى ايطاليا... وها نحن اولاء نصل الى لب الموضوع... كيف يتأتى ان يكون لزاماً علينا نحن الالمان ان نتسامح في مثل هذه السرقة ومثل هذا السلب لأملاكنا على يدي البابا؟... واذا كنا بحق نشنق اللصوص ونضرب اعناق السارقين بالاكراه فكيف نسمح للشره الروماني ان يفلت من العقاب؟ ذلك لأنه اكبر لص وسارق بالاكراه جاء أو يمكن ان يجيء الى العالم بل وشرهم قاطبة بالاسم المقدس للمسيح والقديس بطرس ومن في وسعه بعد هذا ان يتحمل او يلزم السكوت »[١٤].

أما بقية شرائح المجتمع الالماني فقد تمايزت مواقفهـا مـن دعـوة لـوثير بحسب مصالحها. فبينما وقف اشراف المدن من اصحاب الثروات الذين يتكون منهم مجالس المدن التي يسيطرون على ادارتها ووظائفها ومعهم رجال الدين واتباعهم من المؤمنين السذج ضد دعوة لوثير فان كافة العامـة في المدن من الفقراء وكذلك الفلاحين الذين ما زالوا ينوؤن تحت وطأة الاعباء الاقطاعية المفروضة قد فهمـوا على ان دعـوة لـوثير التي تحمـل في ظـاهـرهـا دعـوة للحرية والاخاء انها تحمل في طياتها دعوة للمساواة الاجتماعية أو على الأقل حلاً لمسألة اوضاعهم الاقتصادية المتردية في المجتمع الاقطاعي.

وهكذا انقسم المجتمع في المانيا على اثر دعوة لوثير الى ثلاثة معسكرات متمايزة تمثل اولهم بالمعسكر الكاثوليكي الرجعي وثانيهم بالمعسكر اللوثري الاصلاحي وثالثهم بالمعسكر الثوري.

### ب ـ الطريق المسدود:

لما كانت الكنيسة البابوية تعتبر كل من يخالف رأيها زنديقاً يجب احراقه حياً. فقد اصدر البابا سنة ١٥٢٠ منشوراً تضمن ادانة جميع اراء لوثير في الكنيسة المسيحية وعددها واحد واربعين رأياً. آمراً في نفس الوقت ان تحـرق بيانات لوثير علناً منذراً اياه بوجوب التراجع عن اخطائه على ان يأتي الى روما في خلال ستين يوماً والا سوف يحرم من غفران الكنيسة باعتباره هرطيقاً. وعلى السلطات المدنية ان تطرده من املاكها او تسلمه الى روما.

لم يأبه لويثر لتهديدات البابا مما جعل الهوة تزداد بينهما بحيث اصبح من المستحيل بعدها رأب الصدع بينهما. اذ اقدم لوثير في نفس العام على وضع ثلاث رسائل ضد البابوية سميـت «الرسـائـل الثلاث العظمـى في حـركـة الاصلاح الديني». تضمنت هذه الرسائل نداء الى مفكري المانيا يحثهم فيها على اصلاح الكنيسة بانفسهم بمعزل عن رجال الدين وهي دعوة واضحة للتدخل في شؤون الكنيسة وفرض الاصلاح عليها من الخارج. وعندما نشر

لوثير رسالته الثانية التي تضمنت تنديداً بضعف البابوية وبمفاسد اخلاق رجال الدين. اقدمت البابوية عندها على اصدار قرار الحرمان ضده في ايلول سنة ١٥٢٠.

على الرغم من صدور قرار الحرمان ضد لوثير فانه لم يتوان عن نشر رسالته الثالثة تحت عنوان «الاسر البابلي للكنيسة» اعتبر فيها حالة الكنيسة التي انشأها المسيح قد تعرضت للاسر ما يزيد على الألف عام تحت حكم البابوية كما تعرض اليهود للاسر في بابل. اما الخطاب الذي ارسله لوثير الى البابا ليو العاشر ليعرب له فيه عن احترامه له كفرد. فقد تضمن هجوماً واسعاً على الكنيسة ورجال الدين فوضع حداً لأية مصالحة ممكنة بين الطرفين المتنازعين ومما جاء في هذا الخطاب: «ان ما تتمتع به من سمعة وشهرة في حياتك الطاهرة الذيل امر معروف تماماً وأسمى من ان يكون مجالاً للهجوم... ولكن سدتك البابوية التي تسمى المحكمة الرومانية والتي لا يمكنك انت أو اي انسان ان تنكر انها اكثر فساداً مما كان عليه أهل بابل او سدوم والتي بقدر ما استطيع ان ارى تتسم بخبث غوي لا أمل فيه قبيح الصيت ـ فهذه السدة انا ازدريها... ولقد اصبحت الكنيسة الرومانية اكبر وكر داعر للصوص واعظم المواخير التي يندى لها الجبين ومملكة الاثم والموت والجحيم... ولطالما ساءني يا صاحب المقام السامي ليو انك تنصب بابا في هذه العهود لأنك خليق بأيام خير منها...

«ولذلك أرجو يا عزيزي ليو ألا تستمع الى تلك الاقوال المعسولة التي لا تجعلك بشراً سوياً وترفعك الى مصاف انصاف الآلهة لكي تأمر... بما تشاء فأنت خادم الاجراء وبعد كل الرجال الآخرين في مركز خطير يرثى له. فلا يخدعك هؤلاء الذين يدعون انك سيد العالم... الذين يهرفون بأن لك سلطاناً على السماء والجحيم والمطهر... ان الذين يعلون قدرك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون. والذين ينسبون اليك الحق في تفسير الكتاب المقدس يخطئون لأنهم ينشدون تحت ستار اسمك ان يُرسوا قواعد خبثهم في الكنيسة،

ومما يؤسف له ان الشيطان من خلالهم قد أحرز نجاحاً تحت حكم اسلافك. والخلاصة لا تصدق احداً يعلي من قـدرك، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك »[١٥].

## ج ـ موقف الامبراطور من المشكلة اللوثرية:

لقد كان على الامبراطور محافظة منه على علاقات الود مع البابا ان ينفذ قرار الحرمان بحق لـوثير بصفتـه مـواطنـاً المانيـاً يقـع تحت نفـوذه. اذ ان الامبراطور شارلكان امبراطور الدولة الرومانية المقـدسـة كـان منهمكـاً في حروب ضارية ضد فرنسوا الاول، ملك فرنسا، على المقاطعات الايطالية وهو مايسمى بالحروب الايطالية التي امتدت من سنة ١٤٩٤ حتى سنة ١٥٥٩ وانتهت بمعاهدة كمبرسيس (Cambrésis). كما ان رجال الدين في اسبانيا لم يعد بامكانهم ان يتحملوا ملكاً يحتضن هراطقة. لهذا رأى شارلكان تحت وطأة الاحداث المتسارعة ان يعرض مشكلة لوثير على مجلس الديت الذي عقد اجتماعه في ورمز (Worms) سنة ١٥٢١ بحضور لوثير نفسه الذي حصل على وثيقة شخصية من الامبراطور تتيح له السفر من وتنبرغ الى ورمز. مع ان نوايا الامبراطور لم تكن سليمة تجاه لوثير ارضاء لمشيئة البابا وتمشياً مع رغبة اكثر اعضاء المجلس.

وعندما رفض لـوثير امـام المجلس الامبراطـوري التراجـع عـن ارائـه ومعتقداته وكتبه التي وضعها سابقاً. فقد اصدر المجلس قراراً بطرد لوثير واهدار دمه واحراق كتبه. ولما لم تكن مراسيم المجلس تنفذ الا بحسب رغبة امراء المقاطعات فيكون لوثير قد اصبح تحت رحمة امير سكسونيا فريدريك الذي اعلن حمايته له وانزله في قلعة ورتبرغ (Wartbourg) الحصينة.

لقد شهدت المانيا بين سنتي ١٥٢١ تاريخ انعقاد مجلس الديت في ورمز وسنة ١٥٢٦ تاريخ انعقاد المجلس الامبراطوري في مدينة سبير (Spire) احداثاً مهمة كادت تخل بالتوازن السياسي في المانيا لمصلحة الفلاحين على

حساب الاكليروس الرسمي وسلطة النبلاء الزمنية.

ولما كان على الامبراطور ملاحقة تنفيذ قرار مجلس ورمز فقد دعا الى عقد مجلس امبراطوري في مدينة سبير للبحث مجدداً في المسألة الدينية المطروحة. ومع ذلك فقد اتخذ المجلس قراراً حاسماً على هذا الصعيد، اذ أكد انه « يحق لكل امير ان يسلك ازاء ورمز المسلك الذي سوف يسأل عنه امام الله وامام حضرة صاحب الجلالة الامبراطور. هذا القرار اعطى مركزاً قانونياً لأتباع لوثير الذين نبذوا الطقوس الكاثوليكية في كثير من المقاطعات الالمانية كـ براندبورغ (Brande bourg) ومجدبرج (Magedebourg) وبرنزويك (Brunswick)وبريم (Breme) وليوبيك (Lubek) وغيرها من المقاطعات.

اراد الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) بعد صلحه مع البابا احياء مرسوم ورمز والغاء مرسوم سبير. فامر بعقد المجلس الامبراطوري مرة اخرى في مدينة سبير سنة ١٥٢٩ وسحب من حكام الولايات الحق في اختيار المذهب الديني الذي يريده كل منهم في مقاطعته. مؤكداً ان قرار ورمز باعدام لوثير ما زال نافذ المفعول. هذا القرار وجد معارضة قوية من انصار الحركة اللوثرية الذين صاحوا قائلين: « اننا نحتج » (Nous protestons) ونعلن اننا لا نستطيع ان نذعن لهذا القرار ونعتبره لاغياً وغير ملزم لنا. ومن هنا جاءت تسمية معتنقي مبادىء لوثير باسم البروتستانت اي (المحتجون): (Les Protestants).

ولولا هجوم الاتراك الكاسح على فيينا ومهادنة الامبراطور للبروتستانت لكانت المانيا في هذا الوقت بالذات وقعت فريسة انقسام داخلي وحرب اهلية. ومع هذا فان الامبراطور مضى في قراره السابق وجدد الحكم على لوثير واتباعه. عندها عقد البروتستانت فيما بينهم حلفاً على اساس ديني سمي بحلف شمالكلد (La Ligue de Samalkalde) سنة ١٥٣١ وهي مدينة في مقاطعة هسّ (Hesse) وذلك للدفاع عن انفسهم ضد العدو المشترك. وعلى الرغم

من محاولات التوفيق التي حصلت بعد ذلك في مؤتمر راتسبـون عـام ١٥٤١ (Ratisbonne) ومؤتمر ترانت (Trente) سنة ١٥٤٥ فقد فشل الطـرفان في الوصول الى اتفاق بينهما حتى اشتعلت الحرب الاهلية في المانيا بين قوات الامبراطور والبروتستانت وكاد الامبراطور ان يسيطر على المانيا باجمعها لولا انسحاب قوات البابا وذلك لخوف هذا الأخير من ازدياد قوة الامبراطور على المانيا. ثم ما لبـث البروتستـانـت ان استعـادوا قـوتهم وانـزلـوا الهزيمة بالامبراطور الذي هرب من المانيا الى ايطاليا تاركاً اخاه فرديناند يسوي الامور. وتم اخيراً صلح اوغسبورغ الديني سنة ١٥٥٥ بين الطرفين (La paix relégieuse d'Augsbourg). وفيه اقر المجتمعون حق كل اقليم في اختيار عقيدته الدينية، وحق كل حاكم اختيار المذهب الذي يرتضيه في ولايته دون اي تدخل من جانب الامبراطور. ونص الصلح ايضاً على تحريم استخدام العنف ضد معتنقي المذهب اللوثري او المذهب الكاثوليكي. وقرر ان املاك الكنيسة الكاثوليكية في المقاطعات التي اصبحت لوثرية قبل عام ١٥٥٢، وهو عام انتصار البروتستانت على الامبراطور، تبقى في حوزة حكامها اللوثريين، واما املاك الكنيسة التي اخذت منها بعد سنة ١٥٥٢ فهذه تعود الى الكنيسة الكاثوليكية في روما.

ومما يؤخذ على صلح اوغسبورغ انه جاء غامضاً بعيداً عن رغبات الافراد في المانيا. وذلك لأنه كان عليهم اعتناق مذهب حكامهم اذا رغبوا البقاء في مواطنهم. كما وان الاحداث المتتابعة اثبتت فشل الصلح وذلك بعد قيام الحرب الدينية التي اشتركت فيها المانيا والدانمرك والسويد وفرنسا وهي الحرب التي تعرف بحرب الثلاثين عاماً الدينية (١٦١٨ - ١٦٤٨). ثم ان الصلح كان تكريساً للانقسام السياسي الذي حصل داخل المانيا عدا عن انه تجاهل انصار المصلحين الدينيين الآخرين مثل زونغلي وكلفن[١٦].

### د ـ ثورة الفلاحين

لقد جذبت دعوة لوثير منذ اللحظة الاولى على اعلانها كافة الفلاحين الذين رأوا فيها منفذاً للتخلص من ظلم الاقطاعية بشكليها الزمني والروحي. وبمواجهة الثورات الفلاحية التي اخذت تندلع واحدة بعد أخرى منذ سنة ١٥١٨ كان النبلاء والامراء الذين اجتاحهم الرعب في مختلف المناطق يقومون بتنظيم انفسهم ويعقدون الهدنات للمراوغة تمهيداً منهم لانزال العقوبة بهم.

كانت مطالب الفلاحين حتى بعد استفحال ثورتهم في سنة ١٥٢٥ متواضعة للغاية. فقد تضمن البيان الذي صدر عنهم على وجوب الغاء بعض الامتيازات الاقطاعية كحق الصيد في ارضهم ومنع السخرة وعلى حصر الضرائب العشرية بالحبوب فقط دون الماشية مع وجوب الغاء المحاكمات التعسفية على ان تدرس مطالبهم في ضوء ما جاء في الكتاب المقدس بصفتهم مسيحيين احرار من اتباع السيد المسيح.

لقد وجدت مطالب الفلاحين منذ اللحظة الاولى مماطلة فاضحة من قبل السادة الاقطاعيين. اذ ان المحكمة التي عقدت للنظر في مطالبهم تكونت بحسب المرسوم الامبراطوري من السادة النبلاء فقط. فحسمت الموقف لصالح هؤلاء مما أخرج الثورة الفلاحية عن خط الاعتدال الذي اتسمت به واخذت تتكون في المناطق الفرق الثائرة عازمة على انتزاع مطالبها بالقوة. وفعلاً ظفرت ثورة الفلاحين في مراحلها الاولى بنجاح ساحق تحت زعامة قيادات مختلفة. فسقطت بيدهم عدة مناطق ومدن كثيرة. الا ان هلع النبلاء من تفاقم هذه الثورة جعلهم يتحدون بكامل قوتهم المادية والمعنوية حتى استطاعوا القضاء عليها قضاء تاماً في نهاية العام ١٥٢٥.

كان على لوثير منذ ان قامت اولى الحركات الفلاحية ان يختار بينهم وبين اتباعه الامراء الذين رأوا في اعتناق مبادئه وتأييدها تحطيم التبعية لروما والتحلل من قيود الكنيسة التي يمثلها رجال الدين في المانيا الذين ستتقلص ثرواتهم بازدياد اتباع الحركة اللوثرية.

وهكذا تباينت مواقف لوثير من حركة الفلاحين. ففي المناطق التي يسيطر فيها النبلاء من الكاثوليك حاول ان يقف الى جانب الفلاحين بالقائه اللوم على الحكومات الجائرة « لأن الذين ثاروا عليها ليس الفلاحون بل الرب نفسه » كما انه في ندائه الى « نبلاء الأمة الالمانية » وقف بين الطرفين يدعو الى حل الخلافات بالسلم وليس بالحرب فيقول: « انني لا أريد للانجيل ان تدافع عنه القوة وسفك الدماء. لقد تم غزو العالم بالكلمة، والكنيسة تحيا بالكلمة، وسوف تعيد الكلمة ايضاً الكنيسة الى مكانها. ان عدو المسيح الذي اتخذ مكانه دون عنف سيسقط كذلك دون عنف » (١٧). اما عندما استفحل امر الثورة بانتشارها السريع في معظم انحاء المانيا حتى في الممتلكات البروتستانتية أو التي وجد فيها انصاره من الامراء الذين شكلوا له الحماية بدأ لوثير يتخوف من القضاء على حركته التي تحولت الى غير اهدافها التي وضع بصماتها الاولى. فنراه يحدد موقفه بوضوح الى جانب الامراء والنبلاء وحتى رجال الكنيسة الكاثوليك ضد الفلاحين الذين اصبح الرب بنظره لا يعطف عليهم. فيقول: « حطموهم، اخنقوهم، اطعنوهم! بالسر والعلن. لانه ليس اخبث ولا أخطر من ثائر. انه الكلب المسعور الذي يجب قتله بكل ثمن. فاذا تغاضيتم عن ذلك فانهم سيدمرون بلادكم. لذلك وجب ذبحهم وطعنهم وخنقهم بقدر ما تستطيعون واذا قضيتم نحبكم فسوف يبارككم الرب. لأنه لا مثيل للشهادة في سبيل اطاعة أوامر الله » (١٨).

لقد احلت الثورة الفلاحية الدمار في ارجاء المانيا وخاصة في المناطق الشمالية منها. فتعرضت قصور النبلاء وحقولهم لاعمال الحرق والتخريب كما تعرضت املاك الكنيسة واديرتها لاعمال النهب والمصادرة حتى ان الكثير من المدن قد حل فيها الخراب لأنها حاولت الخروج على سلطة الاشراف ففرضت عليها الغرامات الكثيرة واخضعت من جديد للامراء بعد ان انتزعت منها بعض الامتيازات التي كانت قد حصلت عليها لصالح التوسع في الأعمال الصناعية والتجارية.

لقد خرجت المانيا من حرب الفلاحين مفككة اكثر من السابق حتى اصبحت المقاطعات التي لا حصر لها تكاد تكون امماً مختلفة عن بعضها البعض. ومع هزيمة الفلاحين ازدادت قبضة الامراء على الحكم على حساب صغار الاقطاعيين الذين دخلوا في خدمتهم بعد الدمار الذي حل بهم من قبل فلاحيهم. اما الفلاحين أنفسهم فقد تحولوا في المناطق الثائرة الى اقنان وتحولت ممتلكاتهم الى الاسياد كما تزايدت حقوق الاسياد غير الشرعية كاعمال السخرة والاتاوات وضرائب العبودية وغيرها.

ان التفسخ الذي اصاب «الأمة» الالمانية بعد حركة الفلاحين يعتبر من اهم الاسباب التي ادت الى هزيمة الثورة. اذ ان النصر الذي احرزته قوة النبلاء المجتمعة (الدينية والزمنية) لم يكن بسبب عدم نضوج الفئة الغالبة من الثائرين لتقبل الافكار التي طرحها قادتهم فحسب. بل ان الانقسامات المحلية والتعصب الاقليمي منع من اتحاد هذه الحركة كما شل عنها في نفس الوقت الطبقة العامة في المدن. مما ادى بهذا التشرذم الى ان يكون هدفاً أولياً عند الامراء للتحلل من الاتفاقيات والهدنات المنفردة المعقودة مع الفرق المختلفة. بحيث لم تكن تعتبر كل فرقة ان هذا التحلل يعد خيانة للقضية المشتركة.

ان اهم النتائج العملية لهزيمة الفلاحين عام ١٥٢٥ هي تصدع اول واهم بناء اقامته طبقة الفلاحين على اثر الحركة اللوثرية لمدة ثلاثة قرون متوالية. اذ ان جميع نبلاء المانيا ومعهم نبلاء اوروبا اخذوا بعد ذلك يشدون الطوق حول اعناق فلاحيهم الذين لم تكن ثورتهم مسألة المانية داخلية بحتة بقدر ما كانت حركة عظيمة في مجريات التاريخ الاوروبي الحديث. وفي معرض المقارنة بين الثورتين الالمانيتين يذكر انجلز قائلاً: «على الرغم من التشابه الشديد بين الثورتين، ثورة القرن السادس عشر وثورة ١٨٤٨ - ١٨٥٠، فانهما تختلفان اختلافاً جوهرياً، اذ تعبر ثورة ١٨٤٨ عن تقدم اوروبا بأسرها ان لم يكن عن تقدم المانيا - من استفاد من ثورة ١٥٢٥؟ الامراء. ومن استفاد من ثورة ١٨٤٨؟ كبار الامراء ملكا النمسا وبروسيا. ووراء الامراء في عام ١٥٢٥

وقف صغار سكان المدن الذين كان الامراء قد ربطوهم بعجلتهم بواسطة الضرائب. ووراء الملوك في عام ١٨٥٠ - وراء النمسا وبروسيا - يقف البورجوازي الكبير الحديث الذي كان يسرع في اخضاعهم لسيطرته عن طريق الدين القومي، وخلف البورجوازي الكبير تقف البروليتاريا »[١٩].
وهكذا تحولت المانيا الى خادم للامراء والنبلاء الاقطاعيين بعد ان كانت عشية الاصلاح البروتستانتي اطوع خادم للبابوية. ومع ذلك فان الحركة البروتستانتية كانت افضل الطرق لطرح القضية. فعندما اصبحت البروتستانتية قوية تحول نضالها ضد الاقطاع متخذاً ابعاداً قومية واضحة فاسحة المجال امام المفكرين ليحلوا بعدها المفهوم الحقوقي محل المفهوم الديني.

مع ان اللوثرية دعت الى العودة بالمسيحية الى عصورها الأولى واكدت وجوب الاستسلام والطاعة للسلطة الزمنية التي كرستها العناية الآلهية، الا انها قد جعلت من القرن السادس عشر قرناً « تقدمياً » بمقياس ما.

لقد احيا لوثير بترجمته الكتاب المقدس الى الالمانية الشعور القومي ليس في المانيا فحسب بل في انحاء اوروبا. كما انه ساهم في تطور الفكر الاوروبي الحديث بالرجوع الى النصوص والاحتكام الى العقل والدعوة الى التخلي عن الاوهام والشوائب والعادات التي استطاع رجال الدين على مر عصور الإقطاع الصاقها بالمسيحية خدمة لاغراضهم ومصالحهم الزمنية.

# ثالثاً ـ الاصلاح الديني في سويسرا

## أ ـ حركة زونغلي.

لقد فشل أباطرة الرومان منذ أواخر العصور الوسطى في احكام السيطرة الفعلية على المقاطعات السويسرية. ومع ان الاتحاد السويسري الذي تشكل اثر هزيمة القوات الامبراطورية كان من حيث القانون الدولي العام يخضع لسيادة الامبراطور الاسمية، الا انه بقي محروماً من ممارسة سيادته في الشؤون الدولية حتى تحقق الاستقلال التام لسويسرا في معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ التي اختتمت بموجبها الحروب الدينية التي وقعت في اوروبا على مدار قرن من الزمن.

وعلى الرغم من ان الاتحاد السويسري قد تشكل، الا ان المقاطعات السويسرية لم يكن يربط بينها رباط متين. اذ كان على رأس هذا الاتحاد مجلس أعلى يطلق عليه اسم الدايت الفيدرالي **(La Diète fédérale)**. لذلك تمتعت الولايات وخاصة الجبلية منها بحرية تامة في تصريف شؤونها الداخلية. في حين انه قامت في مقاطعات المدن الكبيرة كـ زوريخ وبرن وبال الانظمة الاوليجاركية المتعددة.

لقد مهدت الاوضاع السياسية والاجتماعية اذن في المقاطعات السويسرية لخلق بذور حركة معادية للكنيسة الكاثوليكية. كما كان لانتشار افكار الحركة اللوثرية أثر مهم في ازدياد الاستياء العام من تصرفات رجال الدين في المناطق السويسرية. فبدأت بعض المقاطعات ومنها زوريخ في تقليص نفوذ رجال الدين باخضاعهم للسلطة الزمنية فيها. ولما كانت زوريخ قد اخذت منذ مطلع القرن السادس عشر تشهد نشاطاً تجارياً وصناعياً مرموقاً، فقد اصبح من المستحيل ان يتلاءم هذا الانتعاش الاقتصادي وتطلعات طبقة

التجار مع مصالح رجال الدين الذين اعلنوا عن تمسكهم بجميع الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها سابقاً.

ومع ان دعوة زونغلي (Zwingli) (١٤٨٤ - ١٥٣١) قد اتخذت شكلاً دينياً خالصاً في المقاطعات السويسرية الا انها في جوهرها تعتبر حركة سياسية اجتماعية وقومية في آن واحد. وزونغلي بدأ حركته هذه بهجوم شديد على نظام المرتزقة الذي تفشى بين السويسريين الذين اخذوا ينخرطون في جيوش دول اوروبا حتى ولو كان ذلك على حساب مصالح اتحادهم، حتى اطلق عليهم لقب «قاهروا الملوك» وذلك للسمعة الحربية الحسنة التي تمتعوا بها في معاركهم التي خاضوها في اوروبا. وقد اعلن زونغلي قائلاً: «انه من العار أن تهدر دماء السويسريين في غير مصلحة قومية». ومن اقواله ايضاً في مهاجمة نظام المرتزقة: «إذا قام جندي اجنبي واحتل بلادك بالعنف ودمر حقولك واشجار العنب، وسلب ماشيتك واعتقل اسيادك، وقتل اولادك الذين هبوا لحمايتك. واعتدى على فتياتك ووطأ زوجتك بقدميه واشعل النار في منزلك وصرع خدامك العجز غير عابىء بتضرعك اليه، الا تتضرع الى الله ان تنشق الأرض لتلتهمه... ولكن اذ قمت انت بنفس العمل تجاه غيرك تقول: هذه هي الحرب! والا فما معنى ان تكون محارباً؟ ولكن اوربيد اجاب عن ذلك بقوله: «في الحرب لا يعتبر الرجل اكثر من ضفدعة» [٢٠].

وفعلاً اخذت معظم المقاطعات السويسرية على اثر دعوة زونغلي تمتنع عن تقديم الجنود المرتزقة بعد ان اشتدت الحاجة اليهم اثناء حروب شارل الخامس وفرنسوا الأول.

لم يكن زونغلي يقل حماسة عن لوثير في مهاجمة عملية بيع صكوك الغفران وعبادة الصور والتماثيل ومهاجمة دفع ضرائب العشور الكنسية. وتحت تأثير كتاباته وخطاباته التي اشتهر بها فقد انتشرت الحركة البروتستانتية في سويسرا انتشاراً واسعاً. وانضمت الى زوريخ مقاطعة برن ثم مقاطعة بال حتى اصبح

عدد المقاطعات التي تدين بالبروتستانتية ست مقاطعات اطلق عليها اسم المقاطعات المصلحة (Les cantons réformés) ومعظم السكان فيها من التجار والصناعيين. بينما المقاطعات المتبقية وعددها سبع مقاطعات فقد اطلق عليها اسم المقاطعات الكاثوليكية (Les contons Catholique) حيث كان معظم السكان فيها من العاملين في الزراعة والرعي مما افقدهم الاتصال المباشر بدعاة الحركة البروتستانتية من جهة ومتابعة الجدل الفقهي الذي انغمس فيه سكان المدن المواكبين لثقافة العصر.

وامام تحدي الكاثوليك واحراقهم احد اتباع المذهب البروتستانتي تشكل الحلف المسيحي من البروتستانت يقابله الاتحاد المسيحي للكاثوليك بمساندة النمسا التي كانت تتوق الى استعادة امجاد اسرة الهابسبورغ في سويسرا أو على الاقل استرجاع بعض الاراضي التي كانت قد فقدتها سابقاً. وكـادت الحرب الاهلية ان تقع في سويسرا لولا الوساطة التي قام بها زعيم مقاطعة كلاريس (Claris) واسمه ايبلي (Aebli) وهو احد اتباع زونغلي. وفعلاً عقد صلح كابل (Cappel) عام ١٥٢٩ وفيه تقرر حرية كل مقاطعة في اعتناق المذهب الذي تختاره مع وجوب الغاء الحلف الذي عقد بين الكاثوليك والنمسا حفاظاً على استقلال سويسرا وعدم اتاحة الفرصة امام اية دولة اجنبية للتدخل في شؤونها الداخلية. وقد اعطت هذه المعاهدة اعترافاً مطلقاً بالمقاطعات البروتستانتية ومركزاً قانونيـاً لاتبـاعهـا مما اتـاح الفـرصـة لتنظيم صفوفهم والعمل على التبشير بمذهبهم الديني.

لقد حاول زونغلي ان يقيم علاقات وطيدة مع الحركة اللوثرية في المانيا وان يقيم اتحادا بين المقاطعات الالمانية والمقاطعات السويسرية التي اعتنقت المذهب البروتستانتي. ولكن المحاولة فشلت نتيجة للخلافات التي قامت على بعض المسائل الهامة وذلك على اثر الاجتماع الذي تم بين زونغلي ولوثير. كما ان محاولات زونغلي لاقامة علاقات سياسية مع فرنسا في عهد فرنسوا الأول قد فشلت ايضاً. وعندما امعن في سياسة التعسف ضد المقاطعات الكاثوليكية

اشتعلت الحرب الاهلية في سويسرا وانـزل الكـاثـوليـك الهزيمة بـالجيـوش البروتستانتية في معركة كابل سنة ١٥٣٢ التي قتل فيها زونغلي وعلى اثر هذه الهزيمة عقد الصلح بين الطرفين على ان يتعهد كل منهما بترك الآخر يعيش في أمن وسلام معتنقاً العقيدة التي يختارها على ان تلتزم المقاطعات البروتستانتية بدفع نفقات الحرب واعادة الاراضي الكاثوليكية المصادرة. كما أجاز الصلح للمقاطعات الكاثوليكيـة ايضـاً تحويـل بعـض المنـاطـق القـريبـة اليهـا الى الكاثوليكية. وهكذا توقف انتشار المذهب البروتستانتي في سويسرا على اثر صلح كابل حتى ظهر كلفن في جنيف.

ومن مقارنة سريعـة بين زعيمـي الحركتين الاصلاحيتين لـوثير وزونغلي يتضح ان كلاهما هاجم بيع صكوك الغفران الذي تقره البابوية. وان كلاهما لم يعتمد في حركته على طبقة العامة الواسعة. فلوثير وقف مع الامراء بعنـف ضد ثورة الفلاحين في المانيا، وزونغلي لم يعط اهمية للفلاحين والرعاة المنتشرين في جبال سويسرا ووديانها، مما أفقد حركتها الطابـع الشعبي. وبينما كان زونغلي في تفكيره ديموقراطياً انسانياً عمل على ان تكون الكنيسة مؤسسة تضم جميع المسيحيين. فقد اعتبر لوثير ان الحاكم يجب ان يجمع بيديه السلطتين الروحية والزمنية. ومع ذلك فان الحركتين يعتبران جوهراً وطابعاً: حركتان دينيتان اجتماعيتان لهما صلة قويـة بـالنـاحيـة القـوميـة في كـل مـن المانيـا وسويسرا [٢١].

## ب ـ حركة كالفن في جنيف:

استمرت الحركة البروتستانتية في الانتشار وتخطي حدود المقاطعات التي اعلنت جهاراً اعتناقها للدعوة الجديدة. الا ان موت زونغلي اثر معركة كابل قد حدّ من انتشارها في سويسرا حتى مجيء كالفن الى جنيف سنة ١٥٣٦.

كانت جنيف في القرن السادس عشر خارج الاتحاد السويسري تقع ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة. الا ان موقعها الجغـرافي على ملتقـى طـرق

المواصلات هيأ لها مركزاً تجارياً مرموقاً جعلها تحصل على استقلال داخلي يشبه الى حد ما حالة القوميونات الايطالية في العصور الوسطى. ومع عدم تخلي البابوية عن فكرة تحلل بعض المقاطعات من القيود المفروضة عليها من قبل رجال الكنيسة الكاثوليكية فقد وجدت اراء بعض المصلحين الدينيين امثال غليوم فارل (Guillaume Farel) تقبلاً عاماً عند مواطني جنيف الذين اعلنوا نبذهم للطقوس الدينية التي تمارسها البابوية واصدروا قراراً سنة ١٥٣٦ تم بموجبه التخلص من تبعية الاسقف البابوي واتخاذ البروتستانتية مذهباً رسمياً لهم.

يعتبر كالفن [٢٢] (Gean Calvin) (١٥٠٩ - ١٥٦٤) من اكبر دعاة الاصلاح الديني في سويسرا. ومع انه فرنسي الاصل من حيث المولد والنشأة الا ان الاضطهادات الدينية عهد فرنسوا الاول حملته على الهجرة الى جنيف عام ١٥٣٦ في نفس السنة التي اعلن فيها سكان جنيف اعتناقهم للمذهب البروتستانتي.

ينطلق مذهب كالفن من عقيدة لوثير بل انه يتناول اسس مذهبه فهو في كتابه « مبادىء الدين المسيحي » الذي نشره في مدينة بال عام ١٥٣٥ يتناول الخطوط الرئيسية للحركة الاصلاحية التي نادى بها. وقد تضمنت ثلاثة مبادىء اتفق بها مع لوثير هي:

- الكتاب المقدس هو المرجع الوحيد لجميع المسائل الدينية.
- السيد المسيح وحده هو الذي يشفع للناس عند الله.
- التبرير بالايمان فقط وليس بالاعمال.

اما اوجه الشبه بين تعاليمه وتعاليم لوثير فقد كانت حول الايمان بالقضاء والقدر مع تسليمه الكامل بان حتمية القدر تتنافى مع العقل. اذ لا يستطيع احد « ان ينكر ان الله عرف مصير الانسان النهائي في المستقبل، قبل ان يخلقه

او انه عرفه سلفاً ، لأنه كان قد قضى به في حكمه »[٢٣]. وبينما اكد لوثيرعلى وجوب خضوع الكنيسة للسلطة الزمنية فان كالفن حالو الفصل بين الكنيسة والدولة واعتبر ان للكنيسة مهمتها الروحية ، بينما للدولة مهمتها الزمنية. ومع هذا فالكنيسة بالنسبة للدعوة الكلفينية لا تعتبر خاصة برجال الدين فحسب ، بل يجب ان تكون مؤسسة للجميع يشترك فيها العلمانيون مع رجال الدين في ادارة شؤونها. فكما خلق الله الروح والجسد ليعملان بانسجام تام فانه خلق الدولة والكنيسة على نفس المنوال. اذ انه على الكنيسة ان تضع القواعد الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، والدولة تدعم وتراقب اخلاق الافراد. وهكذا يتحدد واجب المسيحي في جمهوريته الخضوع التام والمطلق للحكومة الزمنية سواء كانت حكومة ديموقراطية ام استبدادية ام ملكية ام جمهورية طالما انها ملتزمة بحدود الدين.

ولما كانت الحكومة برأي كالفن ضرورية في حياة البشر باعتبارها تنظم علاقة الافراد بعضهم مع بعض. فقد استطاع ان يقيم حكومة في جنيف (Tribunal des Mœurs) معتبراً سلطتها تمثيلاً لارادة الله على الأرض ، حكومة تيوقراطية (مشيئية) تستمد قانونها من الكتاب المقدس وحده ويشرف عليها مجمع من الكرادلة مكوناً من خمسة من كهنة الابرشية واثني عشر من العلمانيين يختارهم مجلس المدينة[٢٤]. وقد سن كالفن لها القوانين الصارمة لمحاربة النواحي الاخلاقية الفاسدة كالقمار والرقص والالعاب والبذخ في المأكل وكان يحق لاعضاء حكومته أو (المجلس الملي) التدخل في شتى تفاصيل حياة الافراد كتحديد أنواع المأكولات وقيمة الهدايا في المناسبات وتنظيم العبادات والتأكيد على حضور الصلاة والمواعظ اليومية التي تلقى في الكنيسة. ولمراقبة تصرفات الافراد فقد عهد كالفن الى بعض القساوسة أو المندوبين وبعض المواطنين من اصحاب السمعة الطيبة لزيارة الناس في بيوتهم وتقديم التقارير عن المخالفات التي تصدر عن بعضهم. وكانت معاقبة مخالف القانون تتم بالزجر وفي حال الاصرار بالسجن او النفي.

اما الفسق مكان مرتكبه يعاقب بالنفي او بالموت غرقاً. اما عقوبة الزنا فكانت الاعدام وكان الاحراق حياً عقوبة الهرطقة. وهكذا تم بين عامي ١٥٤٢ و ١٥٦٤ تنفيذ حكم الاعدام في ثمانية وخمسين شخصاً. كما نفي ستة وسبعون آخرين في حين ان تعداد سكان جنيف في ذلك الوقت لم يكن يزيد عن عشرين الف نسمة. وقد وصف احد المعاصرين حالة جنيف في عهد كلفن بقوله: « ان السب والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة، كما يشيع ويغلب ذلك في كثير من الأماكن التي عشت فيها، غير معروفة هنا. ليس هناك قوادون ومومسات. ان النـاس لا يعرفون ما هو الأحمر، وكلهم يرتدون زياً لائقاً، والالعاب التي تعتمد على الحظ ليست مألوفة. والخير جد وفير الى حد ان الفقراء ليسوا في حاجـة الى التسول. والناس يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف بطريقة اخوية كما فرض المسيح.

« والدعاوى اختفت من المدينة ولم يعد فيها اي اتجار بالمقدسات او قتل او روح حزبية، وعمها السلام وحب الخير، ومن جهة أخرى ليس هناك الآت أرغـن ولا اجراس تدق ولا اغاني استعراضية ولا شموع تشعل أو مصابيح تضاء (في الكنيسة) وليس هناك مخلفات مقدسة او صور او تماثيل او مظلات أو اثواب فاخرة أو هزليات أو احتفالات باردة. ان الكنائس خالية تماماً من عبادة الأوثان »[٢٥].

لقد وجدت حكومة كالفن نتيجة للشدة التي مارستها في تطبيق الأحكـام القاسية، مقاومة عنيفة واستياء شديداً لدى عامة الشعب. وقد تفاقم الأمر عندما صدر قرار الحرق باحد كبار علماء اسبانيا سرڤيه **(Michel Servet)** لأنه انكر الثالوث المقدس ولم يؤمن الا بوحدة الله.

وهكذا عملت الكلفينية بتطرفها الزائد على خلق مجتمع يصبـو الى المثالية في جميع تصرفاته. ومع ان هذه الحركة قد ازالت الاديرة الا ان قوانينها الصارمة فرضت الحياة الديرية بكل قسوتها على جميع اعضاء المجتمع في جنيف. لهذا اتهمت بأنها كانت اداة عنف سلبت الفرد الانساني حريته

الشخصية لسيطرتها المطلقة على جميع تصرفاته. ومع هذا فالحركة الكلفينية كانت ذات اتجاه ديموقراطي تقوم على مبدأ المساواة التامة بين جميع المواطنين وتعتبر جميع المؤمنين بكنيستها المصدر الوحيد للسلطة في الكنيسة المسيحية العالمية. هذا الاتجاه الديموقراطي الذي عملت به الكلفينية ودعت له جعل الاصلاح الكالفيني راية الجمهوريين في كل مكان كما جعل الحكومات الاوروبية التي تعتمد نظمها ودساتيرها على الحكم المطلق تخشى هذه العقيدة وتعمل على محاربتها.

وبينما آزرت اللوثرية في المانيا سلطة الامراء على حساب سلطة رجال الدين فطمست بذلك الحركة الثورية فيها لمدة طويلة من الزمن، فان الكلفينية اصبحت عقيدة الثوار تناصر فكرة الاستقلال في كل مكان. وهكذا فان الاصلاح الذي وضعه كالفن طمس اصلاح لوثير وتفوق عليه. وفيما عدا الكتلة الجرمانية التي انتشرت فيها العقيدة اللوثرية، فان الكلفينية عمت جميع انحاء اوروبا التي وقعت في حظيرة الاصلاح الديني. فقد ظهر الهيغونوت (٢٦) في فرنسا عهد فرنسوا الأول واقاموا دعائم الكنيسة البروتستانتية فيها. واستقلت هولندا بفضل كفاحها عن اسبانيا. واقيمت الجمهورية الهولندية. كما اعتنقها الاسكتلنديون والمقاطعات الشرقية من سويسرا ومعظم المجريين. كما استطاعت الكلفينية ايضاً ان تزود حركة الاصلاح في انكلترا او الثورة البورجوازية فيها برداء ايديولوجي. اذ ظهر اثرها واضحاً في العقيدة الانغليكانية التي اقرتها الكنيسة القومية في انكلترا. وقام الكلفينيون ايضاً برحلات تبشيرية الى افريقيا وشمال امريكا. ففي عهد جيمس الاول ملك انكلترا (١٦٠٣ - ١٦٢٥) قامت السفينة (My Flower) برحلتها المشهورة عام ١٦٢١ تحمل المضطهدين من البيورتان (Puritains) الى الساحل الشرقي من اميركا حيث اسسوا المستعمرة المعروفة باسم انكلترا الجديدة (٢٧).

## رابعاً ـ الاصلاح الديني في انكلترا

### أ ـ الاسبـــاب:

ارتبطت حركة الاصلاح الديني في انكلترا بعدة عوامل اهمها ان حالة رجال الدين في انكلترا لم تكن باحسن من غيرهم في اوروبا فيما يختص بارتكاب الفضائح والرذائل والاقبال على الملذات والانغماس في المشاكل الاجتماعية المختلفة وفي سياسة تبذير الاموال التي كانوا يجمعونها بشتى الطرق. كما ان انكلترا شهدت منذ القرن الرابع عشر ـ كما رأينا ـ بروز افكار اصلاحية بدأها ويكلف بمعارضة شديدة لدفع الضرائب للبابا بحجة انه يسيء استعمالها. فضلا عن ان مبادىء لـوثير وكـالفـن وبقيـة المصلحين كـاراسم مثلاً كانت قد وصلت الى انكلترا عن طريق المبشرين البروتستانت.

لقد بدأ الخلاف بين هنري الثامن ملك انكلترا (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) مع البابوية عندما رفض البابا كلمنت السابع ان يطلق زوجته كاترين اراغون، بعد مضي ثماني عشرة عاماً على زواجه منها بحجة ان الزواج لا يعتبر شرعياً لأن كاترين كانت ارملة أخيه. والحقيقة ان هنري كان يرمي الى الزواج من احدى عشيقاته واسمها آن بولين كما انه كان يتوق الى ولد ذكر يرث عرشه. اذ لا يمكننا اغفال العقلية الانكليزية المحافظة في وجوب انجاب صبي لوراثة العرش لأن في ذلك استقرار للسلطة السياسية في البـلاد بعد الحروب الدامية التي كانت تشهدها انكلترا بسبب هذا الأمر. كما أن ابنة هنري من كاترين كانت قد خطبت لولي عهد فرنسا وعمرها سنتان فقط. وفي هذه الحالة يمكن لملك فرنسا في المستقبل ان يرث التاج الانكليزي لتصبح انكلترا بعدها مقاطعة فرنسية خالصة.

وهكذا نستنتج من طلب هنري لبطلان الزواج، ان الملكية الانكليزية اصبحت ذات شأن يمكنها من رفض التسليم بسلطة البابا وتحكمه في مواردها

الاقتصادية مع ان هنري الثامن نفسه كان من أشد المخلصين للكاثوليكية، حتى ان البابا ليو العاشر انعم عليه بلقب «حامي العقيدة» بعد ان اصدر هنري بحثاً عام ١٥٢١ رد فيه على لوثير مدافعاً عن البابوية وسلطتها [٢٨].

لم تعد البرجوازية الانكليزية اذن في أوائل القرن السادس عشر بعد ان ازدهرت أعمالها التجارية وراء البحار وفي الاراضي المنخفضة، قادرة على الوقوف مكتوفة الايدي امام الاعراف والتقاليد والقوانين المعيقة لنموها. لذلك وقفت الى جانب الملك الانكليزي تسانده في اتخاذ القرارات والقوانين التي تحد من سلطة رجال الدين وتجعل من الكنيسة الانكليزية كنيسة قومية خالصة. كما ان انتصارات شارل الخامس المتتالية في الحروب الايطالية على فرنسا واحتضانه للبابوية قد قلبت التوازن الاوروبي رأساً على عقب. فما كان على انكلترا في هذه الحالة الا ان تقف ضد شارل الخامس قبل ان يبتلع ايطاليا كلها ومعها فرنسا. وبما ان كاترين زوجة هنري هي قريبة شارل (عمته) كانت حجة ودافعاً للمزيد من العداء لامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة. يذكر فيشر المؤرخ الانكليزي بهذا الصدد: «رغم ان الشعب الانجليزي يغلب عليه طابع المحافظة، فانه كان ايضاً بصفة عامة لا يميل الى رجال الدين، ويصدق هذا بصفة خاصة على العلمانيين في لندن والمدن التجارية. وكانت الطبقة التجارية واسعة السلطان؛ وكان الجبللين [٢٩] (Gibelins) الانجليز يحقدون على ما يتمتع به القسس من امتيازات وما يحوزون من املاك. كان يسوؤهم ان يعفى رجال الدين من التشريع الجنائي الذي يخضع له افراد الناس في الوقت الذي يخضع فيه الناس لتشريع الكنيسة الجنائي. وتساءلوا: لماذا يفلت سافك الدماء فعلاً من العقوبة اذا استطاع ان ينشر مقطوعة من المزامير واستحق بذلك ان يكون رجل دين، واي حق يخول محكمة الاسقف الحكم على رجل علماني بالحرق بتهمة الهرطقة دون اي تدخل او مانع من جانب السلطة المدنية؟... ورغم ان اتجاه الرأي العام كان في معظمه علمانياً لا يميل الى الاكليروس، فانه لم يكن ثورياً. ولم تلهب

حركة الاصلاح الديني في انجلترا تلك المرارة الاجتماعية بين الطبقات التي اشعلت ثورة الفلاحين في المانيا »[٣٠].

## ب - الاصلاح النيــابي:

بعد ان فشلت سياسة التوسل التي اتبعها هنري الثامن مع البابا كلمنت السابع وفشلت معها الاعيب الكاردينال ولزي الذي حاول بجميع الوسائل بصفته رئيساً أعلا للكنيسة الانكليزية ووزيراً اول لدى هنري الثامن، المحافظة على العلاقة بين البابوية والملكية. اقدم هنري عندها على دفع البرلمان الانكليزي لاتخاذ قرارات تحد من سلطة رجال الدين في انكلترا شيئاً فشيئاً. فاتخذ المجلس المنعقد سنة ١٥٢٩ والمكون من النبلاء والتجار قراراً ينص على تخفيض ثروة رجال الكنيسة واضعاف سلطانهم والمحافظة على التجارة مع الفلاندر وتأييد الملك في حملته للحصول على وريث ذكر. كما اتخذ المجلس النيابي نفسه مع المجلس الاكليركي سنة ١٥٣٢ قراراً مهماً طالما كان غاية البورجوازية الانكليزية. نص على وجوب تخفيض ضرائب الكنيسة التي كانت تتلقاها على الاعمال التي كان يؤديها رجال الدين كما نص ايضاً على عدم تحويل الاموال الى روما من اجل بعض الخدمات البابوية او صكوك الغفـران: « ان رجال الدين دون درجة مساعد شماس، يجب ان يحاكموا امام المحاكم الدينية عند اتهامهم بالخيانة العظمى، وان الرسوم والغرامات التي تتقاضاها المحاكم الكنسية يجب ان تخفض، وان الرسوم الكنسية على الموتى ورسوم التثبت من صحة الوصايا يجب ان تخفض او تلغى، وان موارد السنة الأولى لأسقف حديث التعيين يجب الا تدفع بعد ذلك للبابا، وان تحويل الامـوال الانكليزية الى روما من اجل محللات وصكوك غفران وخدمات بابوية اخرى يجب ان يتوقف »[٣١]. الا ان أهم القرارات التي اتخذها المجلس الاكليروسي بعد ذلك وجعلت الكنيسة الانكليزية جزءاً تابعاً للدولة هي عندما اصدر هذا المجلس قراراً ينص على حق الاعتراض على القوانين والاجراءات التي تصدر عن البابوية وتضر بمصلحة المملكة: « هلا تفضلتم يا صاحب السمو

بوقف اعمال الاغتصاب الظالمة المذكورة... واذا اتخذ البابا اجراء ضد هذه المملكة للحصول على موارد السنة الاولى للاساقفة حديثي التعيين... فلتتفضلوا سموكم بسن قانون من المجلس النيابي الحالي بسحب طاعة سموكم والشعب للكرسي البابوي في روما »[٣٢].

وهكذا اقدم هنري بكل جرأة بعد هذا التمهيد، على الزواج من آن بولين وتتويجها سنة ١٥٣٣ ملكة على العرش الانكليزي بعد ان حصل على اذن بالطلاق من المجلس الاكليروسي نفسه دون ان يأبه لقرار الحرمان الكنسي الذي أنزله به البابا. بل انه استدرج البرلمان للموافقة على قانون وراثة العرش الذي يعتبر فيه ابنة كاترين غير شرعية. وفرض على كل فرد بمن فيهم رجال الدين ان يقسموا يمين الولاء له ولقانون العرش. وفي سنة ١٥٣٤ أصدر المجلس النيابي القانون الشهير المعروف بقانون السيادة الذي تم بموجبه وضع الكنيسة الانكليزية تحت سلطة الملك العليا. كما خول هذا القانون الملك جميع السلطات على العقيدة والاصلاح الكنسي وهي من اختصاص الكنيسة سابقاً. وبذلك شل هنري تماماً العلاقة بين البابوية والكنيسة الانكليزية التي اصبحت منذ هذا الوقت ـ عدا فترة زمنية بسيطة ـ كنيسة قومية خالصة.

لقد عمد هنري بعد اعلان قانون السيادة وفرضه يمين الولاء على رجال الدين له ولقانونه، الى اعلان عهد الارهاب الذي ذهب ضحيته كثير من المعارضين ومنهم الاسقف فيشر وتوماس مور[٣٣] اللذين رفضا الموافقة على اداء قسم يعترفان فيه بهنري رئيساً للكنيسة الانكليزية.

استمرت سياسة اضطهاد الهراطقة المتهمين بعدم الاعتراف بسلطة الملك الانكليزي على الكنيسة ورجال الدين. ومع ذلك فان المناطق الشمالية أو الزراعية على الأصح بوجه العموم لم تتعاطف مع البروتستانتية الجديدة كما تعاطف معها اهل المدن. فانضم اليهم فلول الرهبان المعارضين الذين طردوا من اديرتهم بعد ان اغلقت[٣٤]. وتكونت مع الوقت ضد سياسة الملك المطلقة مجموعات ثائرة ما لبث هنري ان قضى عليها واحدة بعد الأخرى.

توفي الملك هنري الثامن سنة ١٥٤٧ بعد ان حكم سبعة وثلاثين عاماً استطاع خلالها ان يقود ثورة « الاغنياء ضد الفقراء ». لأن اللوردات المحدثين في دولته الجديدة لم يكونوا اقل قسوة من خلفائهم الرهبان في جمع الضرائب وطرق استغلال المزارعين بحيث نشأت طبقة ارستقراطية جديدة من الانصار والمجندين الذين استفادوا من حركة « الاصلاح الكنسي » التي حولت ممتلكات الكنيسة الواسعة اليهم عن طريق استغلال فرص حاجة الدولة للاموال بشرائهم الاراضي المصادرة بأبخس الاثمان. ويمكن القول اخيراً بأن هنري قد ترك العامة في انكلترا بعد هذه المدة افقر حالاً مما كانوا عليه قبل ان يتسلم السلطة. ومع ذلك فانه لا يمكننا ان نغفل اهمية حركة الاصلاح هذه في انها سلخت انكلترا من ارتباطها بالماضي القروسطي وهيأت لها في نفس الوقت انطلاقة اقتصادية هائلة جعلتها في اواخر القرن السابع عشر تنافس اعظم الامبراطوريات المعاصرة.

### ج ـ السياسة الدينية المتقلبة:

تسلم العرش بعد هنري الثامن ولده ادوار السادس (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) وهو ابن جين سيمور احدى زوجات هنري بعد آن بولين، وذلك تحت وصاية عمه دوق اوف سومرست من اشد انصار المذهب البروتستانتي. كان ادوار السادس بروتستانتياً متحمساً الا انه لم يتشدد مع « الهراطقة » بل انه سمح لمعتنقي المذهب اللوثري والكلفيني بالعودة الى انكلترا. وخفف من القوانين الجائرة التي صدرت في عهد والده. ومع ذلك استمر المجلس النيابي في اصدار القرارات التي تؤكد على الحركة الدينية الجديدة.

توفي ادوار السادس سنة ١٥٥٣ وتسلمت العرش بعده ماري ابنة كاترين اراغون وذلك بمقتضى قانون اصدره المجلس النيابي الذي لم يخول لادوار حق السلطة في تعيين خلف له.

بدأت ماري تيودور حكمها باطلاق الحريات العامة في مسألة المعتقد

الديني. وقامت ببعض الاجراءات الاقتصادية لصالح الطبقة الفقيرة. الا انها كانت تتلهف للسماح للكاثوليك بمزاولة شعائرهم الدينية. فعمد المجلس النيابي في عهدها الى التخفيف من اجراءات التشدد التي تتعلق بالدين مقاوماً في نفس الوقت اية فكرة تدعو الى التنازل عن وجوب كون صاحب التاج رئيساً للكنيسة الانكليزية.

ومما زاد من اعادة اعتبار الكثلكة في انكلترا ان ماري تزوجت بفيليب ملك اسبانيا ابن شارل الخامس الشديد الولاء للكاثوليكية. وعلى الرغم من اعتراضات البروتستانت خاصة النبلاء الذين اغتنوا من مصادرة املاك الكنيسة في عهد هنري الثامن واصبحوا يتخوفون من ان تصبح انكلترا تابعة لاسبانيا الكاثوليكية. فان الثورات التي أحدثها هؤلاء، طيلة بقية حكم ماري قد فشلت. واختتمت ماري عهدها بالتشدد ازاء معتنقي المذهب البروتستانتي واعلان عهد الارهاب الذي فاقت مآسيه اعمال محاكم التفتيش الاسبانية نفسها حتى اطلق عليها اسم ماري الدموية (Bloody Mary). كما انها الغت قانون السيادة واعادت انكلترا الى أحضان البابوية وقضت على جميع التشريعات الخاصة بحركة الاصلاح التي صدرت عهد والدها هنري الثامن.

كان البرلمان الانكليزي قد أصدر قراراً سنة ١٥٣٦ نص على ان زواج آن باطل بحيث أصبحت اليزابيت ابنتها من هنري الثامن غير شرعية ولا يجاز لها تولي العرش. ومع ان قراراً آخر قد صدر سنة ١٥٤٤ ثبت حق اليزابيت في تولي العرش الا ان ماري قد اجبرت البرلمان نفسه على اصدار قرار سنة ١٥٥٣ يؤكد عدم شرعية زواج هنري. وازاء تمسك الذين أثروا عن طريق شراء املاك الكنيسة في عهد هنري الثامن وادوار السادس بعدم العودة الى الكاثوليكية حتى لا تنتزع منهم املاكهم استطاعت اليزابيت بفضل هؤلاء ان تتولى عرش انكلترا لمدة خمسة واربعين عاماً امتدت من سنة ١٥٥٨ حتى سنة ١٦٠٣.

سلكت اليزابيت في حكمها سياسة دينية شبيهة بسياسة أبيها. وكان العامل

الاساسي لنجاحها في الحكم يكمن في اختيارها لمعاونيها من الرجال القليلي النفوذ وليس من النبلاء العريقين الاقوياء الذين ما زالوا على المذهب الكاثوليكي. وكان من اهمهم سيسيل الذي سار على نهج ريشليو في تدعيم الحكم المطلق. ولما كانت اليزابيت لا تؤمن بالسيادة الشعبية فانها لم تدع البرلمان للاجتماع الا نادراً وعند حاجتها على موافقته على قراراتها فقط. حتى انها كانت تعاقب اعضاءه الذين يحاولون معارضتها او انتقاد سياستها. حتى شبهها السفير الاسباني في ذلك الوقت بأنها كانت صورة عن والدها هنري.

ومع ان معظم سكان انكلترا كانوا من الكاثوليك عندما تسلمت اليزابيت السلطة إلا ان تطلعاتها لبناء دولة قوية غير خاضعة للبابا جعلها تقف في وسط المعركة بين الكاثوليك والبروتستانت. فاعاد البرلمان في عهدها قانون السيادة سنة ١٥٥٩ الذي نص على ان تكون الحاكم الاعلى في انكلترا في المسائل الروحية والزمنية على السواء. فتكرس بذلك الانقسام بين انكلترا والبابوية. كما اصدرت قانون المذهب الواحد المعروف بقانون الـ « ٣٩ مادة » الذي يعتبر شرعة الديانة الانغليكانية بحيث اصبحت الكنيسة الانكليزية بروتستانتية العقيدة وكاثوليكية في بعض المظاهر والطقوس.

ومع ان اليزابيت قد أعلنت انها لن تضطهد حرية الفكر والعقيدة شريطة الخضوع للقانون والانصياع لمصلحة انكلترا العليا حرصاً على وحدة الامة. الا انها مارست الاضطهاد ضد الكاثوليك وحرمت عليهم مزاولة طقوسهم وامرت بانزال أشد العقاب بمن يخالف اوامرها. وعندما اصدر البابا بيوس الخامس مرسوماً سنة ١٥٧٠ يحل رعاياها من الولاء لها أخذت تضغط على البرلمان لاصدار القوانين الصارمة ضد الكاثوليك. فأصدر البرلمان سنة ١٥٨١ قانوناً ينص على اتهام المرتدين الى الكاثوليكية بتهمة الخيانة العظمى وان من يمتنع عن حضور الصلوات الانغليكانية يعاقب بدفع غرامة مالية. وفعلاً اعدم في عهد اليزابيت ١٢٣ قسيساً و ٦٠ من العلمانيين فضلاً عن الذين قضوا نحبهم في السجون وقد ازداد هذا العدد بعد انتصار انكلترا على اسبانيا

في معركة الارمادا بحجة ولاء الكاثوليك للعدو.

اما عن سياسة اليزابيت تجاه البيورتان (المتطهرون) الذين تأثروا بمبادىء كلفن وعارضوا بشدة بعض الطقوس والعادات الكاثوليكية التي ادخلت على الانغليكانية. فقد رأت اليزابيت في مواقفهم المتشددة اخلالاً للتسوية التي قامت بها لتهدئة الصراع الديني. ولما كانت الكلفينية في جوهرها كنيسة ديمقراطية فقد رأت فيها اليزابيت تهديداً مباشراً لسلطتها الملكية المستبدة. لهذا لاحقتهم بشدة وحدت من انتشار مطبوعاتهم ومنعت اجتماعاتهم وأفشلت خططهم في البرلمان. وفي سنة ١٥٩٣ أصدر البرلمان قانوناً يؤكد فيه على السيادة الدينية للملكة وعلى الذين لا يتعهدون بالتزام العقيدة الرسمية ان يغادروا انكلترا والا كان جزاؤهم الموت. وهكذا اخذ البيورتان يهاجرون وطنهم مختارين الاحتفاظ بعقيدتهم الدينية. فهاجرت اعداد كبيرة منهم الى هولندا والقارة الاميركية.

وبهذا فقد انحازت انكلترا نهائياً الى جانب حركات الاصلاح الديني التي قامت في اوروبا واصبحت عداوتها مع اسبانيا ولفترة طويلة تأخذ شكلاً دينياً مع كونها في جوهرها صراع على النفوذ والسلطة في اوروبا والمنافسة على التجارة في المستعمرات. إذ ما لبث كاثوليك انكلترا ان استنجدوا بملك اسبانيا فيليب الثاني، زوج ماري تيودور الذي كان يطمع في عرش انكلترا. وفي سنة ١٥٨٨ ارسل فيليب اسطوله الضخم المعروف «بالارمادا» (Armada) لغزو انكلترا الا ان خطته فشلت بعد ان تحطم الاسطول برمته امام الاسطول الانكليزي وبراعة البحارة الانكليز. وبذلك خرجت سيادة البحار من يد اسبانيا الى انكلترا التي اصبحت منذ ذلك الوقت زعيمة البحار والتجارة العالمية.

# خامساً - الاصلاح الديني في فرنسا

لقد وجدت تعاليم المصلحين الدينيين اهتماماً كبيراً لدى الكثير من الفرنسيين الذين اقبلوا على دراستها. وكانت فرنسا منذ اوائل القرن السادس عشر قد شهدت بذور حركة اصلاحية قام بها لوفيفر الذي ترجم التوراة والمزامير الى اللغة الفرنسية داعياً الى وجوب العودة الى الانجيل والتقيد بنصوصه وحده. كما أن الكنيسة الفرنسية نفسها لم تكن اقل من غيرها معاناة من تصرفات رجال الدين وانغماسهم في الحياة الدنيوية. هذا عدا عن ان فرنسا قد نشطت فيها روح النهضة الحديثة التي دعت الى البحث والمناقشة وتقصّي الحقائق بروح علمية خالصة.

## أ - فرنسوا الأول (١٥١٥ - ١٥٤٧):

لم تتجذر الدعوة البروتستانتية في المجتمع الفرنسي كما تجذرت في المانيا وسويسرا بسبب قلة تأثير رجال الدين على البلاط الملكي. اذ ان فرنسوا الأول، ملك فرنسا، استطاع ان يحصل في سنة ١٥١٦ من البابا ليو العاشر على حق تعيين الاساقفة والرهبان في مملكته. فيكون بذلك قد حقق ما طالب به لوثير بعد ذلك بعام بوجوب خضوع السلطة الدينية الى السلطة الزمنية.

تأرجحت سياسة فرنسوا الاول تجاه البروتستانت وملاحقتهم بحسب مواقف البابا من خصمه شارل الخامس. الا انه لم يؤيد الانفصال عن روما لكونه من جهة متمسكاً بوحدة الايمان في مملكته ومعارضاً لاية حركة ثورية ضد السلطة القائمة، ومن جهة ثانية ان اكثرية الشعب الفرنسي بقيت كاثوليكية محافظة نظراً لتماسك النظام الاقطاعي وشدة تسلط الاقطاعيين. لهذا نجحت البروتستانتية في الجنوب الفرنسي حيث دعا اليها تجمع النبلاء المجردين من السلطة ومن الذين ناؤوا تحت عبء دفع الضرائب التي لا

تحتمل ومن الطامحين السياسيين وبورجوازيي المدن الذين كانوا يواكبون حركة العصر الفكرية ويجدون في الحركة الجديدة امكانية الحد من السلطة الاقطاعية الجائرة وانظمتها المتعارضة مع طموحها الاقتصادي والسياسي [٣٥].

ان قوة النظام المركزي الذي عرفته فرنسا قبل عهد فرنسوا الاول لم تسمح بالدرجة الاولى بانتشار العقيدة البروتستانتية في فرنسا بينما كان تفسخ السلطة في المانيا والاراضي المنخفضة ومجمل شمال القارة الاوروبية مسؤولاً الى حد بعيد عن هذا الانتشار. ففي حين مثلت الكاثوليكية عند الاسبان سلاحاً لتحرير بلادهم من «الكفرة» فقد بقيت سيطرة البابوية على ايطاليا مع تفسخ السلطة فيها، عنصراً هاماً لمنع عملية انتشار الافكار الدينية و «الهرطقات الجديدة».

لقد اشتد موقف فرنسوا الاول من البروتستانت بعد ان وصلته انباء ثورة الفلاحين في المانيا. فاصدر القوانين الصارمة وانشأ المحاكم لملاحقة الهرطقة في بلاده. واصبح واضحاً لمعاصريه انه لم يتسامح مع الحركة الجديدة الا كونها سلاحاً يرفعه بوجه البابوية التي كانت تحاول بين فترة واخرى كسب ود شارل الخامس في ايطاليا. لذلك فبعد ان عقد سلماً مع شارل الخامس سنة ١٥٣٨ تخلى عن استرضاء البروتستانت حتى خارج حدود مملكته الذين كان يمد لهم العون لاشغال خصمه بالحركات الداخلية المعارضة.

ومع ان الحركة البروتستانتية قد تأخر انتشارها في فرنسا عن غيرها من المناطق التي اعتنقتها الا انها شكلت جزءاً اساسياً في النصف الثاني من القرن السادس عشر من تاريخ فرنسا. اذ ان معظم الاحصاءات التي تناولتها المصادر المعاصرة اشارت الى ان الكنائس الكلفينية في سنة ١٥٦١ قد تجاوز عددها في فرنسا الألفي كنيسة [٣٦]. لهذا باتت الفترة التي عاشتها فرنسا حتى سنة ١٥٩٨، تاريخ صدور مرسوم نانت، فترة مشاكل وقلاقل داخلية ادت الى انقسام حاد في المجتمع الفرنسي الذي كان حتى تلك الفترة اكثر

المجتمعات تماسكاً. ولا بد هنا من الاشارة الى مشكلة وحدة الامة الفرنسية التي طرحتها الحركة البروتستانتية على بساط البحث كما يراها عبدالمجيد نعنعي: «فاذا كان التقسيم قد حصل فعلاً على صعيد القارة الاوروبية فان ما يبرر ذلك ان اوروبا ما كانت في يوم من الايام امة واحدة موحدة سياسياً. وحتى المانيا التي بات فيها وجود طائفتين كاثوليكية وبروتستانتية امراً واقعاً بل ومسلماً به، فانها كانت دوماً مؤلفة من مئات الممالك والامارات المستقلة لا يجمعها الا الولاء لعرش الأمبراطور المقيم في فيينا. اما في فرنسا الدولة الواحدة الموحدة سياسياً وجغرافياً وعسكرياً في ظل عرش جعل شعاره «دين واحد، شرع واحد، ملك واحد» فان الوحدة على الصعيد العقائدي تبقى ضرورة ماسة لا يجوز التفريط بها. وبالتالي كانت مبادىء التسامح والحرية تبقى بمثابة ترف لا يمكن القبول به وتظل وحدة الدين بمثابة ضمانه لوحدة الأمة وسلامتها سياسياً وعسكرياً»[٣٧].

## ب ـ كاترين دي مدتشي: عهد الاضطراب والفتن الطائفية:

استمرت حركة الاضطهاد ضد البروتستانت عهد هنري الثاني (١٥٤٧ ـ ١٥٥٩) اشد مما كانت عليه ايام فرنسوا الاول. فحدثت مذابح عديدة ذهبت ضحيتها الوف الفرنسيين الكلفينيين من الهيغونوت. ومع ذلك فقد اقبل على اعتناق هذه الحركة كثير من الفرنسيين على مختلف انتمائهم الطبقي. حتى ان اعداد الارستقراطيين قد تزايدت بهدف ضرب الملكية التي اخذت تقلل من شأنهم ونفوذهم. ومما زاد في اضطهاد الهيغونوت انتهاء الحرب الايطالية وعقد معاهدة كاتو ـ كامبريزي[٣٨] **(Cateau Cambrésis)** حيث تفرغت بعدها الملكية الفرنسية منذ اواخر عهد هنري الثاني لمشاكلها الداخلية التي كان يثيرها الصراع بين الكاثوليك والهيغونوت.

تعاقب على العرش الفرنسي بعد وفاة هنري الثاني ثلاثة ملوك ضعفاء. مما مكّن أمهم كاترين دي مدتشي[٣٩] **(Cathérine de Médicis)** الايطالية

النسب من ان تدير زمام الأمور في فرنسا طيلة حكم اولادها.

اشتهرت كاترين بشخصية قوية وميل شديد الى التسلط والانفراد. وقد حدث في فرنسا خلال هذا الوقت ان احتدم النزاع والمنافسة الشديدة بين بعض الأسرات القوية بدوافع سياسية اهمها النزاع على السلطة. وكان من هذه الاسرات اسرة غيز (De Guises) الكاثوليكية التي كانت تشدها رابطة القرابة بالعرش الاسكتلندي وتحالف وثيق مع اسبانيا والبابوية. وكان زعيمها فرنسوا الذي كاد نفوذه في فرنسا يغطي نفوذ التاج الملكي نفسه. ثم اسرة بوربون (De Bourbon) البروتستانتية، قريبة العائلة المالكة وزعيمها سيد النافار الذي كان شديد النفوذ في جنوب وجنوب غربي فرنسا. بحيث طبعت الحركة الدينية فرنسا بطابع ارستقراطي سياسي اكثر منه ديني.

ولتستطيع كاترين ان تستأثر بالسلطة (عهد ولدها الثاني شارل التاسع) (١٥٦٠ ـ ١٥٧٤) وتقضي على قوة الاسرات المتنازعة فقد اشعلت التنافس بينها باصدار مرسوم عام ١٥٦٢ الذي قضى بالسماح للهيغونوت باقامة شعائرهم الدينية في جميع انحاء فرنسا وحتى في المدن التي لا اسوار لها، مما اثار حفيظة الكاثوليك الفرنسيين واغضبهم وعلى الأخص اسرة دي غيز منهم. فحدثت مذبحة فاسي (Vassy) في نفس العام حيث قتل فيها ستون شخصاً من الهيغونوت. وهكذا اشتعلت الحرب الاهلية في فرنسا بتشجيع الدول الاجنبية. فأخذ الهيغونوت يتلقون المساعدات من امراء المانيا اللوثريين ومن المملكة الانكليزية اليزابيت. كما ان الكاثوليك حصلوا على المساعدة من ملك اسبانيا فيليب الثاني ومن البابوية ايضاً.

وعلى الرغم من المراسيم التي صدرت لصالح الهيغونوت كصلح امبواز (Amboise) سنة ١٥٦٣ ثم صلح سان جرمان (St. Germain) عام ١٥٧٠ الذي اكد على حرية الهيغونوت في ممارسة شعائرهم وفق مرسوم ١٥٦٣، الا ان الحالة السيئة قد عمت فرنسا طيلة هذه المدة ووصل الامر بكاترين الى تدبير جريمة من ابشع الجرائم التي عرفها التاريخ. اذ انها اغتنمت وفود

الهيغونوت الى باريس يوم عيد القديس سان برتلمي (St. Barthélmy) سنة ١٥٧٢ وذلك لحضور مراسم احتفالات زواج هنري ملك النافار البروتستانتي من ابنتها ماري. فاتفقت سراً مع اسرة غيز الذين هاجموا الهيغونوت على غفلة منهم واعملوا فيهم القتل ولم تقتصر المذبحة على باريس وحدها بل هوجم الهيغونوت في جميع انحاء فرنسا. فذهب ضحية هذه المذابح حوالي عشرين الفاً من الهيغونوت. وقد أعقبها مرسوم ١٥٧٣ الذي ضمن للهيغونوت السماح باداء شعائرهم في اربع مدن فرنسية من بينها لاروشيل وسانسير.

تولى العرش الفرنسي بعد وفاة، شارل التاسع، اخوة هنري الثالث (١٥٧٤ - ١٥٨٩) فبدأ حكمه بسياسة متطرفة ضد الهيغونوت مما اذكى نار الثورة من جديد. وامام تكتل الهيغونوت واستعداداتهم تنازل هنري الثالث لهم عن بعض الحقوق مما اثار استياء شديداً لدى الكاثوليك وعلى الأخص اسرة غيز منهم. فما كان من هنري الثالث الا ان دعاهم الى وليمة في قصر بلوا (Blois) حيث فتك بزعيمهم هنري دي غيز وانضم الى هنري النافار البروتستانتي ليأمن شرهم[٤٠].

## ج - هنري الرابع (١٥٨٩ - ١٦١٠) وسياسة التسامح الديني:

بينما كان هنري الثالث يحاصر باريس مع هنري نافار لدخولها تمّ اغتياله على ايدي احد الرهبان الكاثوليك سنة ١٥٨٩. ولما لم يكن له ولدا يخلفه في الحكم فقد آل العرش لهنري نافار البروتستانتي. وبذلك انتقل الحكم في فرنسا من اسرة ڤالوا (Valois) الى اسرة بوربون التي انتهى حكمها لفرنسا بقيام الثورة الفرنسية، ولكن باعتلاء ملك بروتستانتي العرش الفرنسي تجدد النزاع بين البروتستانت والكاثوليك الذين يعضدهم ملك اسبانيا ولمدة أربع سنوات، فما كان من هنري النافار الا ان اعلن اعتناقه للكاثوليكية وبذلك خمدت ثورة الكاثوليك وفتحت له باريس ابوابها واصبح ملكاً على فرنسا باسم هنري الرابع سنة ١٥٩٤ بعد ان اعترفت به البابوية واسبانيا.

سلك هنري الرابع في حكمه مسلكاً حكيماً مع الكاثوليك. فالتف حوله الكثيرين منهم. وبعد نضال سياسي مرير توصل الى انهاء الخلاف بين الطرفين المتنازعين وان يسترجع الاراضي الفرنسية التي استولت عليها اسبانيا خلال الحرب الاهلية وان يمنح البروتستانت براءة نانت (Nantes) عام ١٥٩٨ التي استطاع بواسطتها ان يضمن سلاماً دائماً وتسوية سلمية رضيت بها الاطراف المتنازعة.

ينص مرسوم نانت (Edit de Nantes) على شروط دينية واخرى سياسية. فقد مُنح البروتستانت بموجبه اقامة الشعائر الدينية في اكثر المدن الفرنسية عدا باريس والمدن التي بها اسقفيات كاثوليكية. كما اجاز لهم المرسوم التمتع بالحقوق المدنية والحماية القانونية وتسلم المناصب الحكومية وعضوية البرلمانات وانشاء المدارس والمستشفيات الخاصة بهم. ويعلق فيشر على هذا المرسوم بقوله: «ولمرسوم نانت مكان ملحوظ في تاريخ الحضارة باعتباره اول اعتراف عام بان من الممكن ان تقوم اكثر من طائفة دينية واحدة في نفس الدولة، فقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الديني - جزءاً من القانون الدستوري لفرنسا قبل الاعتراف به في انجلترا او المانيا لوقت طويل»[٤١]. وكتب نور الدين حاطوم ايضاً عن مرسوم نانت: «لقد قيل عن مرسوم نانت انه يستحق ان يعتبر تاريخاً في تاريخ العالم لأنه دشّن عهد التسامح والتساهل الديني. وفي الواقع ان الرعايا في جميع الدول: في المانيا وانكلترا واسبانيا كانت مضطرة، تحت طائلة النفي، ان لم يكن تحت طائلة الموت، ان تدين بديانة مليكها كاثوليكية كانت ام بروتستانتية. اما فرنسا فكانت الاولى التي تبنت نظام الحرية الدينية ولقد قبلت فرنسا بهذا النظام، لا عن احترام حقيقي لحقوق الوجدان، بل لأنها كانت مضطرة لقبوله بحكم العقل والفطنة اللذين امتاز بهما هنري الرابع»[٤٢].

كان على هنري الرابع بعد ان احل السلام الداخلي في مملكته، القضاء على الانقسام الذي عاشته فرنسا طيلة نصف قرن من الزمن. بحيث انعكس هذا

الانقسام بدوره على جميع مرافق الحياة السياسية والادارية والاقتصادية دون ان يترك فرصة واحدة لاستعادة سلطة الملوك السابقين الذين استطاعوا مع ذلك خلال نضالهم لمركزة السلطة بين ايديهم ان يضعوا الدعامة الاولى لنظرية الحق الإلّهي للملوك في الحكم والسلطة المطلقة.

وتنفيذاً لرغبة هنري الرابع الاصلاحية، عهد الى اخلص اصدقائه الدوق سوللي، (Sully) بتسوية الامور المالية. وفعلاً تمكن سوللي من معالجة هذه المشكلة بكفاءة تامة وذلك بالغاء بعض الوظائف وتخفيف مصازيف البلاط المبالغ فيها وتنظيم جباية الضرائب وواردات الدولة. فاتخذ التدابير لاصلاح الزراعة التي كان يؤمن مع هنري الرابع بانها الركن الاساسي للثروة القومية. فخفف الاعباء عن الفلاحين ومنع الصيد في مزروعاتهم وخفض عنهم ضريبة الاعناق (Taille) واستقدم الخبراء لاستصلاح الاراضي. كما انه شجع القطاع الصناعي بتطوير صناعة السجاد والزجاج والمنسوجات الحريرية. ولما كانت التجارة دعامة الاقتصاد الاساسية فقد شق سوللي الطرقات والجسور اللازمة لتنشيط التجارة الداخلية. وفي عهده اكتشف شامبلان (Camplain) مصب نهر سان لوران في كندا حيث اسست اول مستعمرة في القارة الاميركية وهي كيبك سنة ١٦٠٨.

وامام تحدي هنري الرابع للعصبة الكاثوليكية المؤلفة من النمسا واسبانيا بزعامة اسرة الهابسبورغ وذلك بتحالفه مع البروتستانت في المانيا والاراضي المنخفضة اعاد الى اذهان الكاثوليك الفرنسيين سيرة هنري البروتستانتية فاغتاله متطرف كاثوليكي يدعى رافيّاك (Ravillac) سنة ١٦١٠. وهكذا استطاع هنري الرابع ان يضع اسس النهضة القومية لفرنسا التي تجلت عظمتها عهد لويس الرابع عشر[٤٣].

## سادساً ـ الاصلاح الكاثوليكي المعاكس

**La Contre - Réforme**

لقد أرعبت حالة الانقسام الديني بابوية النصف الثاني من القرن السادس عشر، بل هالها الأمر الذي وصلت اليه المسيحية والوضع المتردي الذي أصبحت فيه البابوية بعد ان مثلت القوة الوحيدة في اوروبا طيلة فترة العصور الوسطى. فهي التي وقفت بوجه البرابرة وحمت التراث الروماني بعد سقوط الامبراطورية الرومانية اواخر القرن الخامس، وهي التي دفعت بجموع المسيحيين الابرار نحو الشرق ابتغاء كسب الشهادة في سبيل حماية الأرض المقدسة. ولايقاف التيار البروتستانتي العنيف الذي عصف بجميع دول اوروبا واقبل على اعتناقه ما يقدر بنصف مسيحيي اوروبا الغربية معلنين باجمعهم خروجهم على كنيسة روما ورجالها، ولاصلاح حالة الفساد والفوضى التي تردت في صفوف رجال الدين، كان لا بد ازاء هذه الحالة ان تقوم البابوية ببعض الاصلاحات داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها ليكون باستطاعتها مقاومة خصومها والحفاظ على مكانتها السابقة.

لقد اضطلع بحركة الاصلاح التي قامت بها البابوية وتبناها البابا بولس الثالث (١٥٣٤ ـ ١٥٤٩)، مجمع ترانت، ومنظمة اليسوعيين ومحاكم التفتيش وجداول الثبت لمراقبة المطبوعات. ومع كون هذا الاصلاح المضاد قد بقي اسيراً للنظم والتقاليد التي كانت سائدة بعكس ما اتصفت به الحركة البروتستانتية من ثورية تناولت اسس العقيدة نفسها. الا ان الاصلاح المضاد طهر الكنيسة من الشوائب وساعد على الاحتفاظ بجموع الكاثوليك وعلى استرجاع الاراضي المفقودة في بعض دول اوروبا وعلى الاخص داخل الامبراطورية الرومانية المقدسة.

أ ـ مجمع ترانت: (Le concile de Trente)

تقع مدينة ترانت من الناحية الجغرافية في ايطاليا ومن الناحية السياسية ضمن نطاق الامبراطورية الرومانية المقدسة ـ أي تحت سلطة الامبراطور شارل الخامس ـ. وقد عقد هذا المجتمع تحت الحاح الامبراطور نفسه وضغط الراغبين في اصلاح الكنيسة ايضاً. وكان الخلاف الحاد بين الامبراطور وفرنسوا الاول سبباً مهماً في تأخر انعقاد المجمع لمدة ثلاث سنوات. اذ كان يرى كل منهما ان مسألة مكان انعقاد المجمع سوف تحدد بالتالي سيطرة كل منهما السياسية عليه. لهذا فلم يعقد المجمع اولى جلساته الا في سنة ١٥٤٥ بعد ان كانت الدعوة موجهة الى عقده سنة ١٥٤٢ [٤٤]. وقد استمرت اعمال المجمع متقطعة لمدة ثمانية عشر عاماً (١٥٤٥ ـ ١٥٦٣) وذلك للخلافات التي نشبت بين اعضائه. اي بين ممثلي البابوية من جهة وممثلي الامبراطور من جهة ثانية. ومع كونه بدأ في مدينة ترانت الا ان اعضاءه انتقلوا الى مدينة بولونيا في إيطاليا ليعودوا الى ترانت من جديد عام ١٥٥١ حيث توقف بعدها مدة عشر سنوات وذلك حتى عام ١٥٦٢.

تركزت مناقشات المجمع حول نقطتين هـامتين. كـانـت النقطـة الاولى تختص بتعيين الاساقفة والنص على المصدر الذي يستمدون منه سلطانهم. فبينما رأى بعضهـم انهم يستمدون سلطانهم من السيد المسيح فقد أكد قسم منهم على ان البابا مصدر كل سلطة باعتباره خليفة القديس بطرس. اما النقطة الثانية فقد تركزت حول سلطة البابا على المجامع المسكونية. ويعود سبب هذا الاختلاف الحاد في الرأي، الى هوية المجتمعين انفسهم. ففـي حين كان انصار الامبراطورية من الكاثـوليـك والبروتستانت المجتمعين معهـم يريدون التقليل من سلطة البابا، فقد شدد ممثـلو البابا على سلطته التي يجب ان تكون فوق كل سلطة دينية.

أكدت قرارات مجمع ترانت أو (مراسيم ترانت) ان سلطة البابا هي السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكيـة لكـونها مستمـدة مـن سلطـة السيـد المسيـح

والقديس بطرس ولهذا فهو المفسر الوحيد للكتاب المقدس. وان الديانة المسيحية انما تقوم على الكتاب المقدس (الترجمة اللاتينية التي قام بها القديس جيروم في القرن الرابع) وتقوم ايضاً على قرارات البابوات والمجامع المسكونية. وقرر المجتمعون كذلك ان الحد الادنى لسن الاسقف ثلاثين عاماً ولسن القسيس خمسة وعشرين عاماً. كما حرم زواج رجال الدين وابقى على الاسرار السبعة (التعميد - التثبت - القربان المقدس - التوبة - المسحة الأخيرة - الكهنوت - الزواج) وتقديس صور وتماثيل القديسين. ثم انه اكد على وجوب استخدام اللغة اللاتينية في القداس والاحتفالات ورفض اللغة الوطنية ومذهب القدرية الذي نادى به كالفن وعقيدة الايمان بالتبرير التي نادى بها لوثير. وأخيراً فقد شجب المجمع جميع العقائد البروتستانتية المغايرة للعقائد الكاثوليكية ودعا الى مناهضتها.

ومن خلال قرارات مجمع ترانت نرى ان البابوية قد خرجت منتصرة وذلك لتأكيدها على سلطة البابا العليا ثم لشعور الكاثوليك وعلى الأخص رجال الدين منهم من جديد بالثقة التامة بانفسهم بعد محاولات التشكيك التي مارسها البروتستانت عليهم طيلة نصف قرن من الزمن تقريباً [٤٥]. ولكن قرارات مجمع ترانت قد جسدت الانشقاق بين المذهبين ووضعت حداً لمحاولات التوفيق بينهما بل انها « رسمت خطاً بيناً، عميقاً وواضحاً، فصل بين العقائد الكاثوليكية والبروتستانتية » [٤٦]. بالاضافة الى ان المجمع قد جاء متأخراً وبعد فوات الاوان لأنه عقد بعد ان كان الانقسام المذهبي قد اصبح حقيقة ماثلة. ومن هنا نرى فشل تقدم الكاثوليكية على اثر صدور قرارات مجمع ترانت في البلاد المنخفضة وانكلترا والمانيا وسويسرا... بدليل وقوع حروب الثلاثين عاماً الدينية التي تعتبر من اوسع الحروب الدينية التي وقعت في اوروبا.

ب ـ منظمة اليسوعيين ( الجزويت ) :

كان من اهم الجمعيات الدينية التي ظهرت في اوروبا خلال القرن السادس عشر واسهمت في خدمة الكنيسة الكاثوليكية وحافظت على كيانها ونفثت فيها روحاً جديدة. هي جمعية اليسوعيين (Les jésuites) .

مؤسس هذه المنظمة رجل اسباني عرف باسم اغناطيوس ليولا (Ignatius Lyola) ( ١٤٩١ ـ ١٥٥٦ ) كان محارباً اتجه نحو الصلاة والتأمل الديني بعد ان اصيب بجراح خطيرة في ساقيه في احدى المعارك التي قامت بين شارلكان وفرنسوا الاول. وعكف على قراءة اعمال القديسين وانتقل من اسبانيا الى باريس حيث حصل من جامعتها على درجة الدكتوراه في علم اللاهوت والفلسفة. وخلال اقامته في باريس استطاع ان يرتبط مع بعض زملائه في شبه رابطة تقوم مبادؤها على خدمة الكنيسة الكاثوليكية وطاعة البابا، كما انهم التزموا في حياتهم بثلاثة مبادىء هي التقشف والعفة والطاعة العمياء او المطلقة للبابا. وقد استطاع ليولا ورفاقه ان يحصلوا عام ١٥٤٠ من البابا على مرسوم يرخص لهم باقامة منظمة دينية تحمل اسم جمعية اليسوع اطلق على مؤسسيها فيما بعد اسم اليسوعيين (Les jésuites) وحصلوا منه على اعفاءات ضريبية وقضائية فلا يحاكمون الا امام رجال الدين من طائفتهم، ولا يخضعون لأية سلطة مدنية.

كان تنظيم الجزويت عسكرياً اوتوقراطياً يرأسهم قائد يسمى جنرال ينتخب لمدى الحياة ويتمتع بسلطات واسعة على جميع افراد الجمعية ولكنه يخضع لمراقبة هيئات تتألف الاولى منها من رقيب وستة مساعدين ( يمثلون المانيا ـ فرنسا ـ اسبانيا ـ البرتغال ـ ايطاليا ـ بولندا ) والثانية تتمثل في الجمعية العامة التي تتألف ايضاً من ستة اقسام لكل قسم رئيس يمثل اقليم من الاقاليم الستة المذكورة ولم يكن مجال الدخول الى هذه الجمعية متوفراً لكل فرد. فقد كان على طالب الالتحاق بها ان يمر بعدة مراحل تبدأ في ممارسته رياضة روحية لمدة سنتين ثم تلقي دراسات كلاسيكية لمدة خمس سنوات

وبعدها عليه القيام بالتدريس في مدرسة ثانوية لمدة خمس سنوات واخيراً يتلقى دروسه في علم اللاهوت لمدة اربع سنوات على الاقل. واذا أتم الطالب النجاح في جميع هذه المراحل يرسم قسيساً في جماعة الجزويت. ولا شك بان هذه المراحل التي يتوجب على «اليسوعي» ان يمر بها قد اهلته لأن يكتسب ثقافة دينية عميقة تؤهله للقيام بخدمة الكنيسة ورفع شأنها.

انخرط الجزويت في مهنة التعليم لمكافحة البروتستانتية واسسوا المدارس والجامعات في جميع انحاء اوروبا ومارسوا فيها الوعظ والتعليم بكل صدق واخلاص حتى برعوا في الميدان التربوي واصبحت مدارسهم من انشط المدارس وانجحها في أوروبا. «وقد جاءت خطط التعليم، ومناهج الدراسة التي وضعها الجزويت بحيث تحقق للطالب ثقافة دينية عميقة وواعية، الى جانب ثقافة مهنية تؤهله للمشاركة في انواع النشاط والريادة والقدوة الطيبة»(٤٧).

بلغ من شدة تأثير الجزويت انهم سيطروا على عقول الاجيال الصاعدة وافئدتهم وتفوقوا على علماء النهضة الذين كانوا وقتئذٍ يحتكرون مهنة العلم. وساهموا في الحياة السياسية وشغل بعضهم مناصب كمستشارين للملوك والوزراء مما اعاق تقدم البروتستانتية وانتشارها في أكثر انحاء أوروبا.

لم يكتف الجزويت بالقيام بمهمة التعليم في اوروبا ونشر الكاثوليكية فيها فقط، بل انهم تعدوها الى ما وراء البحار حيث عملوا على نشر المذهب المسيحي الكاثوليكي في انحاء اميركا والشرق الاقصى والجزر النائية(٤٨).

### ج - محاكم التفتيش: L'inquisition

تعتبر محاكم التفتيش من الوسائل السلبية التي لجأت اليها كنيسة روما في حركتها الاصلاحية. ومع ان جذور هذه المؤسسة تمتد الى القرن الثاني عشر عندما أقرها مجمع فيرونا سنة ١١٨٣ ووضع لها الاسس التي بنيت عليها. فان بابوية العصور الوسطى استخدمتها للقضاء على الحركات الدينية الملحدة التي خرجت على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. وفعلاً اشتد عمل هذه المحاكم في

القرن الخامس عشر في اسبانيا عندما بدأت الملكية فيها تستخدمها من اجل تنفيذ اغراضها السياسية وتدعيم سلطانها المطلق في القضاء على جذور المسلمين واليهود الذين كانوا يؤخذون بتهمة « الهرطقة » أو الردة. ولما كان قضاة هذه المحاكم يرشحهم الملوك ويثبتهم البابا بقراراته فقد ظل الدين في اسبانيا خاضعاً للسلطة الزمنية طيلة ثلاثة قرون تقريباً.

لقد نشأت محاكم التفتيش من الناحية النظرية ضد المتهرطقين المسيحيين فقط. ولم تمس في الظاهر اليهود والمسلمين الذين لم يتنصّروا بل ضد المتنصّرين منهم الذين يتهمون بأنهم ارتدوا عن المسيحية. وقد أكّد هذا الامر مراسيم البابوات المتعددة وخاصة المراسيم التي اصدرتها بابوية كلمنت الثالث. التي نصت على عدم القيام بتعميد يهودي ما لم يكن يريد ذلك. كما نصت على عدم قتل أو جرح او مصادرة املاك اي واحد من غير المسيحيين ما لم تسمح السلطات المدنية بذلك. فلليهود حريتهم الشخصية ومدافنهم ورؤسائهم الروحيين ومعابدهم ومدارسهم الدينية التي لا يجب ان يتعرض لها أحد [٤٩].

ومما يجدر ذكره قيام معارضة قوية في عدة مدن منها تولوز، البي، ناربون، كاركاسون ضد محاكم التفتيش في القرن الثالث عشر لم يهدّىء من حدتها سوى تدخل فيليب الجميل، الذي وجد فيها فرصة للتدخل وفرض سلطته الزمنية عليها. مما وضعه بمواجهة البابا بونيفاس الثامن الذي ادان جميع حجج ملك فرنسا [٥٠].

اما في انكلترا فان اجراءات محاكمة جان دارك قد اثبتت مدى استخدام السلطة الزمنية لمحاكم التفتيش. فقد حصل الحكام الانكليز من الكنيسة نفسها على ادانة صريحة بحقها وقد اعلن اسقف بوڤه **(Beauvais)** نفسه عن سلطة الحكام الانكليز المباشرة عندما اعترضت جان دارك على الحكم، مصرحاً « ان الملك قد امر أن اتهمك وقد فعلت ذلك! » [٥١].

لقد شملت التشريعات التي وضعت لهذه المحاكم جميع المسيحيين في اسبانيا. ومع ان هذه المحاكم قد جددت بمراسيم بابوية متعددة منها مرسوم البابا سكستوس الرابع (Sixte IV) الذي صدر سنة ١٤٧٧ الا ان اهم المراسيم التي صدرت بهذا الشأن هو المنشور البابوي الذي اصدره بولس الثالث سنة ١٥٤٢ ايماناً منه باستطاعة هذه المحاكم وأد الحركات الدينية التي من الممكن ان تظهر في اسبانيا قبل ان يستفحل امرها كما حصل في المانيا وسويسرا وغيرها من دول اوروبا. وقد نص فعلاً هذا المنشور على تعيين لجنة من ستة كرادلة يطلق عليها «اللجنة المقدسة» وخولهم سلطات واسعة. فكان لهم الحق في اصدار حكم الاعدام ومصادرة املاك الافراد المتهمين بالهرطقة. «مهما كانت مراكزهم او رتبهم او درجتهم او صدارتهم في المجتمع». وقد اتسعت سلطات محاكم التفتيش في عهد البابا بولس الرابع (١٥٥٥ ـ ١٥٥٩) الذي ينسب اليه القول: «يجب القضاء على الهرطقة بكل شدة وبكل عنف كما يقضي الانسان على الطاعون، لأن الهرطقة هي مرض يصيب الروح. واذا كانت الخرق والملابس الملوثة بالطاعون ترفع من اماكنها وتحرق، فلماذا لا يجب علينا ان نستأصل وان نمحق وان نزيل الهرطقة بنفس الشدة. ان الهرطقة مرض يصيب العقل، وهو أغلى واثمن جزء في جسم الانسان، ولا يمكن مقارنته باي جزء آخر في الانسان»[٥٢].

مارست محاكم التفتيش اعمالها بكل عنف وشدة وباتت تصدر الاحكام الجماعية باحراق المتهمين احياء. بالاضافة الى استخدامها وسائل التنكيل والتعذيب ومصادرة الممتلكات لاكراه المتهم على الاعتراف لكون محاكماتها سرية واحكامها غير قابلة للاستئناف مما جعلها على حد تعبير بعضهم «صورة مفزعة رهيبة استقرت في اذهان الاجيال المتعاقبة واصبح اسم هذه المحاكم مرادفاً لمعاني الاسفاف في الظلم والقسوة وهدر آدمية الانسان».

اما عن وسائل التعذيب التي اتبعتها هذه المحاكم فقد اتى على ذكرها جميع المعاصرين مع ما كانوا يجدونه في حينها من تحريم شديد لوصف عمليات

التعذيب. ويذكر ديورانت عن احدى هذه الوسائل التي كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان بقوله: «وقد توثق يد الضحية خلف ظهرها ويعلق منها أو يربط وثاقه حتى يعجز عن الحركة تماماً، ثم يقطر الماء في حلقه حتى يشرف على الاختناق، وقد تربط يداه ورجلاه بالحبال ربطاً وثيقاً حتى تقطع اللحم الى العظام. ولقد انبئنا ان وسائل التعذيب التي استعملتها محكمة التفتيش الاسبانية كانت اخف مما استخدمته محاكم التفتيش السابقة، او مما توسلت به المحاكم المدنية في ذلك العصر. وكان اهم وسائل التعذيب السجن الطويل الأمد»[٥٣]. وتشير بعض المصادر الأوروبية الى كثرة النفقات التي كان اعضاء محاكم التفتيش والحكام يدفعونها (من مصادرات الأموال والممتلكات) لاضفاء الشرعية على اعمال هذه المحاكم ولتكون عبرة لكل من يفكر في مناوأة السلطة.

جدول بالمصاريف التي انفقت في احتفال جرى في اشبيلية في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٦٢٤ بمناسبة صدور بعض الاحكام بشأن بعض ضحايا محاكم التفتيش.

| | | |
|---|---|---|
| مصاريف عامة | ٢٨٠٧٦ | Maravedis [٥٤] |
| مقاعد | ٣٦٥٥٢ | Maravedis |
| البسة الادانة للمتهمين | ١٧١٣٦ | Maravedis |
| شموع | ٢٣٣٦٦ | Maravedis |
| محامو الدفاع | ٢٦٥٢٠ | Maravedis |
| كلفة بناء المنصات | ٢٦٤٧٢٤ | Maravedis |
| المجموع | ٣٩٦٣٧٤ | Maravedis |

اما احتفالات سنة ١٦٤٨ في نفس المدينة فقد بلغت كلفتها ٨١١٥٨٨ مرافيدس اما في ماجورك فقد بلغت نفقة احتفال سنة ١٦٧٥ ما يساوي مليون وخمسمائه الف مرافيدس[٥٥].

اما عن ضحايا المحاكم فقد بلغت حداً يكاد يوازي ما خسرته المسيحية في حروبها الصليبية المنظمة، اذ بلغت ما مجموعه في مدينة توليدو وحدها بين سنتي ١٤٨٥ و ١٦١٠ ما يزيد عن سبعة الآف انسان. وفي مدينة فالنس ادين بين سنتي ١٤٨٥ و١٥٩٢ حوالى اربعة الآف[٥٦]. ويذكر احد الامناء العامين لمحكمة التفتيش بأن الضحايا بلغوا في اسبانيا بين عامي ١٤٨٠ و ١٤٨٨ ثمانية الآف وثمانمائة احرقوا، وستة وتسعين الفاً واربعمائة وتسعين عوقبوا. اما بين عامي ١٤٨٠ و ١٥٠٨ فقد بلغوا واحد وثلاثين الفاً وتسعمائة واثني عشر احرقوا ومائتين وواحد وتسعين الفاً واربعمائة واربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة[٥٧]. وأهم الصور الحية لاجراءات محكمة التفتيش عند تنفيذ احكامها ويطلق على هذه المناسبة اسم افراح الموت **(Les fêtes de la Mort)** قد سطرها ديورانت بقوله: «كان الاجراء في أول أمره بسيطاً فإن الذين يحكم باعدامهم يقادون الى الساحة العامة، وكانوا يوثقون بأربطة على كومة حطب، بينما يجلس قضاة التفتيش في أبهة على منصة تواجهها، ويطلب للمرة الأخيرة الى المحكوم عليه ان يدلي باعترافه، وتقرأ عليه الاحكام، وتشعل النيران، ويبلغ الفزع منتهاه. بيد ان كثرة الاحراق وفقد بعض سلطانها النفسي، جعل الاحتفال اكثر تعقيداً ورهبة وعني باظهاره بكل اسباب العناية والنفقة، التي يتطلبها اخراج مسرحي كبير. وكان يحدد ميعاده كلما أمكن ذلك للاحتفال بالاعتلاء على العرش او الزواج او الزيارة من ملك أو ملكة او امير اسباني. وكان يدعى موظفو البلديات والحكومة وهيئة محكمة التفتيش والقسس والرهبان المحليون، بل في الواقع كان يطلب حضورهم. وفي أمسية التنفيذ ينضم هؤلاء الاماثل الى موكب كئيب يسير في طرق المدينة الرئيسية ليضع صليب محكمة التفتيش الأخضر فوق مذبح الكاتدرائية أو الكنيسة الرئيسية. وتبذل محاولة أخيرة للحصول على اعترافات المحكوم عليهم، فيستسلم كثيرون منهم، وتخفف احكامهم الى السجن فترة من الزمن او مدى الحياة. وفي الصباح التالي يساق المسجونون وسط الجموع الغفيرة

الى احدى ساحات المدينة. وفيهم الدجالون والمجدفون في الدين والمضارون (المتزوج من امرأتين) والهراطقة والمرتدون. وفي الأيام المتأخرة كان يساق معهم البروتستانت وينتظم الموكب احياناً دمى تمثل المحكوم عليهم غيابياً أو - صناديق تحمل عظام الذين حكم عليهم بعد الموت. وفي الساحة على مدرج مرتفع او اكثر، يجلس قضاة محكمة التفتيش ورجال الدين من قساوسة ورهبان وموظفو المدينة والدولة، يرأسهم الملك بين حين وآخر. وتذاع عظة، يؤمر بعدها جميع الحضور بترديد يمين الطاعة لحكام محكمة التفتيش المقدس وعهد ينكر ويحارب الهرطقة بجميع اشكالها وفي كل مكان. ثم يساق المسجونون واحداً بعد واحد، امام المحكمة، وتتلى عليهم الاحكام الخاصة بهم. ويجب علينا الا نتخيل معارضة باسلة لذلك، وربما كان كل سجين في هذه المرحلة مشرفاً على التلف الروحي والانهيار البدني. بل انه قد ينقذ حياته في هذه اللحظة بالاعتراف. وفي تلك الحالة تقنع محكمة التفتيش بجلده ومصادرة امواله وسجنه مدى الحياة. واذا لم يعترف الا بعد صدور الحكم عليه، فانه يغنم الرحمة بشنقه قبل احراقه، ولما كانت الاعترافات في اللحظة الأخيرة كثيرة، فقد أصبح احراق الاحياء نادراً نسبياً، اما الذين يحكم عليهم بالهرطقة الكبيرة، وينكرون ذلك الى النهاية، يحرمون (وظل ذلك مرعياً الى عام ١٧٢٥) من الكنيسة المقدسة، ويتركون برغبة محكمة التفتيش للجحيم الأبدي. اما الذين تخفف احكامهم فيعادون الى السجن، والذين لم تقبل توبتهم فيدفع بهم الى السلطة المدنية، مع تحفظ وردع بعدم اراقة دم. ويساقون الى خارج المدينة وسط حشود تجمعت من مسافات بعيدة للفرجة على هذا المشهد من مشاهد العطلة. حتى اذا وصلوا الى مكان التنفيذ شنق المعترفون ثم احرقوا بينما يحرق المعاندون احياء. وتظل النيران تغذى بالوقود حتى تصير العظام رمادا، ينتثر على الحقول والجداول. ثم يعود القساوسة والمشاهدون الى مذابحهم ودورهم مقتنعين، بأن قرباناً قدم استعطافاً لإله غاضب من الهرطقة، وهكذا أعيد القربان البشري»[٥٨].

وفعلاً استطاعت محكمة التفتيش ان توقف المد البروتستانتي في كل من اسبانيا وايطاليا الا انها زرعت الهلع في نفوس بروتستانت المانيا وشمال اوروبا وجعلتهم اشد مقاومة لعودة الكاثوليكية حيث ادت الى خروج هولندا من السيطرة الاسبانية. ومما يؤخذ عليها أيضاً انها كانت احدى الوسائل القوية لتثبيت مراكز الحكام الزمنيين الذين استغلوها كاداة لقمع المناوئين السياسيين. وخاصة تلك الطبقات الاجتماعية التي كانت تشعل نار الثورة ضد الاقطاعيين بين فترة وأخرى.

### د - لجنة الثبت: (Congrégation de L'Index)

كانت لجان الثبت التي انشأتها البابوية في القرن السادس عشر احدى الوسائل غير المشروعة التي اتبعتها ضد من ترى في افكارهم وكتاباتهم خطراً على الروح المسيحية ونقاوتها. ومع ان مجمع ترانت لم يتخذ قراراً محدداً بهذا الشأن الا أن البابوية التي فرضت في سنة ١٥١٥ رقابة كاملة على جميع المطبوعات المتداولة في المناطق التابعة لها في ايطاليا، قد الحقت هذه اللجنة بمحاكم التفتيش سنة ١٥٤٣. فمارست رقابتها على المطبوعات بكل صرامة وشدة. وكانت مؤلفات مكيافللي واراسم من ضمن المطبوعات المحرمة والموضوعة على جدول الكتب التي لا يسمح بتداولها او اعادة طبعها.

وفي سنة ١٥٥٩ وضع البابا بول الرابع اولى الفهارس في الكتب المتهرطقة ومن ضمنها مؤلفات لوثير وكالفن وزونغلي وغيرهم من المصلحين الدينيين. وظل البابوات بعد هذا التاريخ يضيفون اعدادا جديدة من الكتب المحرمة التي تظهر تباعاً الى الفهرس طيلة القرن السادس عشر.

وهكذا تحول الاصلاح الكاثوليكي الى مناهضة حركة النهضة. فقيدت المحاكم الدينية الحرية الدينية والعلمية والفلسفية وحرية النقد والنشر في المناطق الكاثوليكية مثل ايطاليا واسبانيا والبرتغال وبلجيكا. فحجبت عن هذه البلاد ليس حرية الكلمة فحسب، بل أيضاً العلوم والاداب والفنون التي أخذت

تتطور في المناطق البروتستانتية التي كانت النهضة الأولى قد تأخر قيامها فيها.

وهكذا على الرغم من نشاط البابوية المتزايد في القرن السادس عشر لوقف التمدد والانتشار البروتستانتي الذي اجتاح اوروبا في تلك الحقبة، الا ان النجاح الذي اصابته الكاثوليكية من خلال تجديد مؤسسات الكنيسة ومواجهة التغيرات المستمرة التي عرفتها العصور الحديثة لم يثمر كثيرا. فظلت اوروبا تنقسم الى عالمين متنافرين احدهما يضم اسبانيا والنمسا والآخر يضم معظم شعوب المانيا واسكنديناقيا والجزر البريطانية عدا ايرلندا. بحيث ان الحروب الدينية الواسعة التي عرفتها اوروبا طيلة ثلاثين عاماً تقريباً لم تستطع وضع حد للانقسام الرهيب الذي اصابها. فظلت اوروبا تعيش حالة الأستعداد للحرب حتى منتصف القرن السابع عشر عندما اتخذ الصراع شكلاً سياسياً مغايراً.

## سابعاً - حروب الثلاثين عاماً الدينية (١٦١٨ - ١٦٤٨)

كانت مشكلة الاملاك الكاثوليكية في المقاطعات البروتستانتية من أهم المشاكل التي عجز صلح اوغسبورغ (١٥٥٥) عن حلها، وذلك للغموض الذي اكتنف بنوده حول هذه المشكلة. ومن جهة ثانية فان الصلح لم ينصف الكلفينيين الذين زاد عددهم في المانيا وسيطروا على مقاطعات عديدة مثل براندنبرغ (Brandenberg) والبلاتين (Platine). فظلت الكلفينية في المانيا لا تجد اي اساس قانوني يمكنها الارتكاز عليه[٥٩]. كما ان الصلح تجاهل حق اختيار الشعب لمذهبه الديني مما اثار الحقد والكراهية في نفوس الاقليات الدينية ضد الحكام في المقاطعات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء.

وازاء حركة الانتعاش التي بدأت تحياها الكاثوليكية في المانيا عن طريق الثورة التي كان يقودها الجزويت بايمان عميق. فقد انشأ البروتستانت من اتباع كالفن ولوثير حلفاً فيما بينهم اطلق عليه الاتحاد الانجيلي سنة ١٦٠٨ مما ادى الى تشكيل حلف كاثوليكي معاكس سنة ١٦٠٩ حصل على تأييد الامبراطور نفسه.

ومع ان حرب الثلاثين عاماً قد اتخذت شكل الصراع الديني، إلا أنه كان للعوامل السياسية والاقتصادية اثر مهم في قيامها. من ذلك مثلاً، ان فرنسا كانت دولة كاثوليكية، ومع هذا فقد دخلت في الصراع الى جانب الدول البروتستانتية. ثم ان مطامع السويد كانت ظاهرة في هذه الحرب، إذ انها هدفت إلى الحصول على السيطرة السياسية والتجارية للساحل الجنوبي لبحر البلطيق إلى جانب سيطرتها على الساحل الشرقي منه. بينما ملك الدانمرك كانت اهدافه السياسية واضحة الى جانب تعصبه المذهبي إذ كان يأمل من دخوله الحرب الاستيلاء على بعض الأراضي الالمانية لينصب ولده ملكاً عليها[٦٠].

بدأت الشرارة الأولى للحرب من بوهيميا وذلك عقب اعتلاء فرديناند الثاني ملك بوهيميا عرش الامبراطورية سنة ١٦١٨. وكان فرديناند احد تلامذة اليسوعيين المتعصبين للمذهب الكاثوليكي فهدم الكنائس البروتستانتية في بوهيميا واخذ باضطهاد الزعماء البروتستانت فيها بعد ان انتزع منهم أكثر امتيازاتهم مفسراً بنود صلح اوغسبورغ من وجهة نظر كاثوليكية محضة[٦١]. فاشتعلت عندها الثورة في براغ واشتدت مقاومة البروتستانت للكاثوليك الذين يعضدهم الجيش الامبراطوري. فاستعان عندها البروتستانت بالاتحاد الانجيلي ونصبوا عليهم حاكم ولاية البلاتين الكلفيني باسم فريدريك الخامس، وبدأت الحرب النظامية بين الامبراطور فرديناند الكاثوليكي يسانده الباب من جهة، وبين فريدريك الخامس ملك بوهيميا الجديد يسانده بروتستانت الحلف الانجيلي من جهة ثانية.

ادت الحرب إلى هزيمة فريدريك الخامس مما ترتب عليه هجرة اعداد كبيرة من بروتستانت بوهيميا وتدفق اليسوعيين اليها بقصد اعادة الكاثوليكية اليها عن طريق المدارس والارساليات التبشيرية التي أنشأتها.

وتبدأ المرحلة الثانية من حرب الثلاثين عاماً بدخول الدانمرك طرف النزاع الى جانب البروتستانت. إذ ان كريستيان الرابع اللوثري المتعصب ادرك في نفس الوقت ان انتصار الكاثوليك سوف يهدد في المستقبل مركزه كامير الماني بصفته دوق مقاطعة هولشتاين[٦٢]. ولكن الامبراطور فرديناند انتصر عليه ووقع معه صلح لوبك (Lubeck) عام ١٦٢٩ تنازل بموجبه ملك الدانمرك عن كل ما يدعيه في الاسقفيات الالمانية (البروتستانتية) مقابل استرداده لاملاكه الوراثية وهي هولشتاين وشلزفيك وجوتلند (Jutland).

على اثر النشوة التي اصابت فرديناند بعد انتصاره على البروتستانت. اصدر مرسوم الاعادة الذي خول فيه الكاثوليك استرجاع جميع الاملاك التي انتزعت منهم بعد معاهدة اوغسبورغ، مما افزع بروتستانت اوروبا وملوك

الدول الكبرى كفرنسا التي رأت في توسع اسرة هابسبورغ خطراً على نفوذها وسلطانها في اوروبا.

كان ملك السويد (غوستاف ادولف) البروتستاني في عداد الملوك الذين ارهبهم توسع فرديناند. اذ ان قيام اتحاد الماني كاثوليكي قوي على شواطىء البلطيق سوف يشكل خطراً على التجارة السويدية في هذا البحر. وهكذا عزم ملك السويد على دخول الحرب بعد ان أمدّه ريشليو رئيس وزراء لويس الثالث عشر بالمال. ووقع معه معاهدة تعاون سنة ١٦٣١ في باروالد (Barwald).

احرز غوستاف انتصاراً باهراً على جيوش الامبراطور الالماني بمساعدة بروتستانت المانيا في معركة ليبزيغ (Leipzig) عام ١٦٣١. ولكنه ما لبث ان توفي في احدى المعارك سنة ١٦٣٢ مما مكن الامبراطور من تنظيم صفوف جيشه واستعادة هيبته بعد ان جعل قيادته لابنه. وهكذا احرزت قوات الامبراطور انتصاراً ساحقاً على السويديين في معركة نوردلنجن (Nordlingen) عام ١٦٣٤. وترتب على هزيمة السويديين ان عقدت الولايات البروتستانتية صلحاً مع الامبراطور تمّ بموجبه الغاء أكثر بنود «مرسوم الاعادة».

كانت انتصارات الامبراطور الالماني على السويديين تشكل خطراً واضحاً على فرنسا ومطامحها التوسعية في القارة كما تشكل في نفس الوقت اختلالاً في التوازن الدولي الذي كانت تحرص عليه دول اوروبا الكبرى. اذ ان ممتلكات اسبانيا قد احاطت بفرنسا من منطقة ميلانو الى فرانش - كونته ومن هذه الى هولندا مما يهيء لها بالتالي موقعاً عسكرياً مهماً على ابواب فرنسا الشمالية يهدد معه ليس احلام فرنسا التوسعية فحسب، بل الاراضي الفرنسية نفسها. لذلك اصبح «ضرب الطريق العسكرية المؤدية من اسبانيا إلى ايطاليا الشمالية الى فالتلين، إلى الالزاس، ضرورة ملحة وحيوية»[٦٣].

ومع ذلك فان ريشليو لم يتدخل مباشرة في الحرب لأن النفوذ الأكبر كان لملك السويد المنتصر اما الآن وقد هزمت السويد فقد اصبحت الطريق ممهدة لفرض النفوذ الفرنسي. فعقد معاهدات ود وصداقة مع هولندا والسويد وانكلترا وسويسرا وبعض الامراء الالمان. واعلن الحرب سنة ١٦٣٥ بعد قطع علاقته السياسيّة بملك اسبانيا وامبراطور المانيا. مما يبرر الوضع السياسي لحرب الثلاثين عاماً الدينية. ورغم هزيمة القوات الفرنسية السويدية المتحالفة في المعارك الاولى التي دارت بين الطرفين إلا ان الفرنسيين ما لبثوا ان استعادوا نشاطهم الحربي بموت فرديناند الثاني وتولي ابنه العرش باسم فرديناند الثالث (١٦٣٧ - ١٦٥٧) فاستولى الفرنسيون سنة ١٦٣٩ على الالزاس وبعض مناطق الرين الاعلى. وعلى الرغم من وفاة ريشليو (١٦٤٢) فالسياسة الفرنسية التي اصبح يسيرها مازاران (Mazarin) تلميذه من بعده، لم تتغير ازاء آل هابسبورغ. واستطاعت الجيوش الفرنسية فعلاً ان تحرز انتصارات باهرة على يد القائدين الشهيرين كونده (Condé) وتورين (Turenne) وعلى هذا فقد وجد فرديناند الثالث ضرورة التفاوض بشأن عقد صلح بين الاطراف المتنازعة.

### أ - سلام وستفاليا: (Westphalie)

استمرت مفاوضات الصلح التي جرت في وستفاليا من سنة ١٦٤٣ حتى سنة ١٦٤٨ وكان من اهم شروطها:

١: المساواة بين الكاثوليك والبروتستانت بمن فيهم اتباع كالفن وتحقيق الحرية الدينية في جميع انحاء الامبراطورية مع احتفاظ كل من الكاثوليك والبروتستانت بما كان في ايديهم من املاك كنسية منذ عام ١٦٢٤ مع الاحترام الكامل لصلح اوغسبورغ.

٢: ان تمتلك فرنسا أسقفيات متز (Metz) عاصمة اللورين وتول (Toul)

وفردن (Verdun) والالزاس (الذين اغتصبتهم فرنسا منذ سنة ١٥٥٢) ما عدا العاصمة ستراسبورغ.

٣ : ان تحصل السويد على اسقفيات بريمن (Bremen) وفردن (Verden) وان تحتفظ بالجزء الاكبر من بوميرانيـا حتى مصب نهر الاودر (Oder) مما حقق لها السيادة على بحر البلطيق من جهة وعضوية مجلس الديت الالماني ممثلة بثلاثة اصوات من جهة ثانية.

٤ : ان تستولي براندبرغ على بوميرانيا الشرقية.

٥ : ان تحتفظ بافاريا بالبلاتينات العليا.

٦ : الاعتراف باستقلال سويسرا وهولندا.

**ب ـ النتائج السياسية لسلام وستفاليا:**

توصل صلح وستفاليا الى وضع حد للحروب الدينية التي شهدتها اوروبا طيلة قرن من الزمن وادى إلى نهاية عصر عرف بعصر الاصلاح الديني. اما النزاعات الدولية التي شهدتها اوروبا بعد صلح وستفاليا فقد اتخذت صبغة سياسية قومية وهي النزاعات التي قامت بين السويد وبولندا ثم حروب لويس الرابع عشر التوسعية التي انتهت بمعاهدة اوترخت.

ويمكن تلخيص نتائج هذه الحروب كما يلي:

١ ـ ادت حروب الثلاثين عاماً الى تهديم كيان المانيا سياسياً. فقد اصبح شمالها وشرقها بروتستانتياً خالصاً بينما بقي الجنوب على كاثوليكيته. وعلى هذا الاساس اصبح المجلس الامبراطوري يتكون من مجموعة متساوية من الولايات البروتستانتية والكاثوليكية مما افقد الحكومة المركزية سلطانها المعنوي والمادي على اكثر المقاطعات الالمانية. فالصلح اكد استقلال الشؤون الخارجية لكيان ثلاثمائة وخمسين ولاية. هذا الاستقلال اتاح الفرصة لتمكين قبضة الامراء الذين حافظوا على هذه التجزئة التي ادت الى تأخر قيام الوحدة الالمانية طيلـة أكثر من قرنين من الزمن. يذكر حسن صبحي بهذا الصدد: «وعلى ذلك

يميز صلح وستفاليا نهاية لتلك الاحلام التي راودت مكسميليان الاول وشارل الخامس التي كانت تدور حول اصلاح وتوحيد الامبراطورية، وهي احلام حاول ايضاً الامبراطور فرديناند الثاني جعلها حقيقة ابان حروب الثلاثين عاماً. وهكذا صارت الامبراطورية اتحاداً مفككاً من ولايات كثيرة العدد، ولم تعد الامبراطورية ـ رغم انها بقيت إلى اوائل القرن التاسع عشر ـ زعيمة العالم المسيحي ولو اسمياً»(٦٤).

٢ ـ حصلت السويد من هذه الحرب على اهدافها السياسية بسيطرتها على بعض المناطق التي هيأت لها السيادة في بحر البلطيق. كما انها اصبحت عضواً في مجلس الديت الالماني ممثلة بثلاثة اصوات.

٣ ـ اما فرنسا فقد خرجت ظافرة من هذه الحرب اذ حصلت بموجب معاهدة الصلح على مقاطعات المانية غنية. وسمعة عسكرية عالية حققها بعض قادتها اثناء سير المعارك. واننا سوف نلمس مباشرة مدى اهمية الدور الذي ستلعبه فرنسا في تاريخ القارة الاوروبية الحديث. منذ عهد لويس الرابع عشر وذلك بعد ان تحقق الحلم الفرنسي بفك عرى التحالف بين أسرتي الهابسبورغ النمساوية ـ الاسبانية اللذين كانا بمثابة فكي الكماشة تضغط بها الاسرتان على فرنسا منذ تأسيس الامبراطورية الرومانية المقدسة.(٦٥).

٤ ـ لقد كان تأثير صلح وستفاليا كبيراً على اسبانيا. اذ ان هذه الدولة بدأت تشهد منذ تاريخ الصلح ازمات اقتصادية وسياسية حادة. مما يعود الى تكاليف الحروب الدينية التي ارهقت موارد البلاد وأخّر نمو التوسع الاسباني في العالم الجديد.

٥ ـ اما بالنسبة لهولندا فان الصلح الذي قدم لها اعترافاً رسمياً بالاستقلال، ادى إلى انتعاش التجارة الهولندية وبات السوق الهولندي مركزاً رئيسياً للعمليات التجارية العالمية التي كانت تحصل في ذلك الوقت.

٦ ـ اما ايطاليا التي كانت مركزاً اقتصادياً وحضارياً مهماً في اوروبا

فقد عطلت الحروب الدينية مركزها واضحت منذ هذا التاريخ مجزأة سياسياً واقتصادياً طيلة اكثر من قرنين من الزمن.

٧ ـ ادت الحروب الدينية ايضاً الى تأكيد وحدة المذاهب المعارضة للكاثوليكية المؤلفة من ارثوذكس روسيا والقسطنطينية إلى الكلفينيين واللوثريين رغم بعض الخصومات المحلية التي ظلت تتحكم بين الطرفين اللوثري والكالفيني.

## ج- النتائج الاجتماعية للحروب الدينية:

لقد خلفت الحروب الدينية التي شهدتها اوروبا الدمار في جميع المناطق التي حلت فيها. هذا الى جانب التغيرات الديموغرافية التي احدثتها بين سكان القارة الأوروبية. فقد ازدادت عمليات الهجرة والتهجير على اثر كل انتصار أو هزيمة تحصل لهذا الفريق او ذاك. اذ كثيراً ما كان انتصار فريق على آخر يؤدي إلى هجرة الفريق المهزوم إلى اماكن كان ينتمي اليها مذهبياً. وتشير الاحصائيات التي قدمت في هذا الشأن إلى اهمية الموضوع. فقد هاجر من النمسا اوائل القرن السابع عشر حوالى احد عشر الفاً كما طرد من منطقة بوهيميا بعد سنة ١٦٤٧ حوالى مائة وخمسين الف انسان يشكلون حوالى ستة وثلاثين الف عائلة. وقد صرح الامبراطور فرديناند الثاني في هذا الشأن قائلا: « انني افضل ان اسود الصحراء من ان اكون ملكاً على متهرطقين » (٦٦).

عدا عن ان هذه الحروب قد فتكت باعداد هائلة يكاد يصعب تحديدها. فانها نشرت الامراض الوبائية التي حصدت مدناً وقرى باكملها. كما ارتفعت نسبة الوفيات حتى بلغت هذه النسبة في مدينة ارفرت (Erfurt) مثلاً سنة ١٦٣٢ حوالى ٦٢,٥٪ مقابل نسبة ضئيلة من الولادات لا تزيد عن ٣٨٪. هذا بالاضافة إلى ان معظم الولادات كانت غير طبيعية نتيجة لسوء التغذية وارهاق السكان بتقديم الاطعمة للجيوش المتحاربة (٦٧). لذلك فقد ارتفعت

اكلاف المعيشة لقلة المواد الغذائية وتدنت العملات المحلية لاختفاء الفضة. هذا بالاضافة إلى تدمير القطاع الزراعي الذي كان يشكل حتى هذا التاريخ عماد الاقتصاد الاوروبي.

أما عن الدمار الذي احلته هذه الحروب فانها اتت على مدن باكملها. بالاضافة إلى الابنية والقصور والكنائس المنتشرة في امكنة الحرب. ففي مقاطعة براندبرغ وحدها التي احصي فيها ٦٣٧ قرية تهدم منها كلياً نحو ٤٠ قرية و ٦٨ أخرى ضربها الدمار بشكل جزئي[٦٨].

## هوامش الفصل الرابع

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء (٢٢) ص ٦٩

(٢) المرجع السابق ص ٧٣

(٣) المرجع السابق ص ٧١

(٤) س. درسدن: الحركة الانسانية والنهضة ترجمة عمر شخاشيرو. منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٧٢ ص ٨٥.

(٥) رولان موسينيه: تاريخ الحضارات العام الجزء الرابع ص ٧٧.

(٦) LORTZ, J: La Reforme de Luther éd. CERF. Paris 1970 t 1. p. 190.
من المفيد ايضاً الاطلاع على مقالة تريفور روپر، اراسم في اصول النهضة الاوروبية... مجلة الواقع العدد الثاني تموز ١٩٨١ ترجمة الياس مرقص.
اما حول محاربة محاكم التفتيش لاتجاهات اراسم انظر: TREVOR-ROPER. H. R.: de la Réforme aux Lumières. éd. Gallimard Paris 1972 P. 25.

(٧) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٠) ص ٢٨٥.

(٨) رولان موسينيه: تاريخ الحضارات العامَ الجزء الرابع ص ٧١.

(٩) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٢) ص ٥٠.

(١٠) FEBVRE. L. Un destin Martin Luther. Colleċtion Hier Paris 1968 P. 52.

(١١) لم يكن لوثير يزعم في بيانه انه يضع مشروع عقيدة جديدة بقدر ما أراد أن يوضح ان الله وحدة هو الذي يغفر للناس. راجع STAUFFER. R. La Réforme. Que Sais-je? No. (1376) Paris 1974 P. 18.
وللمزيد من الشروحات حول بيان لوثير انظر. LORTZ. J.: op. cit. t 1. P. 286

(١٢) ف. انجلز: حرب الفلاحين في المانيا ترجمة لطفي فطيم وقدري حفني دار الثقافة الجديدة القاهرة ١٩٧٠ ص ٤٤ وللتوسع في معرفة احوال المانيا السياسية والاجتماعية على ابواب القرن السادس عشر. انظر FEBVRE. L.: Op. cit. P. 63.

(١٣) اي حوالي ٥ مليون دولار تقريباً في الوقت الحاضر وهو مبلغ مرتفع جداً بمقياس تكاليف ذلك العصر.

(١٤) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٤) ص ٢٩.

(١٥) المرجع السابق ص ٣٢.

(١٦) للمزيد من التفاصيل انظر عبدالعزيز الشناوي. اوروبا في مطلع العصور الحديثة. دار المعارف بمصر ١٩٦٩ ص ٣٨١.

(١٧) ف. انجلز: المرجع نفسه ص ٧٦.

(١٨) LORTZ. J.: La Reforme de Luther t. I P. 456.

(١٩) انجلز: المرجع نفسه ص ٢٠١.

(٢٠) COURVOISIER. J. Zwingli, théologien réformé. éd. DELACHUX et NIESTLÉ O. Génève 1965 P. 13.

(٢١) حول العلاقة بين الكنيسة والدولة كما جددها زونغلي انظر المرجع السابق: P. 85. للمزيد من التفاصيل عن حركة زونغلي انظر عبدالعزيز الشناوي: مرجع مذكور ص ٤٢٠ وما بعدها.

(٢٢) ولد كلفن في بلدة نويون (Noyon) الفرنسية حيث كان يسيطر عليها رجال الدين. وكان ابوه سكرتيراً للأسقف ويشرف على الاعمال المالية للمقاطعة. والتحق كلفن بجامعة باريس ليتلقى فيها دراسات لاهوتية ثم انتقل الى اورليان لدراسة القانون الروماني وعندما عاد الى باريس عكف على دراسة الاداب الكلاسيكية ووضع مقالاً باللاتينية عن سينيكا الفيلسوف والخطيب الروماني (٤ ق. م ٦٥ م) ومقالاً آخر عن التعاليم الانجيلية وقد قبض عليه مراراً واطلق سراحه فالتجأ الى بـال التي وضـع فيهـا كتابه «مبادىء الدين المسيحي» الذي طبقت شهرته العالم.
STAUFFER. R.: La Reforme. P. 79.

(٢٣) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٤) ص ٢١٢.

(٢٤) كان المجلس الحقيقي لمدينة جنيف يتكون من خمسة وعشرين عضواً يختارهم مجلساً اكبر متكون من مائتي عضو وكان المجلس الأكبر هو الذي طرد اسقف جنيف ودوقها واعلن اعتناق المدينة لعقيدة الاصلاح الديني قبل وصول كالفن اليها. حول تنظيم الكنيسة الكلفينية في جنيف انظر: STAUFFER. R.: Op. cit. P. 90.

(٢٥) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٤) ص ٢٣٤.

(٢٦) اشتقت لفظة الهيغونوت الفرنسية (Huguenots) من الالمانية Eidjenossen ومعناها «الرفاق المتعاهدون» وهم الذين طالبـوا بعقـد تحالـف بين جنيـف ومقـاطعـة بـرن السويسرية على اساس اعتناق سكان المدينتين للمذهب البروتستانتي.

(٢٧) للمزيد من التفاصيل حول انتشار الكلفينية انظر فيشر: اصول التاريخ الاوروبي الحديث في عدة امكنة. ودلماس تاريخ الحضـارة الاوروبيـة. تـرجمة تـوفيـق وهبـه. منشورات عويدات ١٩٧٠ ص ٥١ وما بعدها.

(٢٨) كتب هنري يدافع عن سلطة البابا قائلاً: «اي ثعبان سام يصل الى درجة من يصـف سلطة البابا بأنها مستبدة؟... واي جارحة من جوارح الشيطان تحاول ان تمزق اعضاء المسيح وتفصلها عن رأسها... فالكنيسة بأسرها ليست رعية للمسيح فحسب... بل لكان المسيح الوحيد، بابا روما». انظر ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٥) ص ٧٣.

(٢٩) الجبللين هم انصار الامبراطوريـة اثنـاء الصراع بين الامبراطـور والبـابـا في العصـور

الوسطى. للمزيد. انظر: POULET. E.: Papauté. Guelfs et Gilelins 2 vol Paris 1922 .

(٣٠) فيشر: المرجع نفسه ص١١٣.

(٣١) ول ديورانت: قصة الحضارة. الجزء (٢٥) ص ٩٨.

(٣٢) المرجع السابق ص ٩٨.

(٣٣) كان توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) من اشد القائلين في وجوب اصلاح الكنيسة دون الخروج عليها. مارس القانون واختير سنة ١٥٠٤ نائباً بوصفه مواطناً حراً. امتاز بموقفه الصارم ضد الحكم المطلق وكتب «تاريخ ريتشارد الثالث» الذي نشر بعد وفاته. كما اشتهر بمؤلفه المعروف «يوتوبيا» او «المدينة الفاضلة». رفض توماس مور الموافقة على زواج هنري بآن بولين كما رفض جميع القوانين التي استصدرها المجلس النيابي المناهضة للكنيسة. وعندما رفض ان يحلف اليمين على قانون الوراثة وما تضمنه قانون السيادة لكونه ينطوي على انكار لسيادة البابا على كنيسة انكلترا، حكم عليه بالخيانة سنة ١٥٣٥ وأعدم. فاهتزت اوروبا باجمعها لموته.

(٣٤) لقد أغلق هنري الثامن حوالى ٥٧٨ ديراً للرهبان و ١٣٩ ديراً للراهبات كانت تضم ٦٥٢١ راهباً و ١٥٦٠ راهبة.

(٣٥) من المفيد الاطلاع على مختلف الآراء التي عالجت حركة الاصلاح الديني التي تمت في فرنسا عند عبد المجيد نعنعي: اوروبا في بعض الازمنة الحديثة والمعاصرة. دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٨ ص ٨٠ وما بعدها.

(٣٦) قارن MOURS. S.: Le Protestantisme en France au XVIe siècle. Paris 1959.

(٣٧) عبد المجيد نعنعي: المرجع نفسه. ص٨٣.

(٣٨) هي المعاهدة التي اختتمت بها الحروب الايطالية التي حصلت بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة على النفوذ والسلطة داخل اوروبا بشكل عام وايطالية بشكل خاص. وتعتبر هذه المعاهدة اول تسوية عامة اوروبية في التاريخ الحديث. وأهم بنودها.
١) تنازل فرنسا عن كل ادعاءاتها في شبه الجزيرة الايطالية:
٢) الابقاء على الاحتلال الفرنسي للاسقفيات الثلاث وهي متز وتول وفردان.
٣) احتفاظ فرنسا لمدة معينة بثغركاليه الذي استولت عليه من انكلترا.
انظر نقد المعاهدة عند عبد العزيز الشناوي: اوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ٢٩٦ وما بعدها.

(٣٩) من أهم الكتب التي وضعت حول سيرة كاترين:
ROMIER. L.: Le Royaume de Cathérine de Médicis: La France à la veille des guerres de religion, 2 vol. Paris. 1922.

(٤٠) للمزيد من التفاصيل حول الحروب الدينية في فرنسا انظر: LAPEYRE. H.: Les

Monarchies Europeennes du XVI e siècle (Nouvelle CLIO) Paris 1973. P. 179.

(٤١) فيشر: المرجع نفسه ص ١٩٦.

(٤٢) نور الدين حاطوم: عصر النهضة الاوروبية. دار الفكر الحديث بيروت ١٩٦٨ ص ٢٥٧.

(٤٣) للتوسع في معرفة اصلاحات هنري الرابع انظر: MARTIN. M. M.: SULLY Le Grand. Paris 1960.

(٤٤) للمزيد من التفاصيل حول اختيار موقع مجمع ترانت انظر:

JEDIN. H.: Histoire du Concile de Trente. t. I, P 481. Paris 1965. DESCLEE.

يذكر المؤلف ان توجهات فرنسوا الاول والبابا ضد انكلترا قد دعمت من تأييد فرنسوا الاول للمؤتمر P 446.

(٤٥) يؤكد JEDIN. ان المجامع الدينية التي سبقت ترانت كانت تؤدي الى توجيه سير الاحداث بشكل كان يتدعم معها بتزايد موقف البابوات الذين اصبحوا سادة اوروبا دون منازع. الا ان حلم البابا قد تبدد اثناء مجمع ترانت من توجيه قرارات المجمع وتوحيد الصف المسيحي وذلك لرفض الدويلات البروتستانتية المشاركة في اعمال المجمع. انظر JEDIN. H.: Op. Cit. t. I P 444.

(٤٦) فيشر: مرجع مذكور ص ١٧٠.

(٤٧) عبد العزيز الشناوي: مرجع مذكور ص ٤٩٢.

(٤٨) للتوسع في معرفة مدى نجاح اليسوعيين في حركة التبشير انظر عبدالعزيز الشناوي مرجع مذكور ص ٤٩٣ وما بعدها.

(٤٩) GUIRAUD. J.: L'Inquisition Medlévale. Tallandier Paris 1978. P. 193.

(٥٠) Ibid. P. 207.

(٥١) Ibid. P. 238.

(٥٢) عبد العزيز الشناوي: المرجع نفسه ص ٥٠٨.

(٥٣) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٣) ص ٨٢.

لمعرفة طرق التعذيب التي اتبعتها محاكم التفتيش انظر: KAMEN. H.: Histoire de l'Inquisition espagnol. Albin Michel Paris 1966 P. 184.

(٥٤) عملة اسبانية تساوي ربع بنس انكليزي فاذا كانت ذهبية بلغت قيمتها ١٤ شلناً. للمقارنة: كان خراج الدولة الاسبانية على جميع املاكها عام ١٤٧٤ يبلغ ٨٨٥ الف ميرافيدس.

(٥٥) KAMEN. H.: Op. Cit. P. P 206 - 207.

(٥٦) Ibid: P. 298.

(٥٧) ول ديورانت: قصة الحضارة جزء (٢٣) ص ٩٠.

(٥٨) المرجع السابق الصفحتان ٨٤ و ٨٥.

(٥٩) حول وضع الكلفينيين في المانيا انظر: جلال يحي وجاد طه: معالم التاريخ الاوروبي الحديث. منشأة المعارف الاسكندرية. ١٩٧٤. ص ٢٣٠.

(٦٠) LIVET. G.: La Guerre de Trente ans. (Que sais-je?) No. 1083. Presses Universitaires de France. Paris 1972. P. 26.

(٦١) رولان موسينيه: تاريخ الحضارات العام المجلد الرابع. ص٢٣٧.

(٦٢) انظر عبد المجيد نعنعي: مرجع مذكور ص١٠٨.

(٦٣) رولان موسينيه: المرجع نفسه ص٢٤٠ أيضاً LIVET. G.: Op. Cit. P. 37.

(٦٤) حسن صبحي: اوروبا من فتح القسطنطينية حتى قبيل الثورة الفرنسية. مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٩٦٧. ص١٠٦.

(٦٥) كانت الامبراطورية الرومانية المقدسة تتكون من مناطق عديدة منها: في ايطاليا: دوقية ميلان وسافوي وبارما ومانتوا ومودن. وفي الشرق: من بوهيميا ومورافيا وسيليزيا التي يعتبر ملكها احد امراء الامبراطورية المنتخبين. وكذلك من بورغونيا والبلاد المنخفضة ومقاطعة فرانش ـ كونته بالاضافة الى مجموعة الكنتونات السويسرية.

(٦٦) LIVET. G.: Op. Cit. P. 53.

(٦٧) Ibid: P. 51.

(٦٨) Ibid: P. 56.

# الفصل الخامس

# أوْجُ النّظام المُطْلق

## اولاً - الحق الالهي للملوك بين النظرية والتطبيق

اخذ مفهوم الدولة، منذ بداية عصر النهضة يتوطد ويترسخ عملياً استجابة للظروف والمتغيرات الاساسية التي طرأت على هذا العصر، وذلك على قاعدة رسوخ الحكم الملكي وانهيار الارستقراطية الاقطاعية. وكانت المؤسسات الملكية، اذا صح التعبير، تعمل على ارساء قواعد هذا التغيير، خاصة في كل من فرنسا وانكلترا واسبانيا. وكانت المجالس الاستشارية التي انشأها الملوك تلعب دوراً عظيماً في هذا الشأن. وقد ادت الحروب المستمرة في اوروبا الى قيام الجيوش الملكية التي اصبحت انتصاراتها وهزائمها العسكرية فيما بعد صورة حية ومعبرة عن النصر او الهزيمة (القومية) في اوضح معانيها. كما اصبحت واردات الدولة من املاكها التي اخذت تستغلها وتصونها والضرائب المفروضة هي القاعدة الاقتصادية الاساسية للميزانية التي على اساسها اخذت المشاريع العامة تحظى بقبول لا نظير له عند العامة. وقد اخذ الناس يشعرون بقبضة الدولة القوية ليس من خلال الصلاحيات التي كانت تعطى لمجلس الخزينة ومدققي الحسابات الذين كانوا يطلبون من الجباة الحسابات الدقيقة فحسب، بل من عدالة الدولة المتمثلة في قضائها ومجالسها التمثيلية المتعددة.

وهكذا خيّمت سطوة «الدولة» على كل رعاياها بمن فيهم النبلاء انفسهم الذين اودت بسيطرتهم النزاعات القومية كحرب المائة عام[1] والنزاعات المحلية (كحرب الوردتين في انكلترا) والتغيرات الاقتصادية الهائلة التي

عرفتها القارة منذ اوائل القرن السادس عشر. اما الأكليروس فقد اضحى بعد حركة الاصلاح الديني اداة مشلولة بيد البابوية بالنسبة لهيمنة السلطة الزمنية، كما ان سلطة الملوك لم تتوطد فعلياً في اوروبا في هذا الوقت إلا بعد ان نجحت في فرض هيبتها على المدن التي كانت تتمتع ببعض الامتيازات وخاصة مدن الاراضي المنخفضة التابعة لبورغونيا.

لقد تطلعت اذن جميع الملكيات الأوروبية منذ مطالع عصر النهضة نحو الحكم المطلق أو الاستبدادي. ولتحقيق ذلك كان لا بد للملك ان يجسد في شخصه المثل الوطنية وان يتمتع بجميع مؤهلات السلطة العليا ومقوماتها وصلاحياتها: كحق التشريع وسن القوانين، وحق اقامة العدل، واشاعته بين الناس، وفرض الضرائب وجبايتها، وتجييش الجيوش وتكتيب الكتائب الحربية، وتعيين الموظفين، وانزال القصاص الصارم بمن يتطاولون على المصلحة العامة، ولا سيما من يتعرض منهم للسلطة الملكية وذلك بفضل ما يتمتع به من ولاية وصلاحية صادرتين عن سلطانه لقاض اعلى «وقد جاءت فكرة الملكية المطلقة ترفد دون ان تمسها او تنتقص منها بشيء، مفهوم المواثيق والاعراف التي تحدد الروابط التي شدت اصحاب الاقطاعات ورعاياهم إلى الملك»[٢].

هل تحققت عند ملوك اوروبا فعلاً هذه الصفات حتى استطاعوا ان يمتلكوا السلطة دون منازع؟ الحقيقة ان قوة ملوك اوروبا تفاوتت بحسب الظروف والمتغيرات الاجتماعية والسياسية. فملوك فرنسا مثلاً، ظلت قوتهم تزداد على مر الزمن منذ عهد هنري الرابع (١٥٨٩ - ١٦١٠) حتى عهد لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩١) يرث فيها الابن عن ابيه كل ما حققه في هذا المجال. وكذلك فعل ملوك اسبانيا إلا ان ملوك انكلترا اصطدموا قبل غيرهم بقوة البورجوازية الانكليزية النامية قبل نهاية القرن السابع عشر فقضت على استبدادية الملكية فيها، كما قضت بعد مائة عام تقريباً الثورة الفرنسية على استبدادية ملوك البوربون.

ما هي اذن المقومات الاساسية التي اعتمدت عليها الملكية عبر التاريخ لتصبح استبدادية؟.

**١ ـ المفهوم القديم:**

لقد اكدت الحقوق الرومانية القديمة التي استعيدت في القرن السادس عشر عبر اقبال الانسانيين على احياء التراث القديم، على فكرة الاستبداد الملكي الذي كان الرومان يعتبرون مشيئته هي القانون بحد ذاتها. اليس الامبراطور نصف اله خيّر بنظرهم؟. هكذا كان الاعتقاد القديم بالسلطة السياسية يصل حتى القداسة.

**٢ ـ العامل الديني:**

صحيح ان البابوية جهدت طيلة العصور الوسطى لاحلال السيطرة الروحية بدل السيطرة الزمنية. إلا ان ملوك اوروبا بعد هزيمة الكنيسة امام الانتشار البروتستانتي الواسع قد جعلت ملوك أوروبا بما توفر لديهم من قوة يرغمون الكنيسة على الاعتراف بهم اسياداً في بلدهم. كما فعل هنري الثامن في انكلترا وكما فعل ملك فرنسا عندما فرض معاهدة سنة ١٥١٦ التي اعترفت له بحق انتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار على ان تتم سامتهم من قبل البابا، وبموجب الحق الذي كان يدعيه الملك لنفسه كان يتقاضى ريع الاسقفيات والاديار الشاغرة. لعدم وجود رئيس شرعي لها. وكان مجلس الملك يشرف على ادارة الكنيسة كما ان مجالس الممثلين الملكيين كانوا يخضعون رجال الاكليروس لاختصاص المحاكم الملكية. كما كان من حقهم ان يحرموا الكنيسة من حق النظر في معظم القضايا التي يتقدم بها الشاكون، مع العلم ان برلمان باريس كان يتولى ضبط الأمن ويتعهد النظام في الكنيسة »[٣].

**٣ ـ الصراع الطبقي:**

لقد ادى الصراع الطبقي المتمثل بالارستقراطية الاقطاعية والبورجوازية الناشئة الى ازدياد قبضة الملكية التي مثلت العنصر المتقدم امام الاضطراب

والفوضى اللذين سادا اوروبا. وعلى الرغم من الهزات الاجتماعية والاقتصادية المتعددة التي تعرضت لها الأرستقراطية الاقطاعية بين فترة وأخرى فقد ظلت تحتفظ بالمقام الأول في التسلسل الاجتماعي في المجتمعات الأوروبية. إلا أنها فقدت بدون شك المميزات الاساسية التي كانت تمتلكها في العصور الوسطى.

وهكذا توصلت انطلاقة البورجوازية وما رافقها من تطور علمي هائل إلى تحطيم الاخلاقية الاقطاعية ونظامها الاقتصادي ليمكّن بالتالي القوة الثالثة (الملكية) من فرض سيطرتها الكلية على المجتمع ويصور سوتشكوف هذا الصراع بقوله: «كان الناس في بدء العصر الجديد [النهضة] قد كرسوا مقداراً كافياً عن التجربة في شروط الغاء نظام علاقات الملكية الخاصة: كان السادة الاقطاعيون الاشراف الذين يخضعون لنيرهم الاقنان، ينحنون هم انفسهم تحت نير الحكم المطلق. وكانت الثروات المكدسة من قبل الخزينة الملكية تنتقل على وهل إلى خزائن اصحاب المصارف والمرابين. فكان آل فوجير مثلاً يتمتعون بنفوذ لا يقل عن نفوذ بعض الرؤوس المتوجة. وكانت البرجوازية تشن كفاحاً ضارياً ومستمراً ضد طبقة النبلاء، لكي تحصل الاولى على مكان لها تحت الشمس. وكانت جماعات غفيرة من المغامرين تجتاز المحيطات بحثاً عن الذهب الذي كان قد اصبح معياراً للفضيلة والرذيلة، للحرية والسعادة»(٤).

ولما كانت الملكية ما تزال بحاجة للمساندة في القرن السادس عشر، فقد اخذت تستند الى بورجوازية المدن لتحطيم سلطان الاقطاعية. فكان لويس الرابع عشر يختار اكثر مستشاريه ومساعديه من رجال القانون البورجوازيين. كما رفع إلى طبقة النبلاء بعضهم وجعل منهم اسياداً اطلق عليهم اسماء الاراضي التي امتلكوها. وكان الملوك يستلفون الأموال الطائلة ويتقبلون هداياهم وهباتهم مقابل تيسير اعمالهم التجارية وتكليفهم جباية الرسوم والعوائد الملكية. وحمايتهم لهم من احتجاج الكنيسة على الربا. ومقابل وقوف

الملوك الى جانبهم ضد العراقيل التي كان الامراء يثيروها ضدهم بوجه الملوك [٥].

## ٤ ـ المفهوم القومي:

لقد غدت الملكية منذ القرن الخامس عشر الممثلة الحية للشعور الوطني. فالملك صاحب السلطة الأولى، مسؤول عن البلاد ضد مطامع الدول وضد الغازي المستبيح. كما ان موظفيه يحرصون على المصلحة العامة وشؤون الناس الذين تربطهم ببعضهم مصالح اقتصادية وروابط عائلية ووشائج وطنية وان كانت في حدود ضيقة يجسّدها ملكية قوية تقضي في الخلافات وتأخذ جانب الحق في الفصل فيها. لنقرأ ما كتب انجلز في هذا المعنى: «تتقوى السلطة العامة بمقدار ما تتفاقم التناقضات الطبقية في داخل الدولة وبمقدار ما تزداد الدول المتلاصقة مساحة وسكاناً. انظروا على الاقل الى اوروبا الراهنة حيث رفع النضال الطبقي والتنافس على الفتوحات السلطة العامة الى مستوى غدت معه تهدد بابتلاع المجتمع برمته بما فيه الدولة نفسها» [٦].

وهكذا قضى الصراع الطبقي من جهة والمنافسات بين النبلاء انفسهم من جهة ثانية كما حصل بين آل بولي، وألب في اسبانيا، وآل شالون، وآل فرجيز، وآل هورن وآل اغمونت، في البلاد الواطئة، وفي الفرانش ـ كونتيه. وآل شالون، وآل بورجون وآل مونمورنس وآل غيز، وآل كونديه في فرنسا. لقد ادت هذه المنازعات العائلية إلى ارتفاع شأن الملكية واعتبارها فوق هذه الصراعات والمنافسات جميعها.

## ٥ ـ الحقوق الإلهية:

لقد كرست الاعراف والقوانين الحق الإلّهي للملوك في الحكم، وقد تولد هذا المفهوم مع الزمن بحيث ان العناية الالهية ترتب الأحداث بشكل يأتي فيه بعض الافراد ملوكاً. وان الله الذي يمد الافراد بالحكام يوجب عليهم طاعة هؤلاء. ومحاسبة الملوك لا تتم إلا امام الله فقط. وقد عبّر عن ذلك لويس

الرابع عشر في مذكراته بقوله: « ان سلطة الملوك مستمدة من تفويض الخالق، فالله مصدرها وليس الشعب، وهم مسؤولون امام الله وحده عن كيفية استخدامها». كما ذكر «اننا لم نتلق التاج إلا من الله فسلطة عمل القوانين هي من اختصاصنا وحدنا لا يشاركنا في ذلك أحد ولا نخضع في عملنا لأحد».

### ٦ - المفهوم الفلسفي:

تعرضت اوروبا للانقسامات الداخلية الحادة التي لم تقع بين الاسر الاقطاعية فحسب، بل أيضاً بين المذاهب المتعددة التي نشأت اثر قيام حركة الاصلاح الديني. ومن هذا الواقع استمد بعض الفلاسفة نظريتهم معتبرين ان السيادة يجب ان تكون مطلقة في يد الحاكم لتأمين الطمأنينة وانه لا سبيل لانقاذ البلاد من الانقسام الداخلي الا بتقوية السلطة الملكية التي اضفوا عليها مسحة من القداسة. وقد اشار إلى ذلك بودان بقوله: ان الأمير اذا كان لا يستطيع سن القوانين إلا بعد الحصول على موافقة من هو اعلا منه لما عد أميراً. أما بوسويه (Bossuet) فهو يرد السلطة إلى مصدرها الإلهي، فالملوك مفوضين لحكم شعبهم من قبل الله وان طاعتهم هي اطاعة الله وقد اشار إلى ذلك بقوله: «ليس العرش الملكي عرش انسان ولكنه عرش الله ذاته». فالأمير بنظر بوسويه ليس مكلفاً بتقديم حساب عن مهمته لأن سلطته المطلقة لازمة لإشاعة الأمن والطمأنينة وليس ثمة سلطة ضد سلطته ولا حدود لها إلا مخافة الله. اما محور نظرية هوبز السياسية فقد تركزت حول تأييد الحكم المطلق الذي كان يراه متجسداً في الحكم الملكي لأنه اكثر الحكومات استقراراً وقدرة على حفظ السلام والأمن.

هذه النظريات الفلسفية المستمدة من الواقع، استند إليها ملوك اوروبا كونها ملائمة لتطلعاتهم في الحكم وزيادة تسلطهم واستبداديتهم.

## ثانياً - نموذج الملكية المطلقة: فرنسا

لقد مارس ملوك فرنسا نفوذهم المطلق إلى أقصى الحدود منذ عهد شارل الثامن عشر (١٤٨٣ - ١٤٩٨). اذ ان السلطة المطلقة التي تمتع بها ملك فرنسا أعترف له بها قانونياً وكأنها هبة من الله. فكان الملك يجمع بيده جميع السلطات بلا حدود. فهو مصدر كل عدل ومصدر كل تشريع ومصدر السلطة الادارية ومصدر الحرب والسلام وقائد الجيش. لقد اعلن لويس الخامس عشر «في شخصي وحده تستقر السلطة العليا والي وحدي تعود السلطة التشريعية دون ارتباط ولا مشاركة وعني يصدر النظام العام كله وحقوق الامة ومصالحها هي بالضرورة متحدة مع حقوقي ومصالحي ولا تستريح إلا بين يدي»[٧]. كما اعلن سنة ١٧٧٠ في البرلمان «نحن لا نتلقى تاجنا إلا من الله فالينا وحدنا يعود حق اصدار القوانين التي بموجبها نقود رعايانا ونحكمهم، دون ارتباط ولا مشاركة»[٨]. على هذه القاعدة اوقفت اجتماعات مجلس طبقات الأمة سنة ١٦١٤ عهد لويس الثالث عشر. ولم يبق في الدولة سوى المجالس الاقليمية والاستشارية ووكلاء الملك المحليين الذين تابعوا اعمالهم تحت مراقبة اعين الملكية. وقد صرح لوبريه في عهد لويس الثالث عشر قائلاً: «ومن ذلك يمكن ان نستنتج ان ملوكنا لا يتلقون صولجانهم إلا من الله وحده فليسوا مجبرين ان يقدموا اي خضوع لأية سلطة على الأرض ويتمتعون بسائر الحقوق الممنوحة للسيادة التامة المطلقة. فهم سادة في مملكتهم بالتمام والكمال»[٩].

لا شك ان العبارة التي اطلقها لويس الرابع عشر «الدولة! اني انا الدولة!» لتدل دلالة واضحة على مدى قوة الملكية وعلى مدى حرص لويس الرابع عشر في المحافظة على السيطرة التامة التي كان يتمتع بها، اذ انه لم يكن من اللائق للرعايا ان يراقبوا سلطة استمدت اصلها من الله نفسه. «ان من

اعطى الملوك للناس اراد ان يحترموا كأنهم ضباطه »[10].

وعلى الرغم من ان الملكية الفرنسية قد ظهرت بهذه القوة إلا انها من جانب آخر قد فقدت هيبتها والكثير من عناصرها في اواخر القرن الثامن عشر وذلك نتيجة لمساوىء الملوك التي تمثلت في كثرة الحروب التي استنزفت الاموال والارواح. فضلاً عن سوء الادارة وكثرة الاضطهاد الديني والسياسي وفداحة الضرائب والمبالغة في الاسراف.

ومع ذلك كان على ملوك فرنسا ان يحترموا المواثيق ويراعوا الاعراف والتقاليد والقوانين الاساسية في المملكة وان يحترموا القسم الذي ادوه للكنيسة بمحاربة الهرطقة في بلادهم.

**الادارة في فرنسا:**

لقد وجد إلى جانب الملك، موظفو التاج ومجلس الملك. وكان يضم هذا المجلس عدد من الامراء الذين يعينهم الملك. أما القرارات الهامة فكانت تصدر عن « مجلس القضايا » المؤلف من لجنة صغيرة يشكلها الملك من اعوانه الخاصين.

وطالما كانت السلطة محصورة بالملك وحده فان مفهوم الوزارة بالمعنى المعروف حديثاً لم يكن موجوداً قط. بل وجد مستشار الملك وعدة امناء في مجلسه. إلا ان هؤلاء الامناء كان دورهم يتعاظم مع الزمن نظراً للمهمة التي كانوا يشرفون عليها وهي ادارة شؤون اجزاء المملكة باسم الملك. أما في الاقاليم فقد وجدت وظيفة الحاكم الذي كان يوكل سلطة العدل في اقليمه إلى قائمقامين مدنيين وجزائيين. أما الحكام العامين في الأقاليم التي وجدت على الحدود فقد كانت سلطتهم تفوق سلطة الحكام العاديين لأن مهمتهم كانت عسكرية.

**البرلمانات:**

كانت مهمة « البرلمانات » ممارسة السلطة القضائية وما يرافقها من وظائف عامة وادارية. وأهمها كان برلمان باريس الذي تشمل سلطته اراضي الدولة الفرنسية كلها. وقد تمتع هذا البرلمان بحق تسجيل المراسيم الملكية والاعمال الحكومية لتصبح شرعية كما تمتع بحق ابداء الرأي للملك حول هذه المراسيم نفسها ليس انطلاقاً من تأييد الملكية المطلقة بل حرصاً على دعامة الملك.

**نظام المالية:**

كان نظام المالية معقداً للغاية: فقد وجد لكل صنف من الواردات نظامه الخاص كالواردات العادية من املاك الملك، والواردات غير العادية كالمساعدات وضريبة الملح والشاي وغيرها...

وفي عهد فرنسوا الأول وُجد مجلس المالية الذي يشرف على « خزانة التوفير » التي تجمع بها كل الواردات. أما جباية الضرائب في الأقاليم فقد تمت عن طريق نظام « الدوائر العمومية » وقسمت المملكة بموجبه إلى أربع دوائر مالية. على رأس كل دائرة مدير. وقد قسمت الدوائر إلى عدة ناخبيات يدير كل منها موظف ملكي يدعى « المنتخب »[١١].

## ١ - لويس الثالث عشر ( ١٦١٠ - ١٦٤٣ ):

اعتلى العرش الفرنسي بعد هنري الرابع ابنه لويس الثالث عشر تحت وصاية امه ماري دي مدتشي التي استأثرت بالسلطة وخالفت سياسة هنري الرابع وعقدت تحالفاً مع اسبانيا بعد ان كانت اسرة الهابسبورغ فيها على عداوة وتنافر تامّين مع هنري الرابع. ولم تكتف بذلك بل الفت بين البلدين بتزويج ابنائها من ابناء فيليب الثالث. فزوجت ابنها لويس لآن النمساوية. وابنتها اليزابيت للفتى الذي اصبح فيما بعد فيليب الرابع. إلا ان شخصيتها القوية ظهرت فعلاً في توجيه سياسة فرنسا الداخلية. إذ انها كانت وراء المرسوم الملكي الذي حل بموجبه مجلس الطبقات سنة ١٦١٤ وبقي مشلولاً حتى قبيل اندلاع الثورة الفرنسية اي مدة مائة وخمس وسبعون عاماً. ويعود ذلك إلى ان نبلاء فرنسا واكليروسها الذين ما زالوا يمتلكون سلطة قوية في فرنسا قد اصطدموا داخل المجلس بقوة الطبقة الثالثة الممثلة بالبورجوازيين الذين طالبوا بالتحقيق بالهبات التي قدمتها الحكومة للنبلاء كما طالبوا باصلاح مفاسد الكنيسة ووجوب خضوع رجال الدين للقوانين والمحاكم الزمنية مما يؤكد تأييدهم المطلق لسلطة الملوك على حساب النبلاء والاكليروس.

كانت تصرفات ماري دي مدتشي قد أثارت استياء البروتستانت بعد ان عقدت تحالفاً مع اسبانيا. فقاموا بسلسلة من الثورات كادت فرنسا ان تقع فريسة لها مرة ثانية. إلا ان لويس الثالث عشر الذي تخلص من سلطة والدته قضى على تحركهم في جنوب فرنسا واقام معهم صلحاً سنة ١٦٢٢ كانت اهم شروطه مراعاة بنود مرسوم مونتبان (Montouban) ولاروشيل (La Rochell) مما اضعف من طاقتهم العسكرية والسياسية.

وابرز ما يجب ذكره في عهد لويس الثالث عشر هو تعيينه للكاردينال ريشليو وزيراً أول له. مما ادى إلى اختفاء دور الملكية المطلقة لتخلي الأمر للحكم الوزاري الذي تمثل بشخصيتين هامتين ظهرتا في فرنسا وهما ريشليو وتلميذه مازاران.

# ريشليو ( ١٦٢٤ - ١٦٤٢ )

## RICHELIEU

لقد جمع ريشليو من الصفات الشخصية ما هيأه لقيادة فرنسا طيلة عهده الوزاري دون منازع. حتى ذكر عن لويس الثالث عشر قوله في ذلك العهد : « ان السيطرة على كافة ساحات الوغى في اوروبا لأسهل عليّ من السيطرة على مكتب الملك ». وانطلاقاً من خطة ريشليو لاعلاء شأن فرنسا في اوروبا ، فقد بدأ بالعمل على تحقيق وحدة فرنسا القومية. فرفض سيادة البابوية على الملوك ، واحتفظ للكنيسة الفرنسية بقدر من الاستقلالية عن روما. واخضع رجال الدين في دولته للعلمانيين. واجبر الهيغونوت على الالتزام بوحدة فرنسا بعد ان تجاوزوا حتى معاهدة ١٦٢٢ التي اقامها معهم لويس الثالث عشر. فقضى على نفوذهم الذي اصبح يشكل خطراً واضحاً على وجود الدولة نفسها ، وخاصة في المدن التي تركت في ايديهم كمدينة لاروشيل مثلاً ، ومع ذلك رفض تحت ضغط الكاثوليك ان يطبق شروط الغالب عليهم. فمنحت لهم حرية العبادة والاحتفاظ بالاملاك واعفى قساوستهم من ضريبة الجزية (التاي) واحتفظ بجوهر مرسوم نانت واصدر مرسوماً آخر عرف بمرسوم ريشليو (مرسوم العفو) سنة ١٦٢٩ [١٢].

اما عن موقف ريشليو من الاشراف فلم يكن سوى من منطلق وجوب المحافظة على وحدة الصف الداخلي لتركيز السلطة والنفوذ بيد الملك. فامر بهدم جميع القلاع والحصون التي لم يكن يمتلكها بطبيعة الحال سوى النبلاء. وحرم المبارزة، فاشهر النبلاء الحرب على الملك نفسه عندما لم يخضع لارادتهم بعزل ريشليو. وكان شقيق الملك نفسه دوق اورليان ومعه هنري، دوق مونمورنس على رأس النبلاء الثائرين. ولكن ريشليو انتصر على جيوش الثائرين واصدر الملك حكماً بالاعدام بحق دوق مونمورنس الذي يعتبر ارفع اشراف فرنسا. اما ريشليو فدافع عن الاعدام بانه انذار ضروري للنبلاء

لأنهم هم ايضاً خاضعون للقوانين قائلاً: « لا شيء يدعم القوانين كعقاب الاشخاص الذين تعظم رتبتهم عظم جريمتهم »[١٣].

وانطلاقاً من مخطط ريشليو لتحقيق مركزية السلطة في فرنسا فقد أوفد الى انحاء فرنسا « مفتشين » (Les Intendants) للاشراف على المالية وتنفيذ القوانين فيها. مما ادى فعلاً الى زوال استقلال الاقاليم الذي كان النبلاء فيها يتمتعون باستقلال ذاتي منذ العصور الوسطى. كما أشار على الملك وجوب الحد من سلطة زعماء البرلمانات التي كانت تجد في الملكية الضعيفة سبيلاً لها لتقوية نفوذها. الا ان سياسة ريشليو تجاه الطبقة الفلاحية كانت اشد وبالاً عليهم من قبل. اذ ان ما يتطلبه تحقيق عظمة فرنسا في اوروبا من الأموال والمصروفات لبناء الجيوش والاساطيل وخوض الحروب الطويلة قد جعله يلجأ الى فرض الضرائب واعمال السخرة اللذين تضافرا مع الجفاف والطاعون حتى لقد قيل ان ربع سكان باريس كانوا من المتسولين في عهد ريشليو.

ومع ذلك فان ريشليو كان رائداً للتسامح الديني في دولته ورجلاً واسع الثقافة محباً للاداب. شجع ارستقراطية الفكر. وفرض على بعض المهتمين بالاداب ان يؤسسوا الاكاديمية الفرنسية التي جعل من نفسه حامياً لها بعد ان عين لها ثلاثة من مستشاري الدولة بالاضافة الى حامل اختام الملك. ولما كان المشرفون على الاكاديمية ينالون مخصصات شهرية وإنعامات كثيرة اخذوا يمجدون ملكية لويس الثالث عشر الفاضلة ويضفون على حكم ريشليو الصفة الشرعية الخالصة. الا ان هذه الاكاديمية قدمت خدمة جليلة للغة والاداب الفرنسيين لم يزل تأثيرها بالغاً حتى اليوم. كما أسس ريشليو سنة ١٦٣١ اول صحيفة فرنسية اسبوعية سميت (La Gazette) تنشر ماكان يرفع من شأن الملكية وشأنه حيث كان لويس الثالث عشر نفسه من كتابها المألوفين[١٤].

وهكذا حقق ريشليو عظمة فرنسا في اوروبا. كما حقق لها الوحدة

القومية والحكم المركزي لحساب السلطة الملكية المطلقة. الا انه ترك فرنسا افقر مما كانت عليه من قبل مما سيقدم للفلاحين فيما بعد ذريعة للقيام بالثورات والانتفاضات التي لم تهدأ طيلة قرن من الزمن. يصف ديورانت دور ريشليو بقوله: « ... ولكن التاريخ يذكر فيه بحق اولاً وقبل كل شيء الرجل الذي حرر فرنسا من تلك السيطرة الاسبانية التي نجمت عن الحروب الدينية والتي جعلت من فرنسا، بمقتضى الحلف، دولة تتلقى من اسبانيا معاشاً، بل تكاد تكون تابعة لها. انه حقق ما كان فرنسيس الاول وهنري الرابع يصبوان طويلاً اليه وما اخفقا في تحقيقه، فقد كسر «النطاق الخانق» الذي طوقت به دولتا الهابسبورج فرنسا. وانقذ البروتستانتية الالمانية باعتبارها حليف فرنسا الكاثوليكية، ويسر لمازاران ان يصوغ صلح وستفاليا البناء. اما لفرنسا ذاتها فقد خلق وحدة وقوة على حساب دكتاتورية واستبدادية ملكية ولدت الثورة حين حان وقتها. واذا كان اول واجبات رجل الدولة ان يجعل شعبه سعيداً حراً، فان ريشليو كان شديد القصور في تحقيق هذا الهدف. وقد ادانه الكردينال رتز ـ وهو قاض ذكي ولكنه لم يتجرد من التحامل ـ لأنه «ارسى اشنع واخطر طغيان استرق دولة ربما في التاريخ كله». ولو سئل ريشليو في هذا لربما اجاب بأن على رجل الدولة ان يأخذ في الاعتبار سعادة وحرية الاجيال القادمة لا جيله فحسب، وان عليه ان يقوي وطنه ليحميه من الغزو أو السيطرة الاجنبية، وان له في سبيل هذا الهدف ان يضحي بحق جيلاً حاضراً من اجل امن الاجيال التالية. وبهذا المعنى رأى فيه اوليفاريس، غريم ريشليو الاسباني، «اقدر وزير في العالم المسيحي في الالف سنة الأخيرة». ورأى فيه تشسترفيلد «اكفأ رجل دولة في عصره وربما في اي عصر آخر»[١٥].

# مازاران (١٦٤٣ - ١٦٦١)

## (MAZARIN)

كان ريشليو قد نصح لويس الثالث عشر قبيل وفاته بتعيين مازاران وزيراً له. الا ان ملك فرنسا توفي بعد ريشليو بعدة اشهر. ومع ذلك فان الملكة آن النمساوية الوصية على عرش ابنها لويس الرابع عشر الذي لم يبلغ بعد الخمس سنوات، عقدت أمر وزارة الدولة وشؤونها الى مازاران[١٦].

ومع ان مازاران كان يفتقد الى قوة وعزيمة سلفه ريشليو الا انه كان لا يقلّ عنه ذكاء وعزيمة لمتابعة سياسته الداخلية والخارجية. حتى قيل بهذا الشأن «ظهر الثعلب بعد اختفاء الاسد». وذلك لسياسة الدهاء والمخادعة اللذين سار عليها.

خرجت فرنسا من حرب الثلاثين عاماً الدينية بمكاسب عديدة سجلتها معاهدة وستفاليا التي وقعت من قبل الدول المتنازعة عام ١٦٤٨. وعلى الرغم من حالة الفوضى والاخطار الداخلية التي سادت فرنسا عقب المعاهدة، الا ان مازاران استطاع ان يمسك بزمام السلطة حتى بلوغ لويس الرابع عشر سن الرشد وانتقال السلطة اليه. وقد نهج مازاران في سياستيه الداخلية والخارجية منهج استاذه ريشليو. ولما كان يهدف في سياسته امراً واحداً وهو ان يجعل من فرنسا دولة مرهوبة الجانب في اوروبا فقد فشل في القضاء على حالة الفساد والفوضى المتفشية في ادارات الدولة ولم يستطع تنظيم حالة الضرائب التي زادت نتيجة لتمويل الحروب العديدة التي خاضتها فرنسا ضد المانيا واسبانيا مما ادى الى قيام ثورات داخلية كان اهمها ثورة الفروند (١٦٤٨ - ١٦٥٣) وقد سميت بهذا الاسم استخفافاً وتهكماً على القائمين بها لأنهم كانوا يحملون المقلاع للرمي. وكان من أهم اسباب هذه الثورة

كراهية الشعب الفرنسي لمازاران واتهامه بالاحتيال وقد ذكر ميشليه (Michelet) «ان كافة افراد الشعب الامناء في فرنسا وقفوا في وجه مازاران بينما وقف المحتالون جميعهم الى جانبه»[١٧]. يضاف الى ذلك استياء الطبقة الارستقراطية التي بدأت تفقد سيطرتها منذ الايام الاولى لحكم لويس الثالث عشر الذي استهل حكمه بحل مجلس طبقات الامة سنة ١٦١٤ والقضاء على اية حركة تفكر باعادة بناء الملكية الفرنسية على اسس دستورية. وقد ساهم كل من ريشليو ومازاران فعلاً مساهمة فعالة في تثبيت دعائم الملكية المطلقة على حساب الارستقراطية. حتى باتت ناضجة وواضحة في الحكومة القوية التي اسسها لويس الرابع عشر صاحب القول الشهير «الدولة! اني انا الدولة!».

وعلى الرغم من سلامة المبادىء التي نادى بها الثوار الفرنسيين ايام مازاران كالمطالبة بتخفيض بعض الضرائب، وعدم فرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان، وحماية الحرية المدنية للافراد وطرد المفتشين الملكيين والمطالبة ببعض الضمانات الدستورية الا ان هذه الثورة قد باءت بالفشل وذلك بسبب عدم نضجها في اذهان الفرنسيين وبسبب مصالح قادتها الاشراف ومواقفهم المتذبذبة من الملكية والحكم الدستوري. فان كونديه (Condé) الذي كان من بين الثائرين انحاز الى جانب الوصية على العرش، الملكة آن، بعد ان اغراه مازاران بوعده له برتبة كاردينال. فقاد الجيش الملكي وقضى به على الثورة. كما ان تورين (Turenne) الذي كان مستسلماً لفعل الرشوة قد هزمه مازاران في الحرب.

اما في الفروند الثانية (١٦٥٢) التي قادها كونديه الذي كاد ان يأسر الأسرة المالكة. فان الجماهير استغلت هذه الثورة وكادت تهدد مصالح الاشراف انفسهم الذين تراجعوا عن الثورة معتبرين ان حكم مازاران اهون بكثير من حكم الرعاع. ففر كونديه وخضع الاشراف من جديد للملكية المطلقة التي ستبرز بأوضح معانيها ايام لويس الرابع عشر[١٨].

اما على الصعيد الخارجي فقد استطاع مازاران ان يعزل اسبانيا نهائياً عن حلفائها النمساويين منجزاً بذلك برنامج ريشليو. ونتيجة للهزائم المتكررة التي منيت بها القوات الاسبانية اضطرت الحكومة الاسبانية الى طلب الصلح. ووقع الطرفان معاهدة البيرنيه (Pyrénée) في العام ١٦٥٩ التي اعتبرت نذيراً بانتهاء التفوق الاسباني وبداية التفوق الفرنسي. وتم بمقتضى هذه المعاهدة ان تستولي فرنسا على اجزاء واسعة من الاراضي المنخفضة كمقاطعة أرتوا (Artois) ولكسمبورغ ومقاطعة سردينيه وروسيون (Rossillon) في الجنوب وان تتنازل اسبانيا عن مطالبها في الالزاس لقاء تنازل فرنسا عن مطالبها في ايطاليا. وتم بموجب هذه المعاهدة زواج لـويس الرابـع عشر بـابنـة فيليـب الرابع، ماري تريز، على صداق يقدمه والدها ويبلغ ٥٠٠,٠٠٠ قرشاً ذهبياً لقاء تنازلها عن حقوقها في وراثة العرش الاسباني. لقد ادى هذا الزواج الى اشعال الحرب في اوروبا عدة مرات بين فرنسا واسبانيا وبينهما مجتمعتان وبقية دول اوروبا الكبرى بعد ان اثيرت قضية وراثة العرش الاسباني بوفاة ملك اسبانيا دون وريث ذكر.

# لويس الرابع عشر ( ١٦٦١ - ١٧١٥ )

عندما مات مازاران اقبل رؤساء الادارات على لويس الرابع عشر سائلين الى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم، فأجاب ببساطة قاطعة « اليَّ ».

وهكذا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ فرنسا باعتلاء لويس الرابع عشر العرش الفرنسي. فظهرت اثار هذه المرحلة واضحة في تاريخ اوروبا السياسي طيلة نصف قرن من الزمن. فهذا الملك استفاد من دروس من سبقه حتى استطاع بعزيمة قوية ان يشغل مكان اثنين من اعظم سياسيي ذلك العصر وهما ريشليو ومازاران. ألم تكن الملكية بالنسبة له « حرفة عظيمة نبيلة فاخرة »؟.

لقد أجمع المؤرخون على قوة شخصية لويس الرابع عشر ومثابرته على العمل وقدرته على استخدام الوزراء والموظفين الاكفاء مهما كانت هويتهم الاجتماعية. فكان يصرّ على الاشراف على جميع امور الدولة ولا يسمح قط باتخاذ قرار مهما كانت منزلته دون ان يكون مقتنعاً به الى حد انه كان يطلب الى وزرائه ان يوافوه بالتقارير المفصلة حتى ولو كانت متناقضة مع ارائه. حتى لقد وصفه خصمه سان سيمون بقوله: « كان بطبعه حصيفاً، معتدلاً، حذراً، سيداً على حركاته ولسانه ». كما قال فيه مونتسكيو « كانت نفسه اعظم من ذهنه » وقد افصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين اراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ ان يناقش بعض مراسيمه « ان الكوارث التي جرتها مجالسكم معروفة ومشهورة. لذلك آمركم بأن تفضوا هذا المجلس الذي اجتمع ليناقش مراسيمي. سيدي الرئيس الأول، اني امنعك من السماح بهذه الاجتماعات، وأمنع اي فرد منكم بالمطالبة بها »[١٩].

صحيح ان لويس الرابع عشر قد ورث دولة قوية، متماسكة، مرهوبة الجانب. الا ان التمرد الشعبي الذي اصابها ايام « الفروند » كان من الممكن

ان يتصاعد للتربة الخصبة التي تكمن في البنيان الاجتماعي لفرنسا. لذلك كان على لويس الرابع عشر ان يبني بيد وان يفرض سيطرته باليد الأخرى ضد القوى النبيلة التي ما زالت جذورها راسخة وقوية. كما كان عليه ايضاً ان يؤالف بين التقليديين والمجددين. بين اليسوعيين ودعاة إستقلال الكنيسة والجانسينست، بين الضباط الاشراف ورجال الجيش، بين المفتشين الملكيين والحكام المحليين. بين كولبير نفسه وبين موظفي المالية.

اهتم لويس الرابع عشر بشؤون الادارة. وكان معظم موظفيه من افراد الطبقة الوسطى الذين اثبتوا جدارتهم بالارتقاء الى مراكزهم وتأييدهم لسلطة الملك المطلقة. فأوجد ثلاثة مجالس لتصريف شؤون الحكم، تجتمع برئاسته للعمل على صياغة ومناقشة قراراته. وكان «مجلس الدولة» بأكثريته من البورجوازيين بحيث اصبح عدد افراده بعد ١٦٧٣ كالتالي: ٢٤ من البورجوازيين و ٣ من النبلاء و ٣ من رجال الدين. وكان اعضاء هذا المجلس بمثابة وزراء الدولة توكل اليهم سياسة الدولة بما فيها الخارجية. وكان لويس الرابع عشر يدعوهم مرتين او ثلاث مرات في كل اسبوع الى الاجتماع[٢٠]. اما «مجلس الرسائل» فكانت مهمته تصريف شؤون الاقاليم. و «مجلس المالية» يضم عدة مفتشين ويهتم بشؤون الضرائب والايرادات والميزانية كما أوجد أربعة مستشارين أو أمناء الدولة للخارجية والحرب والبحرية وقصر الملك. وهم بدورهم يقتسمون شؤون فرنسا ويجتمعون كل خمسة عشر يوماً[٢١].

ومع ان لويس الرابع عشر قد وضع نفسه فوق القانون الا انه امر بتنقيح القوانين بحيث جاءت ارقى القوانين التي وضعت منذ عهد جستنيان في القرن السادس للميلاد. وظلت فرنسا تأخذ «بقانون لويس» حتى وضع بديلاً له نابليون بونابرت. كما أنشأ جهازاً للشرطة لحفظ الأمن في باريس واهتم بشؤون المظاهر والأبهة. فبنى قصر فرساي الذي كان آية في الفخامة ومظاهر التأنق والابداع ومقصداً لرجال الفكر والسياسة والعلماء والادباء والفنانين

امثال كورني وراسين وموليير وبوالو ولابروبير وديكارت وبسكال. كما كـان مشجعاً للفن سخياً مع الفنانين حتى ضم قصره حوالى الفين وخمسمائة لوحة عدا ما اشتراه من المنحوتات والتماثيل التي وضعت في عصر النهضة حتى وصف فولتير عصره بقوله: انه أكثر العصور التي شهدها العالم استنارة.

## كولبير (Colbert)

منذ ان تسلم لويس الرابع عشر الحكم عهد الى كولبير، ابرع اقتصادي في ذلك العصر، بوزارة المالية. فوضع كولبير خطة شاملة لاصلاح ما أفسده مازاران في الحقل المالي وما تطلبته الحروب واخضاع الفتن والرشاوى والاسراف من مصروفات أوقعت خزانة الدولة في عجز خانق.

ساهم كولبير منذ تسلمه مقاليد المالية بتحويل اقتصاد فرنسا من اقتصاد زراعي (اقطاعي) الى اقتصاد رأسمالي بتشجيعه للصناعة والتجارة. فاستهل عمله بتخفيض الفوائد على ديون الدولة وتخفيف ضريبة التاي (Taille) عن كاهل الشعب وهي ابغض الضرائب لديه. وحظر الاستيلاء على مواشي الفلاح أو عرباته وفاء للدين ولو كان ديناً للتاج نفسه كما منع الصيادين من الصيد في الحقول المبذورة بالحب وقدم الاعفاءات الضريبية لمن يصلحون الاراضي المهجورة.

وانطلاقاً من سياسة التصنيع التي بدأها كولبير بحيث لم توجد قبله في اوروبا عامة في القرن السادس عشر سياسة صناعية بالمعنى المعروف حتى في انكلترا نفسها. اذ كان من الشائع القول من يسيطر على البحر يسيطر على التجارة، ومن يسيطر على تجارة العالم يمتلك ثروته بل يمتلك العالم نفسه[٢٢]. لقد اخضع كولبير بعض الصناعات لسيطرة الدولة النقابية وشجع المشروعات الصناعية الجديدة بالاعفاءات الضريبية وتقديم القروض. فازدهرت صناعة النسيج والسجاد والحرير وصناعة المرايا والصلب بعد ان كانت فرنسا تستورد معظمها. ومحافظة منه على هذا النشاط الصناعي اصدر المراسيم التي ترفع رسوم الواردات على الصناعات التي تنافس المنتجات المحلية وحاول سنة ١٦٦٤ الغاء المكوس الداخلية التي كانت تسبب في تأخير التجارة[٢٣] منطلقاً من المبدأ القائل بان التجارة هي « حرب المال » مؤمناً بان غنى البلاد لا يتم

الا بالتصدير الكثير والاستيراد القليل. وفعلاً كانت عمليات التصدير مفتاح غنى فرنسا في عهد كولبير[٢٤]. ولهذا ايضاً بنى السفن واصلح المرافىء واحواض السفن واسس الشركات التجارية ومنحها امتيازات الحماية. فاسس شركة الهند الغربية سنة ١٦٦٤ والشركة الصينية سنة ١٦٩٨ وشركة غينيا سنة ١٧٠١. فانتعشت بوردو ونانت وسان مالو ولاروشال وغيرها من مدن فرنسا التجارية. كما انه شق الطرق لتسهيل التجارة الداخلية. وحفر قناة لانغدوك الكبرى (Languedoc) وشجع الاكتشافات الجغرافية وانشأ المستعمرات فانتشر المستعمرون الفرنسيون في كندا وغرب افريقيا وجزر الهند الغربية والهند وسيلان وتأسست ديترويت واستكشف لاسال المسيسبي وسيطرت فرنسا على وادي سان لوران والمسسبي.

هذه الاصلاحات لم يستفد منها بطبيعة الحال سوى بعض الفئات وظلت الضرائب الملكية والسيدية والكنسية تنوء تحت عبئها الطبقات الفلاحية كما ان أجور العمال الذين ساهموا في تطوير الصناعة، كانت ضئيلة ولم يكن يسمح بالاضطراب والشكاوى خاصة تلك التي تنادي بتخفيض ساعات العمل اليومي التي كانت اثنتي عشرة ساعة.

### أ ـ السياسة الدينية:

لقد آمن لويس الرابع عشر ان الوحدة السياسية لفرنسا لا يمكن ان تتحقق الا بقيام الوحدة الدينية ايضاً. ومع ذلك فطالما ظل البروتستانت ملتزمين بالولاء التام لسياسة الدولة العليا، كما حصل ايام الفروند، فانه حافظ على حريتهم الدينية التي اعطاها لهم مرسوم نانت الذي اصدره جده هنري الرابع. الا ان لويس الرابع عشر كان يأمل بارتداد البروتستانت الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية اذا اخذهم بسياسة العنف وابعدهم عن مناصب الدولة العليا. كتب في مذكراته يقول: «اما عن ذلك العدد الكبير من رعاياي الذين يدينون بما يسمونه المذهب الاصلاحي، وهو شر... انظر اليه

بحزن... فيخيل الي ان اولئك الذين ارادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفطنوا الى طبيعة هذا الشر، الذي نجم بعضه عن حرارة في العقول، والذي يجب ان يترك ليذوي ويموت دون ان يحس به أحد، بدلاً من اثارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة... وقد آمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهيغونوت في مملكتي تدريجياً هو أولاً عدم الضغط عليهم اطلاقاً بأي قيد صارم جديد، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليه من اسلافي دون منحهم أكثر منه، وحتى قصر تنفيذه داخل اضيق الحدود التي تجيزها العدالة واللياقة »(٢٥).

وامام الحاح رجال الدين الكاثوليك وهباتهم السخية باتخاذ موقف متشدد تجاه البروتستانت، اذ اشار مجمع ١٦٦٠ الاكليركي ان يغلق الملك الكليات والمستشفيات الهيغونوتية. كما طلب مجمع ١٦٧٠ بقانونية انكار اطفال الهيغونوت الذين بلغوا سن السابعة، لمذهبهم البروتستانتي. اصدر لويس الرابع عشر سلسلة من المراسيم تتعارض كلياً مع مفهوم مرسوم نانت. ففي سنة ١٦٦١ حرم على بروتستانت مقاطعة جكس (قرب سويسرا) العبادة وكانت تضم هذه المقاطعة سبعة عشر ألفاً من البروتستانت مقابل اربعمائة كاثوليكي. وفي سنة ١٦٦٤ اصبحت الترقية الى فئة معلمي الحرف مستحيلة على البروتستانت، وفي سنة ١٦٦٥ سمح للصبيان في الرابعة عشرة والبنات في الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك ابائهم. وفي سنة ١٦٦٦ حرم على الهيغونوت انشاء كليات جديدة وفي سنة ١٦٦٩ أصدر مرسوماً يعاقب بموجبه الهيغونوت المهاجرين وفي سنة ١٦٧٩ أصدر امراً بنفي جميع المرتدين عن الكاثوليكية ومصادرة املاكهم.

وهكذا تتابعت حملات الاضطهاد ضد الهيغونوت في فرنسا. فاغلقت وهدمت معظم كنائسهم واخذ الجنود الخيالة ينزلون في مساكنهم للمضايقة وازدادت مع الزمن اعمال العنف ضدهم حتى انكرت مدن كثيرة مذهبها الكلفيني كمونبيليه ونيم... وهاجرت اعداد ضخمة عبر الحدود حتى ان

الجمعية العامة للاكليروس التمست من لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٤ الغاء مرسوم نانت بعد ان خلت فرنسا من الهيغونوت. فنزل الملك عند طلب الجمعية واصدر أمراً سنة ١٦٨٥ الغى بموجبه مرسوم نانت باعتباره مرسوماً لا لزوم له بعد ان اصبحت فرنسا باجمعها تدين بالكاثوليكية. فعاد اضطهاد الهيغونوت اكثر مما كان عليه الحال قبل صدور مرسوم نانت. فاغلقت مدارسهم المتبقية وامكنة عبادتهم وارغم رجال الدين منهم بالهجرة من فرنسا. ومع ان بعض الاقاليم قاومت سياسة الاضطهاد بشدة الا ان فرنسا كادت تخلو من الهيغونوت الذين كان عددهم قبل الاضطهاد حوالى مليون ونصف المليون فغادر منهم فرنسا حوالى اربعمائة الف وأكره اكثر من اربعمائة الف آخرين على اعتناق الكاثوليكية.

لقد ادى الغاء مرسوم نانت ليس الى اضطراب الحالة السياسية فحسب بل ايضاً الى تأخر اعمال الصناعة والتجارة في فرنسا. اذ عرف عن الهيغونوت انهم كانوا حرفيين مهرة وتجاراً بارعين انعشوا الاقتصاد الفرنسي الذي مني بخسائر جسيمة بعد هجرتهم. وكل ذلك لقاء تحقيق اهواء ملك لم يكن حتى « التسامح » ليرتضيه اذا كان ينتقص من ارادته التي ارادها مطلقة حتى على العبادة.

اما سياسة لويس الرابع عشر ازاء الجانسينست [٢٦]، فلم تكن تقل عن سياسته ضد الهيغونوت. فظل يلاحقهم في اديرتهم حتى خضعوا له. وانطلاقاً من تصميم لويس الرابع عشر على تركيز السلطة الدينية بيديه اخذ يعين الاساقفة ورؤساء الاديرة معتبراً ان سلطته المستمدة من الله لا تقل عن السلطة الروحية للبابا نفسه. ولهذا فلا يحق للبابا ان يتدخل بشؤون كنيسة فرنسا. وبالتالي ان يحل الرعايا من قسم الوفاء للملك. فسلطة المجامع العامة تفوق سلطة البابا المقيدة بالاعراف كما رفض عصمة البابا في مسائل الايمان جاعلاً الحكم الاول للكنيسة وحدها [٢٧]. ويعرف هذا الموضوع بالغاليكانية (Gallicanisme) وهي مسألة سياسية تختص بالعلاقة بين الكنيسة والبابا

والملك. والكنيسة الغاليكانية الاسقفية خضعت للملك واعترفت بأولوية روما في الكنيسة وليس على الكنيسة. مؤكدة سلطة المجامع على البابوية (اسقف روما) ومؤكدة ايضاً استقلالية الاساقفة في اسقفياتهم[٢٨]. وقد أكد مجمع الاساقفة المنعقد سنة ١٨٨٢ على (اعلان من أربع مواد) يتناول اسس الغاليكانية. وقد نصت هذه المواد على ان سيادة الكرسي الرسولي ما هي الا سيادة روحية وان سلطة المجمع المسكوني هي فوق سلطة البابا. هذا الموقف تجاه البابا جعله يمتنع عن التقليد المفترض للاساقفة حتى اصبح عدد الاسقفيات الشاغرة في فرنسا حوالى خمس وثلاثين اسقفية[٢٩].

هكذا مهد لويس الرابع عشر بسياسته الاستبدادية والغاء مرسوم نانت امام البورجوازية الفرنسية لخوض معاركها على ارضية سياسية. وهي صيغة مناسبة جداً للبورجوازية المتقدمة بدلاً عن الدين.

## ب ـ حروب لويس الرابع عشر:

كانت الحروب الخارجية التي شنها لويس الرابع عشر على معظم دول القارة الأوروبية احدى الوسائل التي اتبعها لتوطيد زعامته في فرنسا وفرض هيمنته على اوروبا. فقد كان مازاران نفسه يحلم بتسليمه امبراطورية على غرار امبراطورية شارلمان. حتى ان لويس نفسه كان يطمح الى ان يصبح امبراطوراً الا ان اوبري (Aubery) اقنعه ان اسم الملك اعظم فخامة واكثر قداسة من اسم امبراطور[٣٠]. ومع ذلك عمد لويس الرابع عشر بعد ان انتهى من بناء قوته في الداخل الى شن الحرب تلو الحرب حتى تحقق لفرنسا في عهده السطوة والقوة والنفوذ الذي كان ينشده لها.

## ١ - حرب الاستحقاق (١٦٦٧ - ١٦٦٨)

## (La guerre de Dévolution)

كان مازاران قد اجرى على هامش معاهدة البيرنيه ما عرف « بالصفقة » التي تم بها تزويج لويس الرابع عشر من ماري تريز ابنة فيليب الرابع. وكان المهر الذي لم يدفع حتى حين وفاة فيليب الرابع سنة ١٦٦٥ احدى الوسائل التي سيحتج بها ضد الوريث الاسباني الجديد. وانطلاقاً من ايمان لويس الرابع عشر بأن السلام مع الهابسبورغ لا يمكن ان يأخذ اكثر من طابع الهدنة. لذلك احتج الملك الفرنسي على انتقال العرش الى شارل الثاني ابن فيليب الرابع من زواج آخر. بل انه طعن بشرعيته مطالباً بحق زوجته في وراثة احدى مقاطعات الاراضي المنخفضة التي يحدد فيها قانون وراثة العرش بالاولاد من المرأة الأولى [٣١].

استطاعت القوات الفرنسية (بقيادة تورين ولوڤوا وڤوبان) التي شنت الحرب في الفلاندر ان تستولي على عدد من مدن الحدود دون أية مقاومة اسبانية تذكر. مما أرعب انكلترا وهولندا والسويد معاً واستعد الحلف الثلاثي لوقف زحف جيوش فرنسا في تلك الجهات. عندها فاوض لويس الرابع عشر الاسبان وعقد معهم صلح أكس لاشابيل (١٦٦٨) (Aix - la - chapelle) الذي احتفظت فرنسا بموجبه بالاراضي التي دخلتها الجيوش الفرنسية وكان منها مدينة ليل (Lille).

## ٢ - الحرب الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٨)

ترك تشكيل التحالف الثلاثي اثراً عميقاً في نفس لويس الرابع ضد هولندا، التي كانت تعتبر مركزاً لتجمع الهيغونوت الذين هاجروا اليها من فرنسا واخذوا يقومون بمهاجمة الحكم الملكي والنظام الديني فيها. ولما كانت التجارة الهولندية النشيطة تعرقل المصالح التجارية الانكليزية والفرنسية على السواء فان لويس الرابع عشر نجح في ان يعقد مع انكلترا معاهدة سرية ضد هولندا سنة ١٦٧٠ (Dover).

استطاعت جيوش فرنسا البرية تحت قيادتي تورين وكونده ان تظهر مهارة فائقة في حرب الهولنديين مع ان الحملة البحرية الفرنسية الانكليزية فشلت في اخضاع الاسطول الهولندي. وقد ترتب على هذه الحرب قيام ثورة داخلية في هولندا انتهت بعودة وليم اورانج الى الحكم وهو من اشد المتحمسين للدفاع عن استقلال بلاده. فامر بهدم السدود حتى اغرقت البلاد بالمياه فتوقف زحف الفرنسيين الذين لم يتمكنوا من الوصول الى امستردام. وحصل ان تخلت انكلترا عن اتفاقها مع فرنسا واعلنت كل من اسبانيا والمانيا والدانمرك الحرب عليها. مما حدا بلويس الرابع عشر ان يدرك خطورة الموقف ويعقد معاهدات عديدة مع اعدائه جعلت منه الحكم الاول في اوروبا وهو ما يعرف بمعاهدة نيماغ (Nimègue) عام ١٦٧٨ وقد احتفظت هولندا بموجبها بجميع اراضيها وتنازلت اسبانيا لفرنسا عن مقاطعة فرانش كونته مع امتلاكها ايضاً للالزاس. ومع ذلك لم يكتف لويس الرابع عشر بما اقتطعه من هذه المعاهدة بل انه استمر في التوسع معتمداً على تفسيرات « محاكم الضم » التي شكلها للنظر في استيلاء فرنسا على بعض المناطق. فاستولى فعلاً على ستراسبورغ (١٦٨١) وعلى بعض قلاع الفلاندر ولكسمبورغ وغيرها من المقاطعات على الحدود الالمانية الفرنسية دون ان تبدي دول اوروبا التي انهكتها الحروب اية مواجهة، بل انها قبلت ضم هذه المناطق لمدة عشرين عاماً اعتبرت بمثابة هدنة سياسية وعسكرية لدول اوروبا [٣٢].

## ٣ - حرب عصبة أوغسبورغ

قامت هذه الحرب بين حلف اوغسبورغ الذي يضم الكثير من الولايات الالمانية التي توجست خيفة من تفسيرات محاكم الضم التي انشأها لويس الرابع عشر ومن انكلترا واسبانيا والسويد وهولندا من جهة وبين فرنسا من جهة ثانية. وقد احرز الفرنسيون فيها خلال السنوات الاولى انتصارات عظيمة على الالمان وسيطروا على معظم سافوى وانتصروا على الاسطول الانكليزي والهولندي المشترك. واستمرت الحرب مدة تسعة اعوام تقريباً مما أنهك اقتصاديات الدول المشتركة فيها. وخاصة فرنسا التي انهارت فيها مشاريع كولبير الاقتصادية. وعقد الفريقان معاهدة رايزويك (Ryswick) سنة ١٦٩٧ وقد تم بمقتضاها ان تخلت فرنسا عن الاراضي التي استولت عليها منذ معاهدة نيماغ بموجب قرارات محاكم الضم عدا ستراسبورغ والالزاس، الا ان لويس الرابع عشر لم يعترف باستيلاء هولندا على بعض القلاع والحصون القريبة من الحدود الفرنسية وبوليم الثالث ملكاً على انكلترا ضد اسرة ستيورات.

## ٤ ـ حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ ـ ١٧١٣)

كانت مشكلة عرش اسبانيا من اهم المشاكل التي واجهت لويس الرابع عشر بل واكثرها خطورة وتعقيداً. ودارت هذه المشكلة حول مصير الامبراطورية الاسبانية بعد موت ملكها شارل الثاني الذي كانت نهايته حتمية بين لحظة واخرى لمرض اصاب جسمه وخاصة ان شارل لم يعقب ولذاً يخلفه في وراثة العرش.

وكانت الامبراطورية الاسبانية من حيث الاتساع تثير مطامع جميع دول اوروبا. تشتمل على ميلان ونابولي وصقلية وسردينيا وجزر البليار والاراضي المنخفضة (بلجيكا) بالاضافة الى اسبانيا نفسها وكانت ممتلكاتها فيما وراء البحار تشمل الفيليبين وكناري وكوبا والمكسيك وفلوريدا وبناما واميركا الجنوبية (عدا البرازيل وغويانا).

كان المطالبون بعرش اسبانيا من الناحية القانونية ثلاثة:

**أولاً ـ لويس الرابع، الذي كان متزوجاً بماري تريز ابنة فيليب الرابع** واخت شارل الثاني.

**ثانياً ـ الامبراطور ليوبولد الاول، بصفته حفيداً لفيليب الثالث** ومتزوجاً بالابنة الثانية لفيليب الرابع.

**ثالثاً ـ امير بافاريا، بصفته قريباً لفيليب الرابع من والدته.**

لقد شغلت هذه المشكلة جميع الدول الاوروبية فعقدت المعاهدات بين انكلترا وهولندا من جانب وفرنسا من جانب آخر لتقسيم املاك اسبانيا بعد شارل الثاني. في حين ان النمسا رفضت الدخول في حلف مع فرنسا يقر تقسيم اسبانيا. بينما انقسم بلاط شارل الثاني الى حزبين احدهما يناصر الامبراطور

والثاني يؤيد لويس الرابع عشر. ولكن انصار ملك فرنسا نجحوا أخيراً ان يقنعوا شارل الثاني بان يوصي لاحد حفدة لويس الرابع عشر الدوق دانجو (Duc d'Anjou) بالعرش الاسباني محافظة على وحدة اسبانيا من اطماع جارتها فرنسا. وهكذا كان من الصعب على لويس ان لا يقبل الوصية. فتجاهل اتفاقات التقسيم التي عقدها واعترف بحفيده ملكاً على اسبانيا باسم فيليب الخامس. وكان من الممكن ان تنتهي المشكلة لولا ان لويس اعترف رسمياً بحق حفيده في وراثة العرش الفرنسي. وامام امكانية اتحاد التاجين الاسباني ـ الفرنسي في المستقبل رأت الدول الأوروبية وعلى الأخص انكلترا انقلاباً عاماً في التوازن الاوروبي ورأت فيه أيضاً خطراً كبيراً يهدد تجارتها امام اتحاد التاجين. فطالبت باعطاء الاملاك الاسبانية في الاراضي المنخفضة وايطاليا الى النمسا واسرعت انكلترا الى تكوين التحالف الاعظم (انكلترا ـ النمسا ـ هولندا) واستمرت حرب الوراثة الاسبانية منذ عام ١٧٠٢ حتى عام ١٧١٣ وكانت ميادينها ايطاليا والاراضي المنخفضة وبافاريا واسبانيا وامتدت الى المستعمرات الاميركية وانتهى بفوز الحلفاء على فرنسا واسبانيا. فلم يجد عندئذٍ لويس الرابع عشر بدأ من طلب الصلح. ومما ساعده على ذلك ان الامبراطور النمساوي توفي سنة ١٧١١ وتولى العرش مكانه اخوه شارل المرشح لوراثة العرش الاسباني ايضاً مما ارهب الدول الباقية التي وجدت في اجتماع التاجين الاسباني ـ النمساوي تحت تاج واحد اشد خطورة من اتحاد عرش فرنسا مع اسبانيا. وهكذا عقدت معاهدة اوترخت (Utrecht) في هولندا سنة ١٧١٣ وكان من اهم شروطها:

أ ـ الاعتراف بفيليب الخامس ملكاً على اسبانيا والمستعمرات الاميركية على ان لا يتم الجمع بين عرشي اسبانيا وفرنسا.

ب ـ ان تستولي النمسا على نابولي وسردينيا وميلان والاراضي المنخفضة الاسبانية (بلجيكا).

ج ـ ان تستولي انكلترا من فرنسا على الاراضى الجديدة نيوفوندلاند

ونوناسكوتيا وخليج الهدسن وتحصل من اسبانيا على جبل طارق وجزيرة مينورقة في المتوسط وبعض الامتيازات التجارية في مستعمراتها كحق الاتجار في زنوج افريقيا.

د ـ استعادة امراء كولون وبافاريا لحكمهم مع الاعتراف بمملكة بروسيا بزعامة اسرة هوهنزلرن.

د ـ الاعتراف بحق البروتستانت في وراثة العرش الانكليزي.

انهت معاهدة اوترخت سلسلة الحروب التي حاولت بواسطتها الملكية الفرنسية تحقيق السيطرة على اوروبا. وبينما لم تجن فيها فرنسا سوى تعيين فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على اسبانيا، فقد خرجت انكلترا من هذه الحروب بمكاسب عديدة اهلتها لان تمتلك اعظم قوة بحرية مكنتها من السيطرة على المستعمرات الفرنسية واسواقها التجارية فيما وراء البحار. وكان من نتائج المعاهدة ايضا ان قويت الصداقة الأسبانية الفرنسية بعد ان كانت علاقتها سيئة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فالمعاهدة نصت على اعطاء الاراضي المنخفضة على حدود فرنسا الشمالية للنمسا فزال بذلك موضوع النزاع بين الطرفين وحل مكانه النزاع الفرنسي النمساوي. كما ان النمسا بسيطرتها على الاراضي الاسبانية في ايطالية قد جعل من اسبانيا تفتش عن حليف لها يمكنها من قهر النمسا واسترجاع ممتلكاتها هذه.

ولما كانت انكلترا بموجب معاهدة اوترخت قد استولت على اراضي فرنسية واخرى اسبانية. فلم يكن امام اسبانيا سوى محالفة فرنسا ازاء العدو المشترك انكلترا. يضاف الى هذه العوامل ان الاسرة الهابسبورغية العدوة التقليدية لفرنسا قد زالت بزوال شارل الثاني وحل مكانها على عرش اسبانيا اسرة بوربون الفرنسية.

## ج ـ تقييم حكم لويس الرابع عشر

اكتمل انتقال فرنسا من عصر النهضة الى العصر الحديث في عهد لويس الرابع عشر. وذلك بازدياد نمو البورجوازية الفرنسية الذي لازم تدهور النبالة. ووقف المنورون على عتبة القرن الثامن عشر ينذرون بسقوط كل ما يمت الى النظام القديم بصلة. فادى الانقلاب الاجتماعي قبيل نهاية القرن الى قيام الثورة الفرنسية وبالتالي تسلم البورجوازية مقاليد الحكم حيث بدأت فرنسا تخطو نحو مرحلة جديدة، هي عصر الاستعمار الفرنسي الذي ساهم نابوليون في رسم صورته الواضحة باخضاع اوروبا للامبريالية الفرنسية التي لم تتوقف عن النمو والازدهار على اختلاف اشكال الحكومات التي تعاقبت على حكم فرنسا طيلة القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين.

ومع ان لويس الرابع عشر قد حقق لفرنسا العظمة والمجد بتوسعاته العسكرية وبنائه للدولة القومية سواء على الصعيد الداخلي او الخارجي الا ان الاضطراب الاجتماعي الذي تمثل بعدم المساواة في الثروات جعلت جميع الحقوق السياسية التي انتزعت فيما بعد لا تكون الا مظهراً عديم الجدوى لأن هذا التفاوت بحد ذاته ليس الا منبعاً للمناصب أو مصدراً للاضطراب. لهذا ادانت فلسفة التنوير الملكية المطلقة. وادانت معها سياسة الاضطهاد السياسي الملازم لها. واعتبرت العدالة المنبثقة عنها ليست سوى عدالة العبودية نفسها.

لقد أسقطت سياسة لويس الرابع عشر من حسابها جميع القيم والمشاعر الانسانية على حساب المجد العسكري الذي كان ينوء تحته الطبقات الفقيرة، وبذلك قدمت الملكية المطلقة في عهد لويس الرابع عشر مثالاً صارخاً للظلم والاستبداد بالغاء مرسوم نانت والحجر على الفكر وحرية العقيدة مع ان رعايته للادب والفن لم يكن يضاهيها رعاية حاكم آخر في جميع انحاء اوروبا. الا انها كانت جميعها تصب في قناة الابهة والفخامة اللذين اضفاهما لويس الرابع عشر على حياته. لقد ردد الاسقف ماسيلون عند تأبين لويس الرابع عشر قوله: «ان الله وحده هو الكبير».

ومع ذلك كان عهد لويس الرابع عشر عظيماً على حد تصوير ديورانت لإيجابية ذلك العصر بقوله: « لم يشهد التاريخ من قبل حاكماً سخا مثل هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون. لقد اضطهد لويس الرابع عشر الجانسيين والهيغونوت، ولكن في عهده كتب بسكال، ووعظ بوسويه، وعلم فينيلون. ولقد جند الفن ليخدم به مآربه ومجده، ولكن هذا الفن منح فرنسا بفضل تشجيعه روائع في العمارة والنحت والتصوير. ولقد حمى موليير من جيش من الخصوم، وآزر راسين من مأساة الى مأساة. ولم تكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل، ولا رسائل أفضل، ولا نثراً افضل، مما كتبت في عهده. وقد أعانت عادات الملك المهذبة، وضبطه لنفسه. وصبره، واحترامه للنساء ـ اعانت كلها على انتشار الاداب المحببة والمجاملات اللطيفة في البلاط، وعنه الى باريس وفرنسا وأوروبا. ولقد اساء استعمال بعض النساء، ولكن تحت حكمه بلغت النساء في الادب والحياة مقاماً اضفى على فرنسا ثقافة ثنائية الجنس يفوق جمالها اي ثقافة أخرى في العالم. وبعد كل التحفظات، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال الكثير لوثته هذه القسوة الكثيرة، يحق لنا ان نضم صوتنا الى اصوات الفرنسيين في الاشادة بعصر لويس الرابع عشر بوصفه عصراً يقف على قدم المساواة مع اليونان في ايام بركليس، والرومان في ايام أوغسطس، وايطاليا في ايام النهضة، وانجلترا في ايام اليزابيت وجيمس الاول ـ يقف مع هؤلاء جميعاً قمة شامخة بين الشوامخ في مسار الانسانية المتعثر »(٣٣).

## ثالثاً: نموذج الملكية المعتدلة: بريطانيا

حقق الانكليز خلال القرن السادس عشر نجاحاً اقتصادياً باهرا بفضل سياسة ملوك اسرة تيودور. مما ساهم في نشوء طبقة بورجوازية نامية فيها متقدمة على بقية القارة الأوروبية. وكان لهذا النجاح عوامل متعددة اهمها:

أ ـ ان انكلترا لم تتأثر كثيراً بالمنازعات الداخلية التي حصلت اثناء الاصلاح الديني على غرار بقية دول اوروبا. فقد انتشرت فيها البروتستانتية وعم على اثرها روح التسامح حتى انها استقطبت العديد من المهاجرين المضطهدين من سكان الفلاندر الذين طوروا فيها صناعة المنسوجات الصوفية ومن هيغونوت فرنسا البارعين في الاعمال الصناعية والتجارية. اما الحروب الاوروبية التي انهكت اقتصاديات الدول وخاصة الحروب الايطالية وحروب الدين فان انكلترا لم تشارك فيها الا مختارة بل انها لم تتدخل في نزاع إلاّ وكسبت على اثره مزيداً من النفوذ والمستعمرات.

ب ـ ان توفر المواد الخام اللازمة للصناعة وخاصة الصوف قد أدخل انكلترا في ميدان السبق التجاري. فازدهرت المنسوجات الصناعية فيها على اثر تشجيع هجرة الفلمنكيين اليها منذ القرن الرابع عشر. حتى ان هنري السابع فرض رسوماً باهظة جداً على تصدير مادة الصوف. فارتفعت اسعار المنسوجات التي يحيكها سكان الفلاندر مما ادى الى رواج الصناعة الانكليزية وبالتالي الى ازدياد النشاط التجاري فيها. فنشأت على اثر ذلك في القرن السادس عشر طبقة ثرية اقبلت على شراء الاراضي ووقفت وجهاً لوجه امام طبقة النبلاء التي عبرت عن سخطها بين فترة وأخرى بالثورة ضد اليزابيت دفاعاً عن الكثلكة.

ج ـ رواج التجارة الانكليزية: لم تكن التجارة الداخلية في انكلترا تتعرض للمصاعب بسبب قوة الملكية التي منعت قيام الحواجز الجمركية بين

المقاطعات لأنها معيقة للنشاط التجاري. اما التجارة الخارجية فقد ازدهرت على اثر انتقال مركز التجارة الى الاطلسي بعد ان كانت مدن المتوسط تحتكر التجارة مع الشرق طيلة العصور الوسطى. ومما ساعد على هذا النمو براعة الانكليز في الاعمال البحرية. اذ ان موقع انكلترا الجغرافي المقرون بكابوس الغزو الخارجي هيأ لها الاهتمام ببناء الاساطيل التي ساهمت عن طريق اعمال القرصنة التي كثيراً ما كانت تتم برضى الملوك انفسهم لأن تصبح انكلترا على ابواب القرن التاسع عشر اقوى دولة بحرية في العالم(٣٤).

لقد ادى هذا النمو الاقتصادي اذن الذي عرفته انكلترا، لا الى ضعف طبقة النبلاء وزيادة نفوذ السلطة الملكية فحسب، بل الى تعاظم دور البورجوازية باعدادها الهائلة من التجار والصناعيين فاخذت تتطلع الى المشاركة في الحكم منذ اواخر القرن السادس عشر. وعندما زال خطر الغزو الاسباني بتحطيم الارمادا اخذت هذه الفئة تضغط على الملكية للتراجع عن الاحتكارات التي فرضتها في السابق لتحديد الاسعار وسلم الاجور الذي صدر سنة ١٥٦٣. وهكذا احدثت التغيرات الاقتصادية التي عرفتها انكلترا تغيراً جذرياً في مفهوم السلطة السياسية في القرن السابع عشر توطدت حقوقيته في عدم خضوع البرلمان لمشيئة الملك حتى تم له النصر النهائي الذي تمثل في ثورة سنة ١٦٨٨.

## ١ ـ المواجهة الحاسمة بين الملكية المطلقة والبرلمان

كانت السلطة الملكية في انكلترا تختلف عن مثيلها في فرنسا أو أسبانيا من الناحية النظرية على الأقل. اذ ان الملك فيها كان مقيداً بحدود الدستور والتشريعات التي كان يصدرها البرلمان بين فترة واخرى. ومع ذلك فان اسرة تيودور منذ عهد هنري السابع حتى اليزابيت قد مارست الحكم المطلق الى ابعد الحدود. مستفيدة من فترة الاضطراب التي خلفتها حروب المائة عام وحرب الوردتين التي اودت بحياة خيرة شباب النبلاء ومن ثم الشعور القومي الذي بلغ اوجه في مساندة الملكية على حساب سلطة البابا الكاثوليكية. فكما عززت النهضة الحديثة التي عرفتها انكلترا موقف الملك فان الطبقة البورجوازية التي تكونت بفضل الازدهار الاقتصادي الذي حققته الملكية لها قد أمدت بدورها، في المرحلة الاولى، الاستبداد الملكي بتأييد أدبي وسلطان مطلق.

لقد استطاع ملوك اسرة تيودور تحت وطأة التهديد الخارجي وشخصيتهم القوية ان يعالجوا المسائل القانونية بمهارة فائقة. الا ان البرلمان الانكليزي المتشكل من مجلس اللوردات الذي يضم ممثلين عن النبلاء والاكليروس (يعينهم الملك لمدى الحياة) ومن مجلس العموم ويضم اعضاء منتخبين يمثلون اصحاب الاراضي الاحرار والبورجوازيين اخذ اعضاؤه منذ اواخر عهد اليزابيت يتمسكون بصلاحياتهم بعد ان نما فيهم الاهتمام بشؤون المملكة السياسية والمالية والدينية. وفعلاً خضعت اليزابيت سنة ١٦٠١ لمطالب مجلس العموم بعد ان كانت غير عابئة بقراراته طيلة حكمها. بل انها كثيراً ما كانت تجبر البرلمان على الموافقة على المراسيم التي كانت تصدرها دون مشاورته.

اما في عهد جيمس الاول[٣٥] (١٦٠٣ ـ ١٦٢٥) فإن البرلمان ظل

متمسكاً بحقوقه وحصانة اعضائه ووجوب تولي التشريع في جميع المسائل ومن بينها المسائل الدينية. منكراً اية سلطة للملك ما دام البرلمان لا يوافق عليها محتفظاً بحق الملك في رفض القوانين التي يسنها البرلمان او في اعتمادها. لقد صرح رئيس مجلس العموم للملك نفسه انه ليس له حق سن القوانين معلناً امام المجلس سنة ١٦٠٤ «ان امتيازاتنا وحرياتنا هي حقوقنا وتراثنا القانوني... وليست بحال من الاحوال اقل شأناً من اراضينا ومتاعنا... ولا يمكن انتزاعها منا، دون ان يكون في ذلك اساءة صارخة الى المملكة بأسرها»(٣٦).

وامام تمسك جيمس الاول بالسلطة الالهية المطلقة في الحكم واعتباره لامتيازات اعضاء مجلس العموم منحة ملكية خالصة قد فتح الباب على مصراعيه في الخلاف الدائر بينه وبين البرلمان وذهب بعيداً عندما تحدى البرلمان باصداره القوانين التي تختص بالشؤون المالية، بحيث لن يكون هذا التحدي موضع غفران في المستقبل من قبل مجلس العموم. واعلن سنة ١٦٠٩ عن تمسكه بهذا الحق بقوله: «ان مقام الملكية هو اسمى شيء على الارض لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله فحسب، بل ان الله نفسه يسميهم آلهة أو أرباباً... ان الملوك يسمون بحق آلهة، لأنهم يمارسون شيئاً شبيهاً بالسلطة الالّهية على الأرض. فانكم لو تدبرتم في صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة في شخص الملك، ان الله قادر على الخلق أو التدمير والافناء، على البناء والهدم وفق مشيئته، يبعث الحياة أو يرسل الموت، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد... وللملوك نفس القدرة او القوة. انهم يصنعون رعاياهم أو يحطمونهم، ولهم القدرة، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم، وفي كل الامور، ومع ذلك لا يحاسبهم احد الا الله وحده. ولهم السلطة في ان يجعلوا من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيف شاءوا ـ فالبيدق يطيح بأسقف أو بفارس ـ فيرفعون اياً من رعاياهم الى عنان السماء أو يخسفون به الأرض، وكأنما يتصرفون في اموالهم»(٣٧).

لقد اثارت مفاهيم الملك في السلطة البرلمان الانكليزي الذي اكد اعضاؤه على عدم تنازلهم عن امتيازاتهم واختصاصاتهم التي تعتبر من صميم تراث الشعب الانكليزي نفسه. معلنين في نفس الوقت عن معارضتهم الشديدة لحكمه المطلق في « الاحتجاج الاعظم » سنة ١٦٢١ الذي اكد ان « الحريات والاعفاءات والامتيازات، وسلطة البرلمان، هي التراث القديم وحق المولد غير مشكوك فيهما لابناء انجلترا » وعندما عجز جيمس الاول عن كبح جماح البرلمان لجأ الى حله سنة ١٦٢٢ متهماً عدد من اعضائه ومنهم جون بيم (PYM) زعيم ثورة البيورتان بالخيانة العظمى.

أما شارل الأول ( ١٦٢٥ - ١٦٤٩ ) الذي تسلم عرش الملكية الانكليزية فقد كان كأبيه جيمس الاول ميالاً الى الاستبداد. فحاول عن طريق اعلان الحرب على اسبانيا وتأييد هيغونوت فرنسا ان يكتسب مزيداً من التأييد الشعبي يقف حائلاً دون مطاولة البرلمان على سلطته. إلا أن هزائمه العسكرية جعلته يفرض القروض على التجار والصناع واصحاب رؤوس الأموال مما جعل البرلمان يتدخل ليحسم هذه القضية فاجتمع اعضاؤه سنة ١٦٢٨ واصدروا وثيقة سميت « ملتمس الحقوق » طالبوا فيها الا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان وأن لا يسجن أحد إلا بموجب القوانين وان لا يجبر احد على ايواء الجند في منزله. وأمام حاجة الملك المتزايدة للأموال التي لا بد من موافقة البرلمان على تقديمها له رضي بهذه المطالب مرغماً. إلا أن العلاقة ما لبثت أن تأزمت بينهما عندما طالب أعضاء البرلمان سنة ١٦٢٩ بعزل الدوق بكنجهام (Duc of Buckingham) الذي كان موضع ثقة الملك وموضع سخط الشعب في نفس الوقت. فاعتبر شارل ذلك تعدياً فاضحاً على سلطته الالهية التي لا يمكن لأحد أن يمليها عليه. وقد أدى تفاقم النزاع حول السلطة الدينية بينهما فيما بعد إلى اصدار مرسوم ملكي يقضي بحل البرلمان. فظلت انكلترا مدة احدى عشرة سنة ( ١٦٢٩ - ١٦٤٠ ) يحكمها شارل دون أن ينازعه أحد السلطة التي استغلها الى ابعد الحدود [٣٨].

لقد جاء اعضاء برلمان سنة ١٦٤٠ الذين انتخبوا حديثاً أو أعيد انتخابهم اكثر تمسكاً من قبل بسلطتهم التي نصت عليها القوانين. مما انذر بوجوب هبوب عاصفة في سماء انكلترا بحيث لم يكن احد لينكرها امام ازدياد تفاقم النزاع بين الملك والبرلمان. فقد توصل البرلمان الى اتهام مستشار الملك (سترافورد) والحكم عليه بالاعدام والى اعتقال مستشاره الديني لود (Laud) رئيس الاساقفة بسبب تأييده القوي للملكية المطلقة. كما اجبر الملك على اقرار قانون يفرض دعوة البرلمان للاجتماع مرة واحدة على الأقل كل ثلاث سنوات متنازلاً عن حقه السابق في حل البرلمان. واصلح نظام الضرائب كما الغى بعض المحاكم التي تتعارض مع سلطته ومنها «غرفة النجم» التي كانت ترمز الى الاستبداد الملكي (٣٩). وقضى على الاحتكارات وعلى ضريبة السفن التي أقرها الملك من قبل.

هذه القوة المتزايدة للبرلمان وضعته بمواجهة الملكية ولم يعد امام الفريقين اي خيار لحسم هذا الموضوع سوى اللجوء الى القوة. فبادر الملك سنة ١٦٤٢ الى القيام بمحاولة اعتقال زعيم المعارضة بيم وبعض مناصريه عندما دخل قاعة مجلس العموم مع بعض الجنود. الا ان فشله اثار بوجهه معارضة شديدة اضطرته الى الهرب من لندن واللجوء الى المناطق الشمالية ليستقر في مدينة يورك مع بعض اللوردات والنواب الذين انضموا اليه.

وهكذا بدأت تظهر تباشير ثورة حقيقية في انكلترة التي أصبحت الآن قسمان متنافران، انحاز أحدهما إلى البرلمان (لندن والمدن الصناعية) أي معظم الطبقة الوسطى وجزء من اللوردات الذين مارسوا اعمال البورجوازيين بالاضافة إلى البيورتان. وانضم إلى الملك معظم الارستقراطيين والزراعيين والكاثوليك والانكليكانيين (٤٠).

ظلت المناوشات العسكرية الدائرة بين انصار المَلكية وانصار البرلمان طيلة سنتين متتاليتين دون ان يحسم اي فريق القتال لصالحه. إلا ان الموقف اخذ

يتغير منذ سنة ١٦٤٤ لصالح البرلمان عندما برز في صفوف مقاتليه احد صغار الملاكين الذين تمتعوا بسمعة حربية عظيمة في المعارك محولاً الهزيمة الى نصر مبين. هذه الشخصية هي اوليفر كرومويل (CROMWELL) البيورتاني الذي سيلعب دوراً بارزاً في تاريخ انكلترا بل في انتقال انكلترا من عصر الى آخر من عصر الملكية المطلقة الى عصر الملكية المقيدة. وفعلاً وضعت الحرب الاهلية الاولى اوزارها بعد الانتصارات الباهرة التي حققها جنود كرومويل «الحديديون» البيورتان. فاستسلم الملك الى الاسكتلنديين الذي قايضوا عليه بالمال. فاصبح ملك بريطانيا في سنة ١٦٤٧ أسيراً للبرلمان لمدة سنتين في جزيرة ويت.

## ٢ ـ الجمهورية

في الوقت الذي كان البرلمان يفاوض فيه الملك للقبول بالشروط الدينية الجديدة التي املتها اتفاقياته مع الاسكتلنديين الذي وقفوا ضد الملك (نص الاتفاق على الغاء الحكومة الاسقفية الانغليكانية واقرار التنظيم المشيخي بدلاً عنه) كانت البلاد في حالة انقسام وفوضى تكاد تقضي معها على الانتصارات التي حققها تحالف «الجمهوريين» ضد السلطة المطلقة. وعندما حاول البرلمان تسريح جنود كرومويل الذين اصبحوا عبئاً ثقيلاً على الدولة، قام جماعة منهم واسروا الملك. فاستغل كرومويل هذه الحادثة واسرع على راس جنوده ودخل لندن وقبض على زمام الامور فيها. وكادت انكلترا تقع مرة ثانية فريسة حرب اهلية ضارية الا ان كرومويل استطاع بفضل عزيمة جنوده البيورتانيين القضاء التام على تحركات الملكيين الاسكتلنديين.

وامام اصرار البرلمان من جديد على مفاوضة الملك، اقتحم جنود كرومويل مجلس العموم، وطردوا منه الملكيين والمعارضين لسياسته وأقر الباقون منهم وعددهم ستة وخمسين نائباً قانوناً ينص على أن شن الملك الحرب على البرلمان يعتبر خيانة عظمى، ولما رفض مجلس اللوردات هذا القانون قرر النواب عندها «أن الشعب بعد الله مصدر كل سلطة عادلة، وأن النواب، وهم يمثلون الشعب، أصحاب السلطة العليا في هذه الأمة، وأنه بناء على ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون، دون موافقة اللوردات أو الملك»[٤١]. وفي سنة ١٦٤٩ قدم شارل الأول للمحاكمة فأنكر سلطة المحكمة في محاكمته معلناً بأن حكومة يديرها برلمان يسيطر عليه الجيش هي أسوأ طغياناً من أي طغيان اظهره هو. إلا أن قرار القضاة ومن بينهم كرومويل كان حاسماً في هذا الشأن فحكم عليه بالاعدام بعد محاكمة عاجلة وضعت حداً نهائياً لعصر من العصور التاريخية التي عرفتها انكلترا...

لقد اعلنت انكلترا جمهورية على اثر اعدام الملك في ١٩ ايار ١٦٤٩. فالغي مجلس اللوردات واصبح كرومويل زعيماً دون منازع. وظل يقاوم حركات الانفصال والتمرد التي قامت في ايرلندا واسكتلندا حتى قضى عليها ليؤسس دولة باسم رابطة الشعوب البريطانية تشمل نفوذها انكلترا واسكتلندا وايرلندا والجزر المجاورة لها.

لم يكن كرومويل ليرضى بعد هذا النصر العسكري بوجود أية مؤسسة تقاسمه السلطة. فأمر باغلاق قاعة البرلمان وحل مجلس الدولة واصبح ملكاً غير متوج على انكلترا. وشكل « برلماناً » من ١٤٠ رجلاً من البيورتانيين من بينهم خمسة من اسكتلندا وستة من ايرلندا ليكونوا بمثابة برلمان معين. إلا ان هؤلاء فشلوا في وضع دستور جديد للبلاد. فحله كرومويل كما حل البرلمان الجديد الذي تم انتخابه. وظل يحكم انكلترا باسم « حامي الجمهورية » حتى وفاته سنة ١٦٥٨ معتمداً على جيش قوي جاعلاً من جنرالاته يديرون شؤون الدولة التي جعلها احدى عشرة مقاطعة. يذكر فيشر (المؤرخ الانكليزي) عن عهد كرومويل قائلاً: « ولئن كان عهد الجمهورية والدكتاتورية قد زخر بالمناقشات السياسية والتجارب الدستورية، الا انه ينبغي اعتباره فترة فراغ في تاريخ الشعب الانجليزي الداخلي اكثر منه مساهمة في تقدمه، ذلك لأن الاعمال التي بدىء بها أو التي تمت في عهد الحكومة غير الملكية لم تعمر بعد ذلك. ولم يكن في استطاعة اوليڤر - كما قيل حقاً - ان يحكم بالبرلمان او بدونه. فقد استحال عليه بحكم طبيعته ان يكون من عشاق الحرية أو حاكماً دستورياً، واضطره عنف الاحداث الثورية الى حكم البلاد حكماً عسكرياً، وهو حكم لم تكن له جذور من رضى الشعب، ولو قد استفتي الشعب في حرية في اي وقت بعد اعدام شارل الأول اذاً لأعاد الملكية الى انجلترا »[٤٢].
كان كرومويل قد اوصى بالحكم من بعده لابنه الاكبر ريتشارد الذي اضفى عليه لقب « الحامي » وبعد وفاة كرومويل سنة ١٦٥٨ ثبت مجلس العموم وصيته باقرار تعيين ريتشارد رئيساً للدولة.

لم يكن ريتشارد كوالده يتمتع بقوة الشخصية والموهبة العسكرية اللذين اوصلاه الى هذا المنصب. خاصة ان انكلترا في هذه الفترة كانت تغلي كالمرجل. فالملكيـون راحوا ينددون بحكم الجمهورية مستغلين الفوضى وزيادة الضرائب وعدم الاستقرار. اما قواد الجيش فقد رغبوا في الاحتفاظ بالسلطة وقيادة البلاد، فاصطدموا باعضاء مجلس العموم. فما كان من ريتشارد الا ان قدم استقالته للبرلمان معتزلاً الحياة العامة بعد حوالى ستة اشهر من توليه لمنصبه. وفي هذه الاثناء برز احد القواد العسكريين ويدعى منك (Monk) الذي كان يرابط في اسكتلندا مع عشرة الاف جندي لاقرار السيادة فيها للبرلمان، وزحف على انكلترا بقواته واقر النظام فيها. وقد رأى منك ذو الميول الملكية عدم استحالة السيطرة على البلاد الا بارجاع الملكية. فكاتب شارل الثاني الوريث المنفي الذي قبل العودة لتسلم الحكم منهياً بذلك فترة الحكم الجمهوري التي لم تتجاوز العشر سنوات.

## ٣ - عودة الملكية: شارل الثاني ( ١٦٦٠ - ١٦٨٥ )

كان من المستحيل على ملكية ستيوارت كغيرها من الملكيات الاوروبية في ذلك العصر ان تؤمن بالسيادة الشعبية على حساب سلطتها الالهية المطلقة. ومع حرص شارل الثاني على عدم الاصطدام بالحواجز التي اودت بحياة ابيه وخاصة قوة البرلمان ومن يمثل من القطاعات المختلفة الاقتصادية منها والدينية. الا ان سياسته مع الكاثوليك الذين وقفوا الى جانب والده في انكلترا كما وقفوا معه في منفاه جعلته يصدر مراسيم التسامح في انكلترا كما انه عقد معاهدة دوفر السرية مع لويس الرابع عشر ضد الهولنديين لقاء معونة مالية. هذه السياسة حملت البرلمان في سنة ١٦٧٣ على اصدار « قانون الاختبار » اخضع بموجبه جميع اصحاب الوظائف في انكلترا ان يقسموا علناً على تخليهم عن بعض الطقوس الكاثوليكية وان يدينوا بمذهب الكنيسة الانغليكانية.

لقد ادى الخلاف القوي بين اعضاء البرلمان حول من يتسلم العرش بعد شارل الثاني الذي لم يعقب ولداً الى قيام تيارين اثنين تمثل اولهما بحزب الويج (Wigs) الذي رفض انصاره من البيورتان تسلم جيمس الثاني اخ شارل العرش الانكليزي لميوله الكاثوليكية الخالصة، مصرين على حصر حق وراثة العرش بالبروتستانت فقط. اما ثانيهما الذي عرف بالتوريز (Tories) فقد اصر اعضاؤه من المحافظين من رجال الدين والنبلاء على شرعية وراثة جيمس الثاني للعرش الانكليزي. وامام هذا الانقسام في الرأي واقرار مجلس العموم لمشروع « قانون الاستبعاد » عمد شارل الثاني عندها الى حل البرلمان سنة ١٦٨١، قبل ان يصل المشروع الى مجلس اللوردات واخذ يحكم البلاد بواسطة مستشارين حتى وفاته سنة ١٦٨٥.

## ٤ ـ الثورة الجليلة (١٦٨٨)

تسلم جيمس الثاني (١٦٨٥ ـ ١٦٨٨) بعد شارل الثاني السلطة في انكلترا. ودفعته ميوله الكاثوليكية الى تسليم الكاثوليك بعض المناصب العليا المدنية منها والعسكرية، والى الافراج عن السجناء ومنع اقامة الدعوى في المسائل الدينية. ولما كان المفهوم السائد عند الشعب الانكليزي بأن اي تبدل في الفكر الديني سوف يقضي على استقلالهم السياسي، فقد عم الاستياء من سياسة الملك ازاء الكنيسة الانغليكانية بتقربه من الكاثوليك. وانفجر الصراع بينه وبين البرلمان عندما طلب الغاء قانون الاختبار وتعديل قانون حق التحقيق في قانونية الاعتقال.

وفي غمرة هذا الصراع ولد لجيمس الثاني الطاعن في السن ولد ذكر. فادرك الانكليز عندها بأنهم سوف يحكمون بواسطة سلسلة من الملوك الكاثوليك بحيث بات من المؤكد لديهم عودة انكلترا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية. فاجتمع عندها زعماء الحزبين وأرسلوا الى حاكم هولندا وليم اورانج زوج ماري ابنة الملك البروتستانتية، يطلبون اليه مهاجمة انكلترا وانقاذهم من الملك الكاثوليكي. فنزل وليم سنة ١٦٨٨ على الشاطىء الانكليزي على رأس جيش مكون من مختلف الفرق والنزعات البروتستانتية في اوروبا. ففر عندها جيمس الى فرنسا بعد ان انضم اليه معظم القادة الانكليز العسكريين. وبذلك اصبح وليم وماري ملكا انكلترا المتوجين بعد ان قبلا « بوثيقة الحقوق » وقانون التسامح الديني اللذين اقرهما البرلمان بمجلسيه.

تضمنت « وثيقة الحقوق » اعترافاً صريحاً بسيادة البرلمان في أمور التشريع. فنصت على عدم جواز ابطال أو تعديل اي قانون يصدر عن البرلمان على ان يبقى حق فرض الضرائب الجديدة وتشكيل الجيوش الدائمة مشروطاً بموافقة البرلمان. كما نصت على عدم التعرض لحرية المواطن وعدم سجنه من غير

محاكمة قانونية. اما قانون التسامح الديني فقد منح البروتستانت المعارضين للكنيسة الانغليكانية حق ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة. اما قانون التسوية الذي صدر سنة ١٧٠١ فقد نص على عدم جواز تسلم الكاثوليك لعرش انكلترا. فآل التاج بعد وليم الثالث الى «آن» ابنة جيمس الثاني لأن وليم وماري لم ينجبا وريثاً للعرش. اما قانون الوحدة الذي اصبحت بموجبه اسكتلندا وانكلترا مملكة متحدة فقد صدر سنة ١٧٠٧. فتكونت بذلك المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى.

وهكذا نقلت ثورة ١٦٨٨ السلطة من يدي الملك ووضعتها بين يدي اعضاء البرلمان وعلى قاعدتها تأسست في انكلترا حكومة اوليجاركية من النبلاء الملاكين وكبار التجار وملوك الصناعة [٤٣].

## هوامش الفصل الخامس

(١) انظر تأثير هذه الحرب على الارستقراطية الانكليزية والفرنسية على حد سواء.
Jean. FAVIER: La guerre de Cent Ans. Fayard. Paris 1980. P 361

(٢) رولان موسينيه: تاريخ الحضارات العام. ترجمة يوسف وفريد داغر. منشورات عويدات بيروت ١٩٦٦ الجزء الرابع ص ١٤٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٣.

(٤) بوريس سوتشكوف: المصائر التاريخية ترجمة محمد عيتاني. وأكرم الرافعي. دار الحقيقة. بيروت ١٩٧٤ ص ١٤. ايضاً ف. فولفين: فلسفة الأنوار. ترجمة هنرييت عبودي. دار الطليعة بيروت ١٩٨١ ص ١٧.

(٥) قارن: رولان موسينيه. المرجع نفسه ص ١٤٨.
انظر الفصل الخاص بهذا الموضوع عند Régine. PERNOVD: Histoire de la bourgeoisie en france éd. du Seueil. Paris 1981 P. 318.

(٦) لينين: الدولة والثورة. دار التقدم موسكو ١٩٦٧ ص ١٤.

(٧) البيرسوبول: تاريخ الثورة الفرنسية. ترجمة جورج كوسى منشورات عويدات بيروت ١٩٧٠ ص ٦٧.

(٨) المرجع السابق ص ٦٦.

(٩) المرجع السابق ص ٦٤.

(١٠) METHIVIER. H: LE siècle de louis XIV. (Que sais-je?) N° 426. Presses Universitaires de France Paris 1968. P. 28.

(١١) نور الدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة الاوروبية دار الفكر الحديث بيروت ١٩٦٨ ص ٢١٩ وما بعدها.

(١٢) حول ريشليو واعماله وسياسته الدينية انظر BATIFFOL. L: Autour de Richelieu Paris 1937.

(١٣) ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٩) ص ٢٤٨.

(١٤) رولان موسينيه: تاريخ الحضارات الجزء الرابع ص ٣٢٧.

(١٥) ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٢٩) ص ٢٥٧.

(١٦) كان جوليو مازاران الصقلي احد دبلوماسيي روما. اوفده البابا مبعوثاً له إلى باريس سنة ١٦٤٠ وهناك تعرف على ريشليو الذي كافأه «بقبعة الكاردينالية». راجع GRAND-MESNIL. M. N: Mazarin, la Fronde et la presse 1647 - 1649 Armond colin. Paris 1967, P. 8.

(١٧) يحتوي كتاب (GRAND-MESNIL) على عديد من الرسائل التي تهاجم سياسة مازاران وكيفية معالجته لها. وهي وكانت معبرة عن اوساط البرلمانيين الذين دافعوا عن حقوقهم القديمة في المملكة الفرنسية وعن حقهم في مراقبة سياسة ومالية المملكة معتبرين مازاران اجنبي بعاداته وتفكيره. (P. 122). بينما هاجمه الفريق الآخر بمن فيهم الشعراء من زاوية شن الحرب على اسبانيا ومن زاوية زيادته للضرائب. (P. 189). انظر تفنن البعض في التهكم على مازاران وسياسته تحت عنوان Les Veritez Mazariniques sur Chaque lettre du Non de Mazarin P 207.

(١٨) للتوسع في احداث الفروند انظر: LORRIS. P-G:La Fronde, Paris 1961

ايضاً: FEILLET. A: La Misère au temps de la Fronde Paris 1962.

(١٩) ديورانت: قصة الحضارة الجزء ٣١ ص ٢٦.

(٢٠) METHIVIER. H: Op. cit. P 58.

(٢١) Ibid: P 57.

(٢٢) ZELLER. G: Aspects de la politique française sous l'ancien régime. Presses Universitaires de France. Paris 1964. P 335

(٢٣) كان يبلغ عدد نقط المكوس بين سويسرا والمانش ٣٢ نقطة جميعها تتقاضى رسوماً على التجارة.

(٢٤) METHIVIER. H: Op. Cit P 103

(٢٥) ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٣١) ص ١١١.

(٢٦) ينسبون إلى جانبسينيوس وهم من انصار مذهب الغفران والحتمية وهي بدعة تخالف تعاليم الكنيسة بما خص الخطيئة والنعم. انظر: كلود دلماس تاريخ الحضارة الاوروبية. ترجمة توفيق وهبه مكتبة الفكر الجامعي. منشورات عويدات ١٩٧٠ ص ٥٦.

(٢٧) رولان روسينيه: تاريخ الحضارات الجزء الرابع ص ٣٣٤.

(٢٨) METHIVIER. H: Op. Cit P 82

(٢٩) Ibid: P 84

(٣٠) ZELLER. G: Op. Cit. PP. 77,79

(٣١) METHIVIER. H. Op. Cit P 71

(٣٢) انظر عبدالمجيد نعنعي: مرجع مذكور ص ١٤٦.

(٣٣) ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٣١) ص ٢٤٩.

(٣٤) راجع حسن كامل سليم: تاريخ اوروبا الاقتصادي في القرن التاسع عشر. الفصل الثالث ص ٧٧. ملتزم التوزيع مؤسسة المطبوعات الحديثة. الاسكندرية ١٩٥٨.

(٣٥) ورث العرش الانكليزي بعد اليزابيت جيمس ابن شقيقتها ماري التي كانت متزوجة

من فرنسوا الثاني ملك فرنسا سابقاً. وكانت ماري هذه ملكة اسكتلندا كاثوليكية متعصبة. فنبذها الاسكتلنديون البروتستانت فلجأت إلى اليزابيت التي سجنتها مدة تسعة عشر عاماً لتحكم عليها اخيراً بالاعدام. وبتوليه جيمس السادس ملك اسكتلندا عرش انكلترا اصبح يعرف باسم جيمس الأول. وبذلك يبدأ تاريخ انكلترا في عهد ملكية آل ستيوارت.

(٣٦) ديورانت: قصة الحضارة. الجزء (٢٨) ص ٢٠٩.

(٣٧) المرجع السابق ص ٢٠٧.

(٣٨) يذكر هولت ان هذه الفترة التي يطلق عليها اسم «الاحدى عشرة سنة الاستبدادية» سميت كذلك ليس لأن الملك كان يحكم بنفسه بل لأنه لم يحكم وفقاً لقوانين انكلترا القديمة.
انظر: هولت. ب. م.: صانعو أوروبا الحديثة. ص ١٦٠. ترجمة موفق شقير. وزارة الثقافة والارشاد القومي. دمشق ١٩٨٠.

(٣٩) محكمة انشأها هنري السابع لمساعدة الملوك ضد الاشراف. ولجمع المال منهم بطرق غير شرعية.

(٤٠) ناصر مجلس العموم باكثريته الثورة وكان يضم ٤٧٥ عضواً وقف منهم نحو ثلاثمائة ضد الملك اما مجلس اللوردات فقد وقف منهم نحو الثلاثين الى جانب الثورة.

(٤١) ديورانت: قصة الحضارة الجزء ٢٨ ص ٣٢٩.

(٤٢) فيشر: مرجع مذكور ص ٢٩٤.

(٤٣) راجع هولت. ب. م: مرجع مذكور ص ١٧٦
ايضاً عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث. دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١ ص ٢٤٣.

# الفصل السادس

# اختلال توازن القوى

## أولاً: الروسيا في عهد بطرس الأكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥)

بدت الروسيا في القرن السابع عشر أكثر دول القارة الأوروبية رجعية. فبينما كانت تنعم بقية القارة بثمار النهضة التي ظهرت بوادرها واضحة في ايطاليا ومنها تسربت الى دول غرب اوروبا، كانت الروسيا حتى ذلك الوقت تتحكم فيها مفاهيم القرون الوسطى، يسودها الجهل الاجتماعي المشبع بالخرافات، والتفكك القومي الناتج عن الوصول الى العرش والسلطان بقوة السلاح، وانحلال مؤسسات الحكم السياسي لتفشي الرشوة في الادارة وسيطرة الحكام والطبقة العليا على مقدرات البلاد الاقتصادية. وقد ذهب احد المعاصرين في وصفه لحالة الروسيا في هذا العصر الى القول: « إذا تمعن الفرد في طبيعة حياة المسكوفيين واساليبهم اضطر الى التسليم بانه لن يجد شيئاً آخر يفوق ذلك الشعب الروسي همجية. انهم لا يتعلمون اي فن او علم او يأخذون انفسهم باي لون من الوان الدراسة، وعلى النقيض من ذلك بلغ بهم الجهل انهم يظنون ان ما من انسان يستطيع ان يضع تقويماً الا اذا كان ساحراً أو يتنبأ بدورة القمر وحركة الكسوف والخسوف، الا اذا كان على اتصال بالشياطين »[1].

هذه الظاهرة التي ميزت الروسيا عن غيرها من دول اوروبا ابان عصر النهضة، كانت وليدة الظروف الموضوعية والعوامل التاريخية التي شهدتها الروسيا منذ فجر العصور الوسطى. فالروس اعتنقوا المسيحية على المذهب

الارثوذكسي مما حال بطبيعة الامر دون الاتصال الحضاري مع غرب اوروبا الكاثوليكي الذي كان بدوره شديد التعصب لمذهبه. لذلك رفض الروس جميع مظاهر الحياة حتى ان بعضهم كان يرى في دراسة اللاتينية خطراً عظيماً على الارثوذكسية. كما ان الروسيا كانت اكثر الدول التي دفعت ضريبة الاحتلال البربري خلال العصور الوسطى وذلك لقربها من المنبع الاساسي لهذه القبائل التي كانت تقطن جهات منغوليا والصين واكثر الدول احتكاكاً بالشعوب الاسيوية التي كانت خلال هذا التاريخ اكثر الشعوب بداوة وتأخراً [٢]. ومما زاد أيضاً في عزلة الروسيا عن منابع الحضارة الكلاسيكية التي عرفتها اوروبا منذ القرن الخامس عشر الموقع الجغرافي والحصار الدولي الذي فرض عليها من قبل الاتراك العثمانيين من الجنوب لسيطرتهم على جميع اراضي البحر الاسود. ثم من دولة بولندا القوية من الغرب التي كانت تحول دون اي امتداد روسي في تلك الجهات. اما دولة السويد فقد كانت تسيطر على شواطىء البلطيق والملاحة فيه. ولم يكن للروسيا سوى منفذ وحيد على اوروبا بواسطة ميناء اركانجل (Archangel) على المحيط المتجمد الشمالي الذي تتجمد مياهيه اكثر ايام السنة.

لقد شارك في تأخر الروسيا، الى جانب رجال الدين، مجموعة من اسرة روريك (Ruric) السويدية الأصل تعاقبوا على عرش الدولة ومارسوا الوان العسف في نفس الوقت. فلا برلمان ولا مدن حرة ولا نقابات حرف حتى ولا نظام معين للطبقات الاجتماعية. اما المرحلة التي اعقبت حكم اسرة روريك فقد امتازت بالفوضى وعدم الاستقرار. فأظهرت الدول المجاورة (بولندا والسويد) طمعها في اراضي الروسيا وهاجمتها من جميع الاطراف. ولكن الشعب الروسي نجح في معارضته للحكم البولندي وهب باجمعه بدافع الشعور القومي ليطرد البولنديين من موسكو. ولم تستقر الامور في الروسيا الا بعد موافقة المجلس الوطني المكون من الامراء على اعتلاء ميخائيل رومانوف عرش الامبراطورية عام ١٦١٣ [٣].

لم يكن اختيار ميخائيل للعرش نابعاً من كونه يتصل عن طريق النسب بالاسرة السابقة فقط بل لكونه صغيراً لم يتجاوز الخامسة عشرة يفتقر الى الخبرة في شؤون الحكم ليظل تحت مراقبة النبلاء وسيطرتهم. حكم ميخائيل حتى سنة ١٦٤٥ . فتولى بعده العرش ابنه الكسي الذي استرد من البولونيين اوكرانيا الشرقية ومدينة كييف. ثم حكم من بعده ابنه فيدور (Fedor) بين السنتين (١٦٧٦ - ١٦٨٢) ولكن الروسيا لم تمارس نفوذها كدولة ذات شأن الا عندما تولى حكمها بطرس الأخ الثاني لفيدور الذي استحق بالفعل لقب «الأكبر»(٤).

كان بطرس صغير السن عندما ورث سلطان الروسيا. فتولت الوصاية عليه شقيقته صوفيا التي حاولت الاستئثار بالسلطة بمساعدة الحرس الامبراطوري. الا ان بطرس استغل فشل صوفيا في حربها ضد الاتراك واعلن نفسه قيصراً حاكماً على الروسيا سنة ١٦٨٩ بعد ان بعث بأخته الى احد الاديرة.

تمثلت اعمال بطرس الأكبر خلال حكمه في تثبيت سلطته المطلقة على حساب النبلاء والكنيسة. وفي اخراج الروسيا من عزلتها السياسية والحضارية وكسر الطوق الذي فرض عليها من جهات البلطيق والبحر الاسود.

## ١ ـ سياسة بطرس الأكبر التوسعية

انطلاقاً من ان ازدهار الاقتصاد الروسي لن يتم الا بالوصول الى البحار الدافئة لتنشيط التجارة عبر الاتصال بالعالم الخارجي. شن بطرس الأكبر حروباً عديدة وطدت مركزه في الداخل ورفعت شأن الروسيا في المجال الدولي.

### أ ـ الحرب الروسية ـ العثمانية

كانت اولى حروب بطرس الأكبر، ضد الاتراك العثمانيين الذين كانوا يسيطرون على سواحل البحر الاسود، مفتاح الروسيا الجنوبي. فاستغل فرصة انشغالهم بالحرب ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة والقى الحصار عام ١٦٩٥ على حصون آزوف (Azov) التي تقع على الاسود عند مصب نهر الدون. ولما كانت هذه الحصون تتلقى الامدادات من البحر فقد شرع بطرس في بناء اسطول حربي استطاع بواسطته السيطرة التامة على آزوف وعلى جميع سهول حوض نهر الدون. وفي معاهدة كارلوفيتز (Carlovitz) سنة ١٦٩٩ تنازلت تركيا للروسيا عن حصن ازوف. وبهذا تكون الروسيا اول الدول الأوروبية التي وضعت من جديد ما هو معروف في التاريخ الحديث «بالمسألة الشرقية».

### ب ـ الصراع الروسي ـ السويدي

كانت السويد في القرن السابع عشر من الدول الاوروبية العظمى، تسيطر على شواطىء فنلندة (Finland) واستونيا (Esthonia) وانغريا (Ingria) وليفونيا (Livonia) وعلى الجزء الاكبر من بوميرانيا بقوة السلاح. ولما كانت رغبة بطرس الأكبر في التوسع نحو جهات البلطيق فقد عقد معاهدة مع ملك بولندا ضد السويد نظراً لادعاء بولندا في ملكيتها

لمقاطعتي ليفونيا واستونيا. وقد انضم الى هذا الحلف ملك الدانمرك الذي كان يرغب في ضم دوقيتي شلزفيك وهولشتاين. ولكن سرعان ما هاجم شارل الثاني عشر ملك السويد كل من الدانمرك وبولندا وانزل الهزيمة بهما واجبرهما على الانسحاب من الحرب. وعلى الرغم من قلة عدد جيشه فقد استطاع ان ينتصر على الروس الذين كان يقودهم القيصر نفسه في معركة نارفا (Narva) سنة ١٧٠٠، فانسحب عندها بطرس الى داخل الروسيا مدافعاً عن عاصمتها.

لم يكتف ملك السويد بهزيمة بولندا بل انه قرر احتلالها وخلع ملكها. فزحف على وارسو واحتلها عام ١٧٠٢ وبقي يمارس نشاطه العسكري فيها فاسحاً في نفس الوقت المجال امام بطرس الأكبر لينهض من هزيمته ويعيد بناء جيشه من جديد. وفعلاً هاجم بطرس سواحل البلطيق واستولى على قسم كبير منها. ولكن ملك السويد ازاء التقدم الروسي في جهات البلطيق، عزم على ضرب القوة الروسية كما فعل من قبل مع بولندا والدانمرك. وشرع عام ١٧٠٨ بالزحف نحو موسكو. الا ان بطرس الاكبر امتنع عن مواجهته والاشتباك معه وأمعن في استدراجه داخل الروسيا حتى قاست الجيوش السويدية من شدة سوء المناخ وقلة الامدادات وفعل المفاجأة والحرب الخاطفة التي مارسها الروس طيلة شتاء ١٧٠٨ - ١٧٠٩. وفي موقعة بولتافا (Poltava) تموز ١٧٠٩ هزم الجيش السويدي شر هزيمة وفر الملك شارل الثاني عشر مع فلول جيشه الى تركيا ليحل ضيفاً على السلطان العثماني.

حققت معركة بولتافا للروسيا الزعامة على الدول المجاورة والحصول على منفذ على بحر البلطيق. وشددت من مركز بطرس الأكبر في الداخل وقضت على دولة القوزاق التي ساندت السويديين. كما انها ادت الى اضمحلال قوة السويد وفقدانها الزعامة على دول شمال اوروبا. اذ استعاد اوغسطس عرشه على بولندا ونقض فريدريك ملك الدانمرك اتفاقية ترافندال (Travendahl) السابقة وسعى كل منهما الى التوسع على حساب السويد نفسها.

نجح ملك السويد، شارل الثاني عشر، اثناء وجوده في تركيا في حمل

السلطان العثماني على اعلان الحرب على الروسيا. فاعلن السلطان الحرب اواخر عام ١٧١٠ وبدأت المعارك الاولى لصالح الاتراك وكاد بطرس الاكبر ان يقع اسيرهم عند نهر بروث (Bruth) احد روافد الدانوب ولكنه استطاع النجاة باعجوبة معتمداً على رشوة القائد التركي وغبائه. وفي سنة ١٧١١ تنازل بطرس الاكبر عن آزوف في معاهدة بروث. اما الملك شارل فقد بقي في تركيا حتى عام ١٧١٤ حيث رجع الى بلاده ليجدها عرضة لمطامع بطرس الذي استولى على ليفونيا وبدأ يتوسع في جهات البلطيق على حساب حليفته بولندا. وفي سنة ١٧١٨ اغتيل شارل غدراً ليقوم نظام جديد للحكم يعمل على استعادة مركز السويد بين دول اوروبا. ولم تنته احداث السويد مع بطرس الأكبر الا عام ١٧٢١ عندما وقعت السويد مع الروسيا اتفاقية نايشتات (Nystadt) تنازلت بموجبها عن جميع اراضيها شرق بحر البلطيق عدا فنلندا.

هيأت معاهدة نايشتات لبطرس الأكبر فرصة للتطلع نحو تحقيق اماله في التوسع عبر ولايات جورجيا وفارس القوزاقية والسيطرة التامة على جميع شواطىء بحر قزوين مستغلاً الاوضاع المتردية في فارس والتنازع على العرش. ومع انه نجح في الاستيلاء على الأراضي الفارسية، الا ان السلطان العثماني اعلن معارضته للتوسع الروسي في ايران. فاثر بطرس الاكبر عدم الدخول في حرب مع العثمانيين. ووقع الطرفان سنة ١٧٢٤ معاهدة قضت بحصول الروسيا على سواحل بحر قزوين وبعض الولايات الفارسية الشمالية حتى نهر اراس. ولكن الدولة الايرانية عهد نادر شاه بعد سنة ١٧٢٥ استرجعت ما سبق ان استولت عليه الروسيا عهد بطرس الأكبر(٥).

## ٢ ـ اصلاحات بطرس الأكبر

كانت حالة الروسيا قبيل تسلم بطرس الاكبر مقاليد الحكم متأخرة في جميع المجالات الاقتصادية. فالمواصلات فيها سيئة، والحياة الزراعية التي يعمل فيها قطاع واسع من عامة الشعب تكاد تكون بدائية، اما التجارة الخارجية فقد كانت شبه معدومة نظراً للموقع الجغرافي وللحصار الدولي الذي كان مفروضاً على الروسيا من جهات العثمانيين والبولنديين والسويديين. ولهذا فان مواردها الاساسية تنحصر في وفرة الاخشاب وفراء الحيوانات والمواشي وبعض المنتوجات الزراعية.

ولما كان الوضع الاجتماعي يرتبط بالحالة الاقتصادية فقد كان يسود البلاد مجموعة من العادات والتقاليد عمل على تكريسها وتغذيتها الحكام القياصرة والطبقة النبيلة المسيطرة على مقاليد السلطة بدافع الاستئثار بموارد الدولة الاقتصادية. هذا الوضع الاجتماعي كان ينعكس بدوره على مؤسسات الحكم والادارة والجهاز العسكري. فانتشرت الرشوة والفساد والفوضى حتى بات الامر يدعو الى وجوب قيام حركة اصلاحية شاملة تقضي على التخلف الموروث.

لم يكن بطرس الأكبر يسير في تطبيق منهاجه الاصلاحي وفق مخطط معين ومرسوم سلفاً. اذ كانت حركته الاصلاحية مدفوعة بالرغبة في زيادة نفوذه وتمكين قبضته على طبقة النبلاء، ثم الاعجاب الشديد نحو كل ما هو اوروبي. ولهذا كان يعوزه التخطيط المنظم والتصميم المدروس والمنهاج الصحيح لتكون اصلاحاته ذات اثر عميق تنبع من الحاجة اليها اكثر مما تنبع من مصلحة شخصية او نزوة آنية.

أكتسب بطرس الأكبر الرغبة في الاصلاح من خلال اطلاعه على الحضارة الاوروبية عندما كان يتردد على الضاحية الالمانية في موسكو، وكذلك

مما اكتسبه في طفولته عندما عُهد برعايته الى طائفة من المشرفين الاوروبيين اهمهم السويسري ليفور (Lefort) بالاضافة الى ان بطرس الأكبر قد لمس في رحلته الاولى الى اوروبا (١٦٩٧)، عندما ذهب في بعثة دبلوماسية بصورة متخفيـة الى هولندا وانكلترا وبروسيا، مظاهر الحياة الاجتماعية في هذه المجتمعات المتعددة. مُطلعاً على فنونها وعاداتها وتقاليدها وجوانب الحياة المدنية والسياسية والاقتصادية من خلال اتصاله بملوكها وعلمائها. ومتجولاً في مصانعها ومعاملها ومطابعها. حتى انه امضى اكثر ايام رحلته يشاهد اعمال بناء السفن في امستردام ودتفورد (Deptford) محاولاً التعرف على اسرار المهنة. وهكذا عمل بعد عودته على استقدام المهندسين والخبراء والفنيين وعلى ارسال البعثات لاكتساب الخبرة في الفنون البحرية بغية بناء اسطول يعادل في قوته اسطول الهولنديين وانشاء جيش يقارع به خصومه في الداخل والخارج واقامة جهاز اداري منظم ومتين كأحـدث ما تكون عليه النظم الادارية.

ولما كان بطرس الأكبر ينشد في سياسته الخارجية فك الطوق المفروض على الروسيا. فقد نجح في بناء اسطول حربي كبير وعدد كبير من المصانع الحديدية وكذلك في تأسيس جيش قوي احتوى جميع طبقات المجتمع بعد ان فرض الزامية الخدمة العسكرية، وهيّـأ لـه الامـوال ومصـادر التمـويـن والمعدات اللازمة، وسن له القوانين الصارمة والعقوبات الشديدة للذين يفرون من المعركة او يتركون الجندية.

اما سياسة بطرس الداخلية فقد تركزت حول تقوية قبضته على جميع مؤسسات الحكم، وفعلاً مارس القيصر جميـع صلاحيـات السيـادة المتمثلـة بالسلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية. بالاضافة الى سلطة فرض الضرائب. وبذلك فاق النظام القيصري الذي لم يكن يحده اي قانون جميع نظم الغرب الأوروبي المعاصرة له. ويعود ذلك بطبيعة الحال الى تأخر نمو البورجوازية في الروسيا التي كان باستطاعتها مجابهة الطغيان القيصري، كما يعود الى الروح الوطنية التي كانت مهددة بين فترة وأخرى بالغزو الاجنبي، ثم

الى التراث الكنسي الشرقي الذي اكد تفوق السلطة الزمنية، التي تعود الى تفويض الله، على السلطة الروحية التي وُجد فيها تعبيره الخالص من قبل في حكم الاباطرة البيزنطيين. وانطلاقاً من تمسك بطرس الأكبر الشديد بجميع السلطات اصدر امراً بالغاء مجلس الاعيان (Doma) المؤلف من الامراء الاقطاعيين وزعماء العائلات الكبيرة واستبدله بمجلس للشيوخ يأتمر باوامره مكون من اهم وزراء القصر ومستشاريه. وقلص حاشيته بطرد جيوش الخدم والطهاة والموظفين الذين لا لزوم لهم. كما انه عمد الى اضعاف سلطة رجال الدين الذين كانوا يقفون حائلاً دون اتمام برنامجه الاصلاحي. فالغى وظيفة البطريركية سنة ١٧٠٠ وجعل نفسه رئيساً للكنيسة كما فعل من قبل هنري الثامن ملك انكلترا. وفي سنة ١٧٢١ وضع امور الكنيسة تحت اشراف مجلس ديني مقدس (Saint Synode) يمثل فيه الاساقفة والقساوسة ويرأسه موظف علماني يعينه القيصر. كما صادر املاك الكنيسة ووضعها تحت اشراف الدولة واخضع تعيين الاساقفة لموافقته وخفض عدد الاديرة وحول عائداتها الى المستشفيات ودور العجزة والمدارس. وبذلك لم يعد للكنيسة اي تأثير على السياسة العامة للبلاد. ومع هذا كان بطرس متسامحاً مع بقية المذاهب المسيحية ما دامت هذه لا تتدخل في امور السياسة. فشيدت في عهده الكنائس الكلفينية واللوثرية والكاثوليكية في سان بطرسبورغ. اما الفئة الثالثة التي اضعف نفوذها بطرس الأكبر هي الحرس الروسي الذي قام بحركة تمرد عليه سنة ١٦٩٨ اثناء غيابه في اوروبا، لخوفهم من الحركة الاصلاحية التي لا بد ان تفقدهم مراكزهم ووظائفهم الممتازة. ولكن بطرس استطاع ان يقضي عليهم ويحل مؤسستهم خالقاً بذلك جواً من الرعب والهلع كان يحتاج اليه منذ بداية حكمه.

اما على الصعيد الاقتصادي فقد شملت اصلاحاته جميع مرافق الحياة الاقتصادية. فاهتم بامور الزراعة الى حد فرض معه العمل على النبلاء انفسهم. مما ادى الى زيادة ملحوظة في الاراضي المزروعة. كما انه استبدل الآلات

الزراعية القديمة بآلات حديثة اكثر فعالية. ومع ذلك فانه رفض الغاء عبودية الارض بل انه فرض القوانين الصارمة على الاقنان الفارين من خدمة اسيادهم الاقطاعيين وبذلك امتد النظام الاقطاعي في الروسيا الى ما بعد القرن الثامن عشر. اما في المجال الصناعي فقد لجأ بطرس الى استقدام الاختصاصيين والعمال الصناعيين المهرة الاجانب وفرض القيود والرسوم الجمركية الباهظة على المصنوعات الاجنبية وساهم في تقديم المساعدات للمصانع وفي استثمار المناجم واشرك الدولة في ادارة الكثير منها حتى انتشرت مصانع السفن والحديد والمنسوجات على مختلف انواعها. اما التجارة فقد وجدت ايضاً تشجيعاً من بطرس الاكبر. فاعاد تأسيس النقابات تعزيزاً للتجار وتوطيداً لمكانتها في المجتمع الروسي وساهم كذلك في تكوين شركات انتاجية كبيرة لرفع معدلات التصدير. كما الغى احتكار الدولة لبعض الصناعات تسهيلاً للتجارة الداخلية. واقام علاقات تجارية مع جميع بلدان اوروبا وخاصة مع بلاد الصين. ثم كان بناء مدينة سان بطرسبورغ التي تعرف اليوم باسم لينينغراد، على ساحل البلطيق حلقة مهمة للاتصال مع الغرب واقامة علاقات تجارية وطيدة مع شمال اوروبا. هذه المدينة كانت خير ضمان لعدم انقطاع هذه العلاقات وهذا الاتصال الحضاري مع الغرب. ويعود الى بطرس الاكبر فضل شق الطرق وبناء الجسور ومد القنوات المائية وغيرها من المشاريع التي تتفق مع ازدهار الحياة الاقتصادية والنهوض من ظلامة العصور الوسطى.

لازم تنفيذ برنامج بطرس الأكبر الاصلاحي، اهتماماً بالغاً. بجميع مظاهر الحياة الاجتماعية. فالشعب الروسي كان شديد التمسك بعادات وتقاليد اجداده وشديد الحرص على التعلق بالخزعبلات والترهات التي كان يروجها رجال الدين والحكام السابقين. فاصدر مرسوماً منع بموجبه اطلاق اللحى التي كان الابقاء عليها يتم تمثلاً بالرسل والانبياء حتى ان شيوخ الروس كما يذكر أحدهم كانوا يحرصون على شعر لحاهم اشد الحرص بعد حلقه ليوضع في نعوشهم مخافة الا يسمح لهم بدخول الجنة بدونه[٦]. كما منع ارتداء الألبسة

الطويلة الشرقية الطراز لكونها تعيقهم عن العمل. وفرض ضريبة معينة على النبلاء الذين يصرون على اطلاق ذقونهم ووجه عنايته نحو المرأة فالغى نظام الحريم ومنع الحجاب واصدر الاوامر العديدة التي نصت على عتق المرأة من العادات والتقاليد التي كانت تقضي بعزلتها. ومنذ ذلك الحين اخذت المرأة تشارك في الحفلات والاستقبالات التي تجري في القصر. وامتدت عملية الاصلاح التي قام بها بطرس الاكبر الى التعليم. فاقام المدارس وفرض على اطفال النبلاء اجبارية التعليم. واصلح الابجدية وطبع بها جميع الكتب غير الدينية، واستورد المطابع تيسيراً لنشر الثقافة ومختلف العلوم وجمع المخطوطات وفتح عدة معاهد تقنية واسس اكاديمية للعلوم وصدرت في عهده اول جريدة روسية وتأسست اول مستشفى وأنشىء اول متحف.

ومما يؤخذ على سياسة بطرس الأكبر الاصلاحية رغم انجازاته الهائلة انه لم يلجأ الى التخطيط ووضع الدراسات اللازمة لها. كما انه ارهق طبقة الفلاحين بفرضه الضرائب الباهظة عليهم التي كان يحتاجها لتنفيذ مشروعاته الاصلاحية. كما كرهه النبلاء لتقليصه من صلاحياتهم ورفعه رجال الصناعة والتجارة الى مقامهم. واعتبرته الكنيسة مستورداً للافكار الغربية الوثنية. كما أن حركته هذه وما كان يختص منها بالتعليم ومظاهر الحياة الاجتماعية لم تمتد الى الطبقات الفقيرة. فبقيت في قصور النبلاء وبلاطات الحكام. ومع ذلك علينا القول ان بطرس الأكبر استطاع ان يكتب للروسيا تاريخاً جديداً لم يلبث ان اخرجها من عزلتها وجعلها دولة اوروبية ذات شأن كبير في السياسة الدولية طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

## ثانياً: قيام مملكة بروسيا

اذلت الهزائم المتتالية التي منيت بها الامبراطورية الرومانية المقدسة عائلة هابسبورغ. وغدت سلطة الامراء الالمان بجيوشهم واملاكهم اقوى بكثير من سلطة الامبراطور نفسه. فقد وجد في المانيا في القرن السابع عشر اكثر من ثلاثمائة ولاية يحكمها امراء زمنيين أو رؤساء اساقفة يدينون بالولاء والتبعية للبابوية أو مدن حرة تخضع للامبراطور خضوعاً صورياً ليس اكثر [٧].

في سنة ١٤١٧ حصل فريدريك هوهنزلرن (Hohenzollern) من الامبراطور على حكم منطقة براندنبورغ مع لقب ناخب. ومنذ هذا الوقت اخذ حكام هذه المقاطعة التي اصبحت تعرف فيما بعد ببروسيا يمارسون دوراً اساسياً في توجيه السياسة الاوروبية معتمدين ليس على موارد وخيرات المقاطعات التي كانت ضئيلة فحسب، بل على حنكتهم السياسية ودبلوماسيتهم في تشكيل المحالفات العسكرية وعدم تعريض مقاطعاتهم للنزاع مع الدول الكبرى.

وعلى الرغم من الخراب والدمار الذي حل بمقاطعات اسرة الهوهنزلرن نتيجة للحروب الدينية إلا ان انضمام ناخب براندنبورغ الى جانب الامراء اللوثريين ضد الامبراطور قد اكسبه موقعاً مهماً بين الامراء الالمان. فاضحت هذه الامارة في اوائل القرن السابع عشر تضم مقاطعات واسعة حصل على اكثرها عن طريق الوراثة، يضعف من قوتها والدفاع عنها، انها كانت متناثرة لا تتصل ببعضها وتتألف من بروسيا الشرقية وبراندنبورغ وبعض الدوقيات الصغيرة على الرين- وهي كلفس ومارك ورافنزبرغ (Cleves, Mark, Ravensberg).

حصل فريدريك وليم الذي تسلم السلطة في بروسيا لمدة ثمانية واربعين عاما: (١٦٤٠ - ١٦٨٨) بموجب صلح وستفاليا على بعض المناطق حتى

اقترح عليه كبير وزرائه العمل على توحيد المانيا تحت زعامته. وفي سنة ١٦٥٦ الف فريدريك وليم جيشاً يأتمر بسلطته، يعتبر من افضل الجيوش النظامية الدائمة في اوروبا. استطاع بواسطته ان يؤسس دولة قوية مرهوبة الجانب في اوروبا حتى اضفت عليه انتصاراته العسكرية على السويديين سنة ١٦٧٥ لقب الناخب الأكبر.

شجع فريدريك وليم القطاع الزراعي وحرّض الفلاحين والنبلاء على استخدام الوسائل الحديثة. وطور صناعة الحرير بزراعة اشجار التوت. وفي سنة ١٦٨٥ شجع الهيغونوت على اللجوء الى دولته بعد ان الغى لويس الرابع عشر مرسوم نانت. وتحت شعار ان التعصب الديني معطل للتطور الاقتصادي فقد اظهر من التسامح ازاء جميع المذاهب رغم انه كان يعتنق مذهب كلفن ما جعله يحق اكثر حكام اوروبا تنوراً. اما تنظيماته السياسية فقد بدأها بانتزاع السلطة من النبلاء والحد من صلاحيات المجالس المحلية خاصة التي عارضت فرض الضرائب. ومكّن موظفيه من الاشراف المباشر على جميع شؤون الدولة ومجالسها السياسية والقضائية والعسكرية حتى غدا لا يقل استبدادية عن معاصريه من الحكام والملوك والأباطرة[8].

تابع فريدريك الثالث (١٦٨٨ - ١٧١٣) سياسة والده، وأدى تحالفه مع الامبراطور ضد فرنسا الى منحه لقب ملك بروسيا. فتوج باسم فريدريك الأول سنة ١٧٠١. وبذلك تأسس ما يعرف باسم الرايخ الأول كما ادعت النازية فيما بعد.

لقد اظهر فريدريك اهتماماً بالغاً بالمؤسسة العسكرية. فغدت بروسيا في عهده دولة عسكرية مرهوبة الجانب. يقود جيشها المؤلف من ثمانين ألف جندي ضباط مدربين احسن تدريب من طبقة النبلاء الذين كانوا يؤدون يمين الولاء للدولة والملك. وقد اطلق على هؤلاء اسم طبقة اليونكرز (Yunkers). هذا الاخلاص للسلطة كان منشأه الدعوة اللوثرية التي كانت تحض على الولاء والاخلاص للسلطة الزمنية. وفعلاً درجت المؤسسة العسكرية على هذا المنوال

حتى اوائل القرن العشرين. مما جعل ميرابو يقول: « ليست بروسيا بالدولة التي تملك جيشاً، وانما هي جيش يملك دولة ». ومن هنا نضجت في بروسيا الفكرة الفلسفية الداعية الى ان دور أفراد الشعب في الحياة لا يعدو سوى الطاعة والعمل والتضحية والواجب. وقد مجد الشاعر ديليبولد اليكسيس فيما بعد عبودية الشعب في ظل الهوهنزلرن. كما ان الفيلسوف هيجل اعتبر الدول كل شيء وهو يصفها بصفات متعددة منها انها التكشف الاسمى « للروح القومية » وانها « العالم الاخلاقي ». وذهب ابعد من ذلك بقوله: « ان للدولة الحق الاسمى والمطلق على الفرد الذي يحتم عليه واجبه الاسمى ان يكون عضواً في الدولة. اذ ان من حق الروح العالية ان تتمتع قبل غيرها بامتيازات خاصة ». هذه الفلسفة التي نشأت عند الالمان في اواخر القرن الثامن عشر انما تدين بوجودها للتربية العسكرية التي درج عليها البروسيون منذ أوائل القرن [٩].

وفعلاً اخضع فريدريك الأول جميع قدرات المملكة لخدمة الاغراض العسكرية. فأقيمت المصانع الحربية المختلفة في برلين كصناعة البارود والبنادق والمدافع. وتأسست ادارة مدنية واسعة تخضع لأوامر العسكريين في المقاطعات حتى غدا المجتمع البروسي مجتمعاً عسكرياً خالصاً تلهب حماسته وتعصف بعواطفه رائحة البارود وقعقعة السلاح.

تابع فريدريك وليم الأول (١٧١٣ - ١٧٤٠) سياسة والده في بناء دولة بروسيا القوية والحديثة. فاهتم بآلة الحرب وشجع الصناعة والتجارة واصبحت بروسيا في عهده « معسكراً واسع الاطراف يعمل فيه الجميع لخدمة الجيش: الفلاحون ينضمون اليه، أو يؤمنون له الغذاء، والصناعيون اليدويون يكسونه ويسلحونه، والاشراف يقودونه » [١٠].

أما في عهد فريدريك الثاني (العظيم) (١٧٤٠ - ١٧٨٦) فان بروسيا اصبحت دولة ذات شأن مهم في السياسة الاوروبية. ومع ان فريدريك الثاني

من اكثر ملوك بروسيا السابقين تنوراً. فقد أقام سلطة مطلقة استبدادية جعلت موظفيه يتحولون الى اداة لتنفيذ رغباته. الا انه عني بتنظيم دولته. وأشرف بنفسه على شؤونها الاقتصادية. فشجع الصناعة والتجارة وفرض رسوماً عالية على البضائع الاجنبية، خاصة المصنوعات الكمالية منها. مما ساهم في انماء خزينة الدولة التي ساعدته على اعداد جيشه اعداداً صحيحاً. فزوده باسلحة حسنة الصنع وضمن تدريبه مما اكسبه تناسقاً وقوة وقدرة على الضرب بسرعة الأمر الذي اثار دهشة جميع قواد اوروبا العسكريين في حرب الثلاثين عاماً التي وقعت بين السنتين (١٧٣٣ - ١٧٦٣) وبموجب معاهدات الصلح التي وضعت خلال هذه الحروب فإن فريدريك الثاني استطاع ان يوصل اجزاء بروسيا بعضها ببعض (عدا مناطق الغرب) بالأراضي التي استولى عليها والحقها بمملكته ومنها سيليزيا وفريزيا الشرقية وبروسيا الغربية.

## ثالثاً: حروب القرن الثامن عشر

لقد أعقب حرب الوراثة الاسبانية ومعاهدة اوترخت فترة من السلام سادت اوروبا طيلة عشرين عاماً انصرفت خلالها الدول الاوروبية الى الاهتمام بأمورها الداخلية والاستعداد لحرب جديدة. ففرنسا انصرفت الى تقوية جيشها البري استعداداً منها لفرض نفوذها على القارة الاوروبية بالاضافة الى اهتمام الفرنسيين بأمور المستعمرات وتوسيع تجارتهم في الهند وفي المستعمرات الاميركية التي تمتد من مصب المسيسبي حتى خليج الهدسن في الشمال، ومن شواطىء الاطلسي، حتى قلب كندا والولايات المتحدة الاميركية. اما انكلترا فقد اهتمت بتقوية اسطولها البحري املاً منها في فرض سيطرتها على المستعمرات وتوسيع نفوذها في القارة الجديدة. وراح الانكليز بتشجيع من حكومتهم يهاجرون الى المستعمرات ويستوطنون بها حتى بلغ عددهم في اميركا حتى منتصف القرن الثامن عشر ما يزيد على المليون على الرغم من صغر مساحة رقعة الارض التي يملكوها وتمتد من فلوريدا في الجنوب الى الارض الجديدة في الشمال.

اطلق اسم حروب القرن الثامن عشر على الحروب الثلاثة التي وقعت بين ١٧٣٣ و ١٧٦٣ والتي عرفت ايضاً بحروب الثلاثين عاماً. وهي عبارة عن ثلاثة حروب متتالية تعددت اسبابها الظاهرة إلا انها في جوهرها كانت تجري على التنافس والنفوذ داخل القارة الاوروبية وفي المستعمرات.

## ١ - حرب وراثة عرش بولندا (١٧٣٣ - ١٧٣٨)

توفي ملك بولندا اوغسطس الثاني سنة ١٧٣٣ واصبح على المجلس الملكي (الديت) ان ينتخب ملكاً جديداً على البلاد. فتدخل لويس الخامس عشر ملك فرنسا في الأمر بصفته متزوجا: بابنة احد النبلاء البولنديين واجبر الديت على انتخاب والد زوجته ستانسلاس لكزنسكي. اثار هذا التدخل كل من النمسا والروسيا لأن بولندا التي تقع بينهما كانت تعتبر بالنسبة لهما امتداداً للنفوذ والسيطرة (١١). فارسلت الدولتان على الفور جيوشهما إلى بولندا، وطردتا الملك المنتخب، وأجبرتا الديث على انتخاب أوغسطس الثالث امير سكسونيا ملكاً على البلاد. وهكذا نشبت الحرب بين فرنسا واسبانيا من جانب والنمسا من جانب آخر تعضدها الروسيا.

نجحت الجيوش الفرنسية بمساعدة اسبانيا في انزال الهزيمة بالجيوش النمساوية في ايطاليا. فاستولت على ميلانو وبادر الفرنسيون الى التفاوض للحيلولة دون تدخل الانكليز. وعقدت تسوية فيينا عام ١٧٣٨ بين الاطراف المتنازعة وكان من نتيجتها ان حصلت فرنسا على منطقة اللورين مقابل اعترافها باوغسطس الثالث أمير سكسونيا ملكاً على بولندا، كما تستولي اسبانيا على مملكتي نابولي وصقلية من النمسا. وهكذا استطاعت فرنسا بعد هذه الحرب توطيد تحالفها مع اسبانيا. واستعادت نفوذها على حساب النمسا، ونشاطها التجاري في القارة الاميركية والهند وموانىء الشرق الادنى على حساب إنكلترا مما سيثير حفيظة الانكليز الذين سيقررون اللجوء الى الحرب (١٢).

## ٢ ـ حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ ـ ١٧٤٨)

تركت معاهدة اوترخت ـ كما ذكرنا ـ اثراً سيئاً على العلاقات الاسبانية الانكليزية. فانكلترا استولت بموجب هذه المعاهدة على جزيرة مينورقة وجبل طارق مع احتكارها لتجارة العبيد في المستعمرات الاسبانية ذاتها في اميركا. وأمام التحدي الانكليزي اخذت اسبانيا بتشجيع من حليفتها فرنسا تحاول استرجاع ازدهار بحريتها وتجارتها. ومما زاد العلاقات سوءاً، ان التجار الانكليز لم يتقيدوا بشروط المعاهدة فكانوا يعمدون الى اعمال التهريب في مناطق النفوذ الاسباني، مما ادى الى وقوع مشاحنات غير رسمية بين الاسبان والتجار الانكليز وحصل في احدى الخلافات ان قطع الاسبان اذن تاجر انكليزي اسمه «جنكن» مما اغضب الانكليز وثار فيهم روح التحدي. فاعلنوا الحرب على اسبانيا عام ١٧٣٩ وهي الحرب المعروفة بحرب اذن جنكين (Jenkin's Ear) التي استمرت حتى عام ١٧٦٣. ولكن سرعان ما امتد النزاع الانكليزي ـ الاسباني الى القارة الاوروبية نفسها في العام التالي وذلك اثر المنازعات حول وراثة العرش النمساوي. فانقسمت دول اوروبا الى معسكرين متنازعين. اسبانيا وفرنسا وبروسيا من جانب، وانكلترا والنمسا من الجانب الآخر.

قامت مشكلة العرش النمساوي بعد وفاة الامبراطور شارل السادس سنة ١٧٤٠ الذي لم يترك من الاولاد غير الاناث. وكان العرف السائد في اوروبا يمنع المرأة من تسلم العرش او الوراثة بحسب القانون السالي [١٣]. ومع ان شارل كان قد اصدر مرسوما يمنح فيه وراثة الامبراطورية النمساوية الى ابنته الكبرى ماري تريز الا ان المشكلة ما لبثت ان ظهرت اثر تدخل ملوك الدول الاوروبية فيها الذين رأوا في هذه المشكلة فرصة ذهبية لاقتطاع بعض الأراضي من الهابسبورغ. ففرنسا التي كانت تربطها مصالحها التوسعية مع

شارل البرت ناخب بافاريا المطالب بالعرش لأن زوجته نمساوية، وقفت الى جانبه تعضده في ادعائه رغم ان ملكها كان قد تعهد لشارل السادس بعدم الاعتراض على تسلم ماري تريز عرش ابيها. اما فيليب الخامس ملك اسبانيا فقد وجدها فرصة لاستعادة املاكه في ايطاليا التي فقدها بموجب معاهدة اوترخت. فادعى بحق وراثة العرش بصفته وارث اسرة الهابسبورغ في اسبانيا. وكذلك طالب اوغسطس الثالث ناخب سكسونيا بحكم الاملاك النمساوية متخذاً من زوجته النمساوية وسيلة لذلك. ولم يكن اوغسطس يريد سوى الحصول على بعض الممتلكات أو الامتيازات من المتنافسين.

في فترة المساومات التي كانت تقوم بين دول اوروبا الكبرى. ظهر الخطر فجأة من ناحية بروسيا. اذ إن فريدريك الثاني شن بقواته هجوما خاطفاً على مقاطعة سيليزيا وضمها الى مملكته مفتتحاً بذلك حرب الوراثة النمساوية. لا شك ان فريدريك كان يرغب في توسيع مملكته والوصل بينها وزيادة سكانها ومما قاله مبرراً عمله هذا. « إنها أطماع ومصالح والرغبة في ان أجعل الناس يتكلمون عني ». ولما رفضت ماري تريز التنازل لفريدريك عن مقاطعة سيليزيا اقام تحالفاً مع فرنسا معترفاً بشارل البرت امبراطوراً على النمسا. وهكذا بدأت الحرب بين فرنسا وحلفائها من جهة والنمسا من جهة ثانية. فاستولت فرنسا على براغ وهدد البافاريون ڤيينا بينما كانت انتصارات فريدريك تتوالى. ولم ينقذ موقف النمسا من الانهيار المحتوم سوى انسحاب فريدريك من الحرب وتخليه عن حليفته فرنسا بعد أن تنازلت له ماري تريز عن سيليزيا العليا والسفلى في معاهدة درسدن.

بدأت المرحلة الثانية من الحرب بانضمام انكلترا الى جانب النمسا وذلك خوفاً من ازدياد النفوذ الفرنسي في أوروبا وحفاظاً على التوازن الدولي الذي كانت تحرص عليه انكلترا كل الحرص. فانقلب ميزان القوى هذه المرة لصالح النمسا. واستطاعت الجيوش النمساوية ـ الانكليزية قهر الجيش الفرنسي واجباره على التراجع الى داخل الاراضي الفرنسية. هذه الانتصارات

النمساوية أفزعت فريدريك الثاني فتحرك فجأة ودخل الحرب للمرة الثانية وهزم النمساويين في عدة معارك مما دفع بالفرنسيين إلى ايقاع الهزيمة بالجيوش الانكليزية في بلجيكا. وهكذا استمرت هذه الحرب بين مد وجزر دون ان تستطيع الدول المتحاربة احداث تغيير هام في خريطة اوروبا حتى عام ١٧٤٨ حيث ابرم صلح أكس لاشابيل وتم بموجبه ارجاع الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب مع قليل من الاستثناءات التي نصت على منح بارما في ايطاليا لفيليب الاسباني ومنح ملك سردينيا وسافوى ونيس وجزءاً من لومبارديا مع التأكيد على امتلاك فريدريك لمقاطعة سيليزيا واعتراف ملك فرنسا وملك اسبانيا بفرنسوا الاول زوج ماري تريز امبراطوراً على النمسا. يعلق فيشر على هذه الحرب قائلاً: «لم تحصل اي دولة في هذه الحرب التي اقترنت بتقلبات حادة على انتصارات دون ان تقابلها هزائم خطيرة، وأخيراً جاءت النهاية وقد ادى اليها الغضب اكثر من الرضا. والحق ان صلح أكس لاشابيل لم يسو شيئاً، ولم يسو الصراع البحري والتجاري بين انكلترا وممالك البوربون، ولا الصراع على سيليزيا بين النمسا وبروسيا، كما أنه لم يحسم مسألة الصراع للسيطرة على ايطاليا، ولم يقرر مصير الأراضي المنخفضة، واذا كان الصلح قد نص على ارجاعها الى النمسا فلن تلبث ان تستولي عليها من جديد جيوش فرنسا الثورية. أما في الهند فقد تكبدت انجلترا خسائر كثيرة قبل ان يمضي وقت طويل حتى تستعيض عنها بالانتصارات الباهرة»(١٤).

## ٣ - حرب السبع سنوات (١٧٥٦ - ١٧٦٣)

لم تكن معاهدة اكس لاشابيل التي عقدت اثر حرب الوراثة النمساوية سوى حافزاً للدول المشتركة لخوض حرب جديدة املا منها في الحصول على ما كانت تحلم به من السيطرة والسيادة. وقد لازم هذا التفكير انقلاباً دبلوماسياً في القارة الاوروبية. ففرنسا رأت في تحالفها مع بروسيا يكاد يؤدي الى تثبيت عظمة هذه الدولة الناشئة، لهذا ابرمت عدة اتفاقيات مع النمسا تضمن فيها كل دولة املاك الاخرى. الامر الذي دفع بفريدريك الثاني الى عقد اتفاقية وستمنستر (westminster) عام ١٧٥٦ مع ملك انكلترا جورج الثاني تنص على ضمان حياد بروسيا لانه رأى في التقارب الفرنسي ـ النمساوي خطراً كبيراً على بروسيا التي أصبح وضعها بين فكي الكماشة.

وهكذا وقعت حرب جديدة اتخذت ميداناً لها كل القارة الاوروبية والمستعمرات الانكليزية والفرنسية وكان لها وجهان: الأول يتمثل في رغبة ماري تريز الملحة في استرجاع مقاطعة سيليزيا التي حصل عليها فريدرك خلال حرب الوراثة النمساوية، والوجه الثاني التنافس البحري الشديد بين انكلترا وفرنسا.

كان على فريدريك الثاني ان يجابه اكبر تحالف اوروبي مؤلف من النمساويين في الجنوب والروس في الشرق والفرنسيين في الغرب والسويديين في الشمال. وبالرغم من ضآلة المساعدة الانكليزية له فقد استطاع ان يحرز عدة انتصارات بدأها في اكتساح سكسونيا ثم ايقاع الهزيمة بالجيش الفرنسي في روسباخ سنة ١٧٥٧ وتدمير الجيش النمساوي في لوتن (leuthen). ولما كانت هذه الدول مجتمعة تمتلك موارد مادية وبشرية هائلة. فقد استطاعت استعادة انفاسها والحاق الهزيمة بجيوش فريدريك. فانتصرت عليه الروسيا في معركة كندرسدورف (١٧٥٩) والنمسا في سكسونيا وغزا السويديون

بوميرانيا. ومع ان هذه الهزائم التى مني بها افقدته الامل النهائي في النصر، الا ان وفات اليزابيت قيصرة الروسيا سنة ١٧٦٢ واعتلاء العرش بطرس الثالث الذي كان معجبا بفريدريك، أديا لعقد هدنة معه تم بموجبها انسحاب جيوش الروسيا من أراضيه. كما حذت السويد حذو الروسيا وعقدت صلحاً مع بروسيا(١٧٦٢) حتى أن فرنسا وجدت أن مكاسبها من الحرب لا تعوضها ما ستفقده من خسائر فخفضت التزاماتها المادية والعسكرية تجاه النمسا، وهكذا أجبرت ماري تريز على توقيع اتفاقية هيوبرتسبورغ (hubertsburg) عام ١٧٦٣ التي نصت على إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل قيام الحرب، أي إحتفاظ فريدريك بمقاطعة سيليزيا ونفوذ عظيم في جميع أنحاء القارة.

أما في الميدان البحري فقد قدر لانكلترا بتوجيه من وليم بت (pitt) أن تحرز إنتصاراً ساحقاً على فرنسا. اذا إن القراصنة الانكليز إستطاعوا قبل إعلان الحرب أن يأسروا ثلاث ناقلات جنود فرنسية في عرض البحر وأكثر من ٣٠٠ باخرة تجارية و٨٠٠٠ بحار مما أفقد فرنسا فعلاً خيرة ملاحيها قبل أن تبدأ الحرب.

وبينما لم تؤد الحروب المتعددة إلى تغيير الأوضاع في القارة الاوروبية عدا احتفاظ فريدريك بسيليزيا. فقد استطاعت إنكلترا في الميدان البحري أن تكسب إمبراطورية واسعة جداً. مما يعود إلى اهتمام إنكلترا بالسيطرة على أميركا الذي كان حلماً من أحلامها القديمة التي عملت من أجل تحقيقه بكل جد. وقد عبر عن ذلك وليم بت بقوله: «لقد كانت ينبوع ثروتنا وعصب قوتنا ونواة قوتنا البحرية وقاعدتها». ولهذا جانب اهتمام الانكليز تقوية أساطيلهم البحرية تشجيع رعاياهم على الهجرة والإستيطان في القارة الجديدة وإمدادهم بالقوة المعنوية والمادية مما كان له أثر فعال في حرب السبع سنوات.

إمتدت حرب السبع سنوات حتى شملت الهند التى خضعت لسيطرة

الفرنسيين حتى حرب الوراثة النمساوية. ولكن الأوضاع تبدلت بعد صلح أكس لا شابل، وغدت شركة الهند الشرقية الإنكليزية أقوى في التجارة والمال بدرجة فائقة من شركة الهند الشرقية الفرنسية. وهكذا أتت هذه الحرب على كل ما تبقى من النفوذ الفرنسي في الهند ولم يبق بأيدي الفرنسيين سوى بعض المراكز التي كانوا يسيطرون عليها قبل عام ١٧٤٩ (١٥).

وبينما سويت أمور القارة الاوروبية بعد حرب السبع سنوات بعدة معاهدات ثنائية كان أهمها صلح هيوبرتسبورغ مع النمسا. فقد سويت العلاقات الفرنسية الإنكليزية بعد الحرب بصلح باريس سنة ١٧٦٣.

حصلت إنكلترا بموجب هذا الصلح الذي وصفه أحد المعاصرين الإنكليز بأنه أشرف صلح عقدته هذه الأمة: على كندا وأوهايو وضفة الميسيسبي اليسرى وعلى نوفاسكوتيا ورأس بريتون وعلى السنغال وجزيرة مينورقة ومقاطعة فلوريدا من إسبانيا وكذلك جزر سان فنسان وتوباجو والدومينيك وغرينادا بالاضافة إلى سيطرتها على القسم الأكبر من الهند. أما فرنسا التي خسرت معظم مستعمراتها فقد احتفظت بلويزيانا وبعض المواقع في الهند مع حق الصيد على شواطىء الأرض الجديدة ونهر سان لوران. وجزيرتي سان بيير وميلكون وجزر السكر ومارتينيك وغوادلوب وسان لويس. بينما إسبانيا استردت هافانا ومانيلا لقاء تنازلها عن فلوريدا (١٦).

هذه الإنتصارات التي حققت للانكليز إمبراطورية واسعة لا تغيب عنها الشمس جعلت من إنكلترا دولة مزدهرة الزراعة ومتقدمة في الصناعة حتى أن تجارتها إتسعت على نحو لم تعرفه من قبل. بينما سادت الفوضى في بروسيا وقام الفلاحون بنهب بيوت النبلاء إذ إن ما فقدته انكلترا في الحصول على هاتين الامبراطوريتين العظيمتين لا يبلغ خمس ما فقده فريدريك في حصوله عللى سيليزيا.

وهكذا انتهى عصر النهضة الأوروبية الذي بدأ نهضة بل ثورة شاملة في

جميع الميادين العلمية والفنية والأدبية لينتهي معه أكبر فصل من فصول التاريخ الحربي الذي امتاز بالتناحر الشديد بين الحكومات الاوروبية واتخذ محوراً له الصراع على سيادة القارة الاوروبية والتطاحن من أجل السيطرة على جميع بقاع العالم الغنية. ولكن هل خيل لحكام أوروبا خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر أن موقفهم هذا لم يكن يعبر تعبيراً صادقاً عن مواقف وشعور شعوبهم....؟ الحقيقة أنه إذا استعرضنا تاريخ حركات هذه الشعوب بعد ذلك لرأينا مدى السخط العميق الذي كان يكمن في نفوس هذه الشعوب. فلم يمض غير وقت قصير حتى هبت الثورة في الولايات الثلاث عشرة الأميركية تطالب باستقلالها ونيل حريتها. ولم يمض القرن الثامن عشر أيضاً حتى قامت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) التي ساهمت في القضاء على الحكم الإستبدادي وأقامت دولة ليبرالية على أساس السيادة القومية وعجلت بالإنتقال من الإقطاعية إلى الرأسمالية بقضائها على بقايا الإقطاعية والخصوصيات الإقليمية والإمتيازات المحلية. كما أنها هزت عروش الرجعية في أوروبا واعتبرت منطلقاً لجميع حركات التحرر التي أدت إلى استقلال اليونان وبلجيكا وسقوط مترنيخ واشتعال الثورات في بولندا والمجر والولايات الإيطالية والإلمانية... هذه الحركات أدّت إلى ظهور صيغة جديدة لجميع دساتير ونظم دول أوروبا ساهم في وضعها فلاسفة متنورون أكدوا على حرية الفرد وحق الملكية المقدس ومقاومة الجور واعتبار الأمة مصدراً للسيادة الكاملة. كما أكدوا على حرية تبادل الأفكار والاراء بعيداً عن هيمنة الكنيسة وتسلط الحكومات الجائر.

## هوامش الفصل السادس

(١) فيشر: اصول التاريخ الاوروبي الحديث ترجمة زينب راشد دار المعارف بمصر ١٩٦٥ ص ٣٦٢.

(٢) يرى عبد المجيد نعنعي ايضاً بأن خضوع الروس للتتار جعلهم يرثون مؤثرات حضارية اسيوية زادت من بعدهم عن الحضارة الغربية: اوروبا في بعض الازمنة الحديثة ص ١٥٩.

(٣) استمر الحكم محصوراً في هذه الاسرة حتى قيام الثورة البولشفية سنة ١٩١٧.

(٤) راجـــع: Roland Mousnier: Histoire général des civilisations T.IV. Presses universitaires de France. Paris 1954 P. 113.

(٥) انظر التفاصيل عند: حسن صبحي: اوروبا من فتح القسطنطينية حتى قبيل الثورة الفرنسية مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٩٦٧ ص ١٥٨ وما بعدها.

(٦) ديورانت: قصة الحضارة الجزء (٣٣) ص ٥٠.

(٧) لقد وجد نحو مائتي إمارة يحكمها الامراء بحرية تامة. وثلاثة وستون دولة يحكمها رؤساء اساقفة او رجال دين يتبعون روما الكاثوليكية. وإحدى وخمسون مدينة حرة تخضع صورياً للامبراطور فقط.
انظر المرجع السابق ص ٦٩.

(٨) قارن: رولان روسينيه: تاريخ الحضارات الجزء الرابع ص ٣٧٥.

(٩) راجع: وليام شور: تاريخ المانيا الهتلرية تعريب خيري حماد توزيع دار الكتاب العربي. بيروت منشورات مكتبة المثنى. الطبعة الثانية ١٩٦٦ ص ١٩١ (الجذور الفكرية للرايـخ).

(١٠) رولان موسينيه وارنست لابروس. تاريخ الحضارات الجزء الخامس القرن الثامن عشر ترجمة يوسف وفريد داغر منشورات عويدات ١٩٦٨ ص ٢٠٦.

(١١) في سنة ١٧٧٢ اقتطعت الروسيا من بولندا منطقة الروسيا البيضاء وبروسيا منطقة بروسيا الغربية والنمسا منطقة غاليسيا وهو ما يعرف بتقسيم بولندا الأول. وقد جرى في سنة ١٧٩٣ تقسيم آخر لبولندا من قبل الدول الثلاث نفسها. أما في التقسيم الثالث الذي تم سنة ١٧٩٥ فقد اقتطعت هذه الدول كل ما تبقى من بولندا حتى ازالتها من خارطة اوروبا. ولم تظهر بولندا من جديد كدولة إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

(١٢) قارن: رولان موسينيه وارنست لابروس تاريخ الحضارات الجزء الخامس ص ٢٢٥.

(١٣) سمي «السالي» لافتراض يقول انه جزء من قانون الفرنجة الساليين. وكان معمولاً به في فرنسا واسبانيا وبروسيا.

(١٤) فيشر: مرجع مذكور ص ٤٠٤.

(١٥) في حين امدت فرنسا خلال الحرب الهند بـ ١٧ رجلاً وكندا بـ ٣٢٨ رجلاً ارسل الانكليـز إلى اميركا ٦٠ الف رجل. حول شركات الهند في القرن الثامن عشر انظر: ميشال دوفيز: اوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر. ترجمة الياس مرقص. دار الحقيقة ١٩٨٠ الجزء الأول الفصلان السابع والثامن.

(١٦) للتوسع راجع: **BROGLIEA (Duc): Frédéric II et Marie-Thèrèse 2 Vols Paris 1883.**

# الفصل السابع

# تَطوّر الفِكْر السّياسي في أوروبا

## أولاً: الفكر السياسي في خدمة الحكم المطلق

دعت التيارات الفكرية التي ظهرت اوائل عصر النهضة إلى تحرير الفكر الانساني من مخلفات الاقطاع والكنيسة واعراف وتقاليد العصور الوسطى. وقد ظهر اثر البورجوازية واضحاً في هذه الدعوات التي ارادت حصر السلطة بيد الملوك المستنيرين على حساب الارستقراطية الاقطاعية ورجال الدين. فقدمت دعمها المادي وتأييدها السياسي لهم. ونجح الملوك إلى جانب ذلك في استغلال الشعور القومي إلى ابعد الحدود باشعالهم الحروب التوسعية تدعيماً لسلطة الدولة وسيادتها. فاقاموا بذلك سلطتهم الاستبدادية على اساس نظرية « الحق الالهي » في الحكم والسيادة. وظلوا يمارسون هذه السلطة حتى سقطت نهائياً تحت تأثير فلسفة الانوار البورجوازية نفسها.

تعددت مناهج المفكرين السياسيين في اوائل عصر النهضة إلا انها جاءت جميعها معبرة عن متطلبات العصر في وجوب تركيز السلطة بيد « الأمير » لتحقيق وحدة الأمة والدفاع عن حدودها السياسية رافضة بذلك ازدواجية السلطة التي كان يمارسها كل من البابا والامبراطور او أسياد الأرض خلال العصور الوسطى. ومثل مكيافللي وجان بودان الاتجاه الواقعي في افكارهما التي تتمثل في دولة « الأمير » المطلق الصلاحيات. بينما امتازت فلسفة هوبز بمنهاجها النظري وفلسفة بوسويه بكونها افكاراً متباينة من فلسفة ارسطو وفلسفة هوبز

## ١ - مكيافللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧)

ولد مكيافللي في فلورنسا، من اسرة بورجوازية، وقضى فيها اكثر حياته. وإذا لم يكن يعتبر مكيافللي في ثقافته التي اكتسبها من اكبر علماء عصره فانه ولا شك نموذجاً حقيقاً لرجل النهضة الايطالية. ترعرع بين رجال السياسة واكتسب من رحلاته الدبلوماسية التي قام بها الى فرنسا والمانيا وروما خبرة واسعة اهلته فيما بعد ليضع كتاباً في علم السياسة سماه «الأمير».

استوحى مكيافللي افكاره التي تضمنها كتاب الأمير من الحالة السياسية التي كانت تمر بها ايطالية في تلك الفترة. ففلورنسا في عهد اسرة مدتشي كانت في حالة حرب دائمة مع بيزا، كما انها تعرضت لغزو فرنسي سنة ١٤٩٢ نتيجة للفوضى والاضطراب اللذين وقعت بهما خلال حكم هذه الاسرة. كما ان بقية المدن الايطالية كانت في ذلك الوقت ميداناً لحروب فرنسوا الأول وشارل الخامس حيث حل فيها الخراب والفوضى والانقسام بالاضافة إلى الحروب التي شنها سيزار بورجيا محاولاً مد نفوذ البابوية على حساب بقية الولايات.

ان أكثر ما كان يؤلم مكيافللي هو الاعتماد على المرتزقة الذين لا يعملون إلا على استمرارية الحروب. فلا يعرفون النظام ولا حفظ العهود والمواثيق. فدعا إلى انشاء جيش وطني «ميليشيا» يتولى الدفاع عن المدينة: «ان السبب الوحيد لانهيار ايطاليا هو اعتمادها على الجيوش المرتزقة» وكان يرى ان خروج ايطالية من محنتها هذه لا يتم إلا بتحقيق الوحدة والقوة اللذين لا بد منهما لنيل حريتها الجماعية. وهو ينكر على الكنيسة التي اكتسبت لنفسها سلطاناً زمنياً وعملت على ابقاء ايطاليا منقسمة لكي لا يفقد البابوات سلطتهم في الشؤون السياسية «كان مكيافللي، شأنه في ذلك شأن، غاريبلدي، الذي جاء بعد عدة قرون، يرى في وجود دولة دينية في قلب ايطالية، عقبة كأداء

في طريق وحدتها السياسية »[1] ويذكر مكيافللي في « الخطب » قـائلاً : « نحن الايطاليين مدينون اذن لكنيسة رومة ولقساوستها بأننا اصبحنا غير متدينين واشراراً ، ولكننا ندين لها بدين أكبر ، وسوف يكون سبب خرابنا ، ألا وهو ان الكنيسة ابقت ولا تزال تبقي على انقسام بلدنا . من المؤكد انه لا يمكن لبلد أن يصبح بلداً موحداً وسعيداً إذ إذا اطاع تماماً حكومة واحدة ، سواء أكانت جمهورية أم ملكية ، كما هي الحال في فرنسا وفي اسبانيا ، والكنيسة هي السبب في أن ايطاليا ليست في الحالة نفسها ، ولا تحكمها جمهورية واحدة أو يحكمها ملك واحد ... إذن فالكنيسة التي لا تملك القوة الكـافيـة للسيطـرة على ايطاليا ، ولا تسمح لأية قوة أخرى بأن تفعل هذا ، كانت السبب في ان ايطاليا لم تتمكن من الاتحاد في ظل رئيس واحد ، ولكن ظلت دائماً يحكمها عدد من الامراء والسادة ، مما سبب لها الكثير من الشقاقات والكثير من الضعف بحيث أصبحت فريسة لا للبرابرة الاقوياء فحسب ، ولكن لكل من اختار ان يهاجمها »[2] .

ومكيافللي في منهجه يعترف بابتعاده في وصف الامير عن الجانب الخيـالي ليبحث في جوانبه الواقعية ، مستمداً فكره السياسي من الحوادث التاريخية . ولكنه في تفكيره يتمتع بالجرأة والاستقلال . ومع ذلك فقد أهمل دور الجماعة واعطى الاولـويـة في صنـع الدولة للأبطـال ، ولم يـر في الافـراد إلا أداة لخدمتها .

وكتب مكيافللي كتاباً يعرف بـ « المواعظ » ضمنه قسماً كبيراً من ارائـه السياسية . كما كتب « فن الحرب » و « تاريخ فلورنسا » الذي قدمه إلى البابا كلمنت السابع . ولكن كتاب « الأمير » يعد من احسن نتاجه لما ضمنه من دراسة مستفيضة عن اصول الحكم وفن السياسة .

**كتاب « الامير »**

يحاول مكيافللي في كتاب الأمير ان يبين ما ينبغي ان يكون عليه مسلك

الأمير ازاء رعيته وحاشيته واصدقائه واعدائه من الداخل والخارج للمحافظة على دولته: « على الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة الحيـوان، ان يقلد الثعلب والاسد معاً، إذ ان الاسد لا يستطيع حماية نفسه من الاشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه امام الذئاب. ولذا يتحتم عليه ان يكون ثعلباً ليميز الفخاخ واسداً ليرهب الذئاب »[٣]. هذه الازدواجية في المواقف التي اعتنقها مكيافللي في محاباته احياناً للنظـام الجمهـوري واحيـانـاً اخرى لعائلة مدتشي تبرز في تعاليمه ونصائحه التي يقدمها لأميره: التمتع بالبخل والسخاء والخير والشر والرأفة والقسوة والكذب والصفات الحسنة. ولكن عندما سيكون الأمير مجبراً على الاختيار فلا بد له من ان يختار أكثر الحلول صرامة فيفضل عندهـا البخـل على التبـذيـر، والرجـل المسلـح على الاعزل، والشرير على الطيب جداً[٤].

يقدم مكيافللي تعاليمه ونصائحه السلبية والايجابية لأميره لتكون وسيلـة لديه لتحقيق غايته في اقامة دولة ايطاليا الموحدة وتخليصها من براثن الاعداء المحيطين بها والمتنازعين على مقدراتها « وها هي ايطاليا تبتهل إلى الله في كل يوم ان يبعث اليها بمن ينقذها من هذه الفظاظة البربرية والحمق الاعمى. انها على استعداد، وتواقة إلى اللحاق بكل راية، شريطة ان يكون هناك من يحملها ويرفعها »[٥]. وفلسفة مكيافللي تكمـن في النتـائـج التي يصـل اليهـا الانسان وليس في الوسائل التي ما تلبث عند تحقيق النصر من ان تصبح وسائل شريفة حتى ولو انها استندت إلى الرذائل: « وهكذا فمن الخير ان تتظاهر بالرحمة وحفظ الوعود والشعور الانساني النبيل والاخلاص والتدين، وان تكون فعلاً متصفاً بها، ولكن عليك ان تعد نفسك، عندما تقتضي الضرورة، لتكون متصفاً بعكسها. ويجب ان يفهم، ان الأمير، ولا سيما الأمير الجديد، لا يستطيع ان يتمسك بجميع هذه الأمور التي تبدو خيرة في الناس، إذ انه سيجد نفسه مضطراً للحفاظ على دولته، لأن يعمل خلافاً للاخلاص للعهود، وللرأفة والانسانية والدين »[٦].

ومع ذلك نستنتج ان مكيافللي كان يتمنى لأميره ان لا يضطر إلى سلوك الرذيلة او الكذب والخداع لتحقيق مصالح الدولة العليا: « على الأمير ان يتحلى بالفضائل ويكون كريماً وفياً بالعهد وشجاعاً... وعلى الامير ان يظهر نفسه دائماً ميالاً إلى ذوي الكفاءة والجدارة وان يفضل المقتدرين ويكرم النابغين في كل فن وعليه ان يشجع مواطنيه على المضي في اعمالهم وعليه ان يقدم لهم مثلاً على انسانية وجوده محتفظاً دائماً بجلال منصبه ووقار مكانته »[٧]. ويقول ايضاً: « ان على الأمير، ان يتجنب كل ما يؤدي إلى تعرضه للاحتقار والكراهية. وعندما يتحاشى الأمير الاعتداء على املاك عامة الناس واعراضهم، فانهم يعيشون راضين قانعين، ولا يتعرض إلاّ لمكافحة مطامع القلة من الناس الذين في وسعه ان يكبح جماحهم بمختلف السبل، والوسائل »[٨].

وهكذا حقق مكيافللي في كتابه « الأمير » الفصل التام بين السياسة كعلم وبين الاخلاق. فجعل بذلك من السياسة علماً قائماً بذاته يستند إلى الملاحظة والتاريخ. وإذا كان روسو قد اعتمد منهج الملاحظة في علم السياسة فإن مكيافللي اوجد المنهج الموضوعي المستقل عن الاخلاق استقلالاً تاماً[٩] فالكذب والغش والوحشية وسائل قد تكون نافعة في امور السياسة على الرغم من انه كان يراها رذائل من حيث المبدأ وان العبرة ليست في الوسيلة التي توصل إلى الغاية. كما أن ضروب الخداع التي يلجأ إليها الأمير في سبيل الاحتفاظ بدولته كلها « غش شريف، وجرائم مجيدة » لهذا اصبحت لفظة المكيافللية Le Méchiavelisme مرادفة لمعنى الغدر والدهاء والسمعة السيئة بل رديفاً لابليس نفسه[١٠]. « يعتبر مكيافللي بان ما يحرم، عن حق، على صعيد الاخلاق الشخصية ـ كالعنف والباطل والكذب ونكث العهود والاتفاقات... ـ يصبح احياناً على صعيد الاخلاق السياسية مسموحاً به، لا بل واجباً لبلوغ الهدف »[١١].

وأخيراً فان مكيافللي في كتابه « الأمير » قد جسد افكار عصر جديد

يختلف عن العصر الوسيط بمفاهيمه السياسية واخلاقيته المسيحية وذلك باخضاعه جميع المقومات التي كانت تعتبر انسانية (تعاليم دينية ـ اخلاق مثالية) لمصلحة الحاكم ومصلحة الدولة معتبراً ان بناء الدولة لا يتم إلا بدعامتين اثنتين فقط: السياسة والجيش دون الاخذ بعين الاعتبار البناء الاقتصادي أو أي عامل آخر[١٢].

تعددت مواقف الباحثين من كتاب «الأمير» وافكاره السياسية التي تضمنها. فالبابوية هاجمته ووضعته على قائمة الكتب الممنوعة. كما ان محاكم التفتيش باقرار مجمع ترانت احرقت جميع كتب مكيافللي. وكتب اسقف كانتربري ديبول قائلاً: «كتاب انشأته يد الشيطان، وإذا كان الشيطان يطلق عليه في انجلترا **Old Nick** اي نيقولا العجوز، أفليس ذلك اشارة إلى نيقولا مكيافللي؟...»[١٣].

كما هاجمه البروتستانت وبدت مذبحة سان برتلمي سنة ١٥٧٢ في نظرهم خدمة للكاثوليك قدمها كتاب «الأمير». كما ان شكسبير نفسه تساءل في مسرحيته «زوجات وندسور» على لسان احدى شخصياته قائلاً: «ماذا، أأنا مخادع... أأنا مكيافللي؟».

لقد ساهمت مواقف الملوك المستبدين والطغاة في تجسيد، ما علق في اذهان الناس من ان كتاب «الأمير» كان انجيلهم في الحكم. إذ سار على نهجه فريدريك الأكبر ملك بروسيا، واوصى ريشليو وزير لويس الثالث عشر، الذي كان معجباً بمكيافللي ان يكتَب دفاع عنه وعن كتابه. كما كان وليم اورانج يضعه تحت وسادته. اما لويس الرابع عشر فقد اتهم انه نشأ على مذهب مكيافللي. واعتبر نابوليون انه اقدر امير مكيافللي. ويذكر فكتور هيجو ان نابوليون الثالث عندما يغضب كان يقرأ كتاب «الأمير». أما موسوليني فقد كتب سنة ١٩٢٤ معلقاً على كتاب «الأمير» الذي كان موضوع رسالته لنيل الدكتوراه بوصفه له «ملازم رجل الحكم»: ان «مذهب مكيافللي تدب فيه الحياة اليوم أكثر مما كانت تدب فيه منذ اربعة

قرون »[١٤]. أما هتلر فلم يكن في سياسته يقل تمسكاً عن موسوليني في تطبيق سياسة «الأمير» التي وضعها مكيافللي.

أما الذين دافعوا عن مكيافللي او بالاحرى الذين اعطوا تفسيرات مغايرة للتفسيرات التي اعطاها الملوك والحكام المستبدين لكتاب «الأمير» فقد وجدوه كتاباً للديموقراطيين اراد منه مكيافللي ان يكشف للناس عن سياسة المستبدين واساليبهم في الحكم ليكونوا منها على حذر شديد، خاصة وأن مكيافللي لم يكن يعرف الخداع والغش بل كان صادقاً أمينا مستقيماً، وان مسلك الطغاة الذين جاؤوا بعد مكيافللي تجاه رعيتهم لا يقل عن مسلك امثالهم قسوة ووحشية وخداعاً قبل مكيافللي بعهد طويل. ولهذا اتخذ مونتاني Montaigne موقفاً محايداً من كتاب الامير، بينما اعتبر بيكون ان مكيافللي قد وصف الحكام كما هم وليس كما يجب ان يكونوا. في حين برر هيجل تصرفات الامير التي وصفها مكيافللي لاقامة دولة ايطاليا الموحدة. بينما اعجب الموسوعيون بجرأته فاعتبره روسو في «العقد الاجتماعي» رسول الديموقراطيين بقوله: «كان مكيافللي يتظاهر بتقديم الدروس للملوك بينما يكون قد القى على الشعوب دروساً عظيمة. ان كتاب الامير لمكيافللي هو كتاب الجمهوريين »[١٥]، كما ينسب إلى روسو قوله: «كان مكيافللي رجلاً مستقيماً ومواطناً صالحاً، لكنه لتعلقه بآل مدتشي كان مضطراً في ظروف قهر وطنه إلى اخفاء حبه للحرية. فان اختياره لبطله الممقوت وحده يظهر بما يكفي قصده الخفي، ولعل مقارنه المبادىء الاساسية في كتابه «الأمير» بمبادئه في مقالاته عن تيت ليف Tite-Live وتاريخه عن فلورنسا تبرهن على ان هذا السياسي العميق لم يحظ حتى الآن إلا بقراء سطحيين او فاسدين. لقد حرمت المحكمة البابوية تداول كتابه تحريماً قاطعاً، ولست اعجب من ذلك فان اوضح تصوير لفسادها كان تصويره هو»[١٦]. أما اليعاقبة فقد اعتبروا ان كتاب «الأمير» قد وضع ليكشف للناس عن اساليب الحكام وحيلهم. ونرى غرامسكي ايضاً في دعوته ضد المرتزقة يدعو لتأسيس ميليشيا شعبية تشبه

الجيش اليعقوبي « لا وجود للأمير الحديث، للأمير الاسطورة. انه لا يمكن ان يكون فرداً بل تنظيماً فقط... ولقد رأينا امثلة على هذا التنظيم خلال تطور التاريخ، انه الحزب السياسي »[١٧].

واخيراً فان مكيافللي قد استطاع ان يصور الوضع في ايطاليا كما هو اوائل القرن السادس عشر. وان الوضوح في رؤياه انما هو ناتج عن تحليله الصحيح لهذا الوضع. ولهذا استمرت اعتباراته في اذهان الايطاليين الذين جعلوا ذكرى مولده عام ١٨٦٩ عيداً قومياً تجسدت فيه ايطاليا الموحدة. فاقامت مدينته ـ فلورنسا ـ على ضريحه نصباً تذكارياً كتب عليه عبارة « لن يكون اي اطراء كافياً لوفاء مثل هذا الاسم العظيم حقه »[١٨].

## ٢ - بودان Bodin ( ١٥٣٠ - ١٥٩٦ )

حفل القرن السادس عشر بالمنازعات الدينية التي جعلت المجتمع الأوروبي معسكرين متنافرين. وكان أثر الانقسام الذي يحصل ضمن الدولة الواحدة اشد خطورة منه بين دولتين اثنتين. فبينما انسحاب انكلترا من المعسكر الكاثوليكي البابوي يكاد لا يؤثر على هيبة الملكية الانكليزية اذا ما استثنينا اضطرابات القرن السادس عشر التي حصلت باسم الدين. نجد خطر الانقسام في فرنسا يهز الحكم المطلق الذي تتنازعه الاسر الارستقراطية تحت ستار الخلاف الديني. وهكذا تعرضت فرنسا في هذه الفترة لحرب اهلية غير متكافئة ادت الى تدبير مذبحة سان برتلمي ١٥٧٢ التي ذهب ضحيتها اكثر من عشرين الف قتيل.

استمد جان بودان افكاره السياسية من هذا الواقع الذي كانت تجتازه فرنسا. ووضع كتابه « الجمهورية » (La République) سنة ١٥٧٦ الذي ضمّنه جميع ارائه ونظرياته في السياسة والقانون والإقتصاد. وترجع اهمية هذا الكتاب الى اعتماد مؤلفه على اسلوب جديد في التحليل اخذ به هوبز بعد ذلك، وعلى نظريات تعتمد على ملاحظة الواقع والبحث التاريخي المقارن الذي اخذ به مونتسكيو في روح الشرائع فيما بعد[١٩].

كان جان بودان يؤمن بالحكم الملكي المطلق على حساب الاقطاعية. وانه لا سبيل الى انقاذ فرنسا من الانقسام الا بتقوية السلطة الملكية. اذ ان الحكومات الديموقراطية بنظره تكون اكثر تعرضاً للثورات بينما الحكومات الارستقراطية اكثرها تعرضاً للانقسام.

والدولة عند بودان هي حكومة شرعية تضم عدداً كبيراً من الاسر ومن فوقها سيادة عليا. لذلك فهي تقوم على ثلاث دعائم: الاسرة والحكومة الشرعية والسيادة. فالحكومة الشرعية ضرورية لكل مجتمع اذ لا

وجود للدولة بدونها. اما السيادة فهي القلب النابض بل هي سر حياة الدولة [٢٠]. وهي سلطة دائمة ومطلقة وغير مقيدة ولا مجزأة ولا يمكن التصرف بها. فلا يعلو عليها اية سلطة « سلطة اعلان الحرب وعقد معاهدات السلام. وتعيين كبار الموظفين والقيام بدور محكمة آخر درجة. ومنح الاعفاءات، وسك العملة، وفرض الضرائب » [٢١] وهكذا فإن السيادة بنظر بودان « هي سلطة عمل القوانين بالنسبة للشعب عامة، بل وبالنسبة لكل فرد منه على حدة، وذلك من غير حاجة الى ان يحصل الامير على رضا غيره. لأن الامير اذا كان لا يستطيع سن القوانين الا بعد الحصول على موافقة من هو اعلا منه لما عد اميراً، وانما يكون تابعاً من الرعية. واذا اقتضاه الأمر الحصول على موافقة ند أو انداد له لعمل القانون لكان له شركاء في السلطة ثم ما كان صاحب سيادة. وكذلك الحال اذا اقتضى الأمر رضا الرعية: ان الأمير لا يعد أميراً ذا سيادة الا اذا كان عمل القانون متوقفاً على ارادته هو يصدره ويلغيه وفق رغبته. فلا يتوقف على موافقة اي اعلا منه او ند له او على رضا اي دونه » [٢٢].

ويعتبر بودان بنظر اكثر المحدثين انه من اكبر فلاسفة علم السياسة وواضع اسس الحكم المطلق. ففي تفكيره افلاطوني النزعة وفي منهجه العلمي ارسطوطاليسي. شارك مكيافللي في اعتماده على الواقع والمشاهدة والتاريخ والاستنتاج [٢٣]، كما شاركه في وجوب تخطي السلطة للحرية الفردية والعقد الجماعي مع انه ضد الطغيان الذي يتنافى مع قوانين الحرب والطبيعة.

وكما ادان انصار الديموقراطية والحرية مذهب مكيافللي، فانهم هاجموا اراء بودان السياسية المرتكزة على الحكم المطلق. اذ ان ملوك فرنسا بعد القرن السادس عشر وجدوا في تعاليمه ايضاً ما يسند رغبتهم في التسلط والاستبداد. فاقاموا لهم حكومات مطلقة ذات سيادة آلهية على غرار المفاهيم التي وضعها.

## ٣ - هوبز (Hobbes) (١٥٨٨ - ١٦٧٩)

لم تقتصر تطلعات الفلاسفة على تمتين الحكم المركزي للدولة على فرنسا فحسب، بل تعدتها ايضاً الى انكلترا. وبدا تطور الفكر السياسي في هذه الحقبة مديناً الى حد بعيد الى الصراع على السلطة والحروب الاهلية التي اصابت كل من فرنسا وانكلترا منذ القرن السادس عشر. وفي خضم الصراع الذي حدث في انكلترا ابان ثورة كرمويل التي ادت الى اعدام الملك شارل الاول، سنة ١٦٤٩ وضع هوبز كتابه المسمى **Leviathan** سنة ١٦٥١ وهي لفظة جاءت في العهد القديم تعني العملاق أو التنين.

حاول هوبز ان يقيم شبهاً بين الدولة ووحشه الخيالي. اذ ان الدولة بنظره هي شيئاً خياليا من صنع الانسان ومع ذلك فقد تعدت قوته وبات لزاماً عليه الطاعة لها لأن مهمتها السهر على مصالح الافراد ومنع اي اعتداء يقع عليهم بالقوة لأن العهود بدون القوة ليست الا كلمات: «العهود بغير السيف ليست سوى الفاظ ولا تملك قوة على توفير الأمن للمرء على الاطلاق... وروابط الكلمات اضعف من ان تلجم طموح الناس وجشعهم وغضبهم وغير ذلك من العواطف الجامحة، دون خوف من قوة قادرة على القمع»(٢٤).

وهكذا فان الامن عند هوبز مرتبط بوجود حكومة قوية تقمع الخارجين عن ارادتها. وهو يضع قارئه بين اختيارين اثنين فقط: اما السلطة المطلقة واما الفوضى. ولهذا وجب ان تتركز السلطة بيد حاكم واحد (صاحب السيادة) يتمتع باصدار القوانين وتفسيرها وتنفيذها بحسب ارادته ومشيئته لكون اوامره وتشريعاته لا يمكن ان تكون ظالمة. والسيادة بنظره لا تنقسم ولا تفوض، كما هي الحال عند بودان، لأن الافراد تنازلوا عن حقوقهم الطبيعية وحريتهم وارادتهم لصاحب السيادة بشكل لا رجعة فيه. فالحرب الاهلية التي حدثت في انكلترا كانت بنظره بسبب تخلي الملك عن السيادة

الكاملة التي يتمتع بها للبرلمان عندما اتاح له مشاركته في حكم البلاد . فهو اذن لا يبرر حق الشعب المشروع في الثورة او مقاومة السلطة لأن كل ثورة ضد السلطة لا بد الا ان تكون على باطل [٢٥] . ومع ذلك فان هوبز يضع استثناء واحداً فقط لعدم اطاعة القانون وذلك حين تعرض اطاعة القانون أو السيد حياة المواطن لخطر أشد من العصيان. وهو يظهر لنا من خلال هذا الاستثناء انه من اصحاب المذهب الفردي الذي يضع الدولة لخدمة مصالح الأفراد [٢٦] . ولهذا يرى سباين ان قوانين هوبز من حيث الجوهر هي « للسلام والتعاون والمنفعة بالنسبة إلى المحافظة على الذات أكبر من منفعة العنف والمنافسة العامة، والسلام يتطلب الثقة المتبادلة » [٢٧] .

ومحور نظرية هوبز السياسية هي تأييد الحكم المطلق وتركيزه بيد سلطة زمنية واحدة تخضع لها الكنيسة سواء كانت هذه السلطة هيئة ام مجلس ام ملكية. ولكنه يرى ان النظام الملكي اكثر الحكومات استقراراً وقدرة على حفظ السلام والأمن [٢٨] . ولهذا تعتبر فلسفة هوبز محاولة ارستقراطية لدعم الملكية الانكليزية المنهارة تحت ضربات البورجوازية.

وأسلوب هوبز في كتابه « التنين » استنباطياً واضحاً ينتقل في منهجه من فرض الى آخر حتى يدرك غايته من فروضه الموضوعة عكس منهج مكيافللي الواقعي في كتابه الأمير. وهو إن كان لم يلجأ الى فكرة الحق الآلهي للملوك الا ان دفاعه عن الملكية كان دفاعاً بسيطاً عندما شبه السلطة بالوحش. « ان فلسفة هوبز السياسية هي اروع بنيان لا يحتمل المقارنة انتجته فترة الحروب الأهلية الانجليزية. وهي مشهورة اساساً بوضوح الحجة المنطقي والاتساق الذي يلازمها منذ الفروض التي بدأت منها هذه الحجة. ولم تكن باي معنى نتاج المشاهدة السياسية الواقعية » [٢٩] .

## ٤ - بوسويه (Bossuet)( ١٦٢٧ - ١٧٠٤ )

تعتبر افكار بوسويه السياسية تأييداً لواقع السلطة التي كان يمارسها لويس الرابع عشر الذي جعله مثقفاً لولي عهده. وبحكم هذه الوظيفة التي كان يشغلها بوسويه وبحكم منطلقاته الدينية وضع كتابه المسمى: «السياسة المستمدة من الكتاب المقدس» الذي قدم فيه جميع براهينه وامثلته من الكتب المقدسة.

يعد كتاب بوسويه نموذجاً للفكر الديني المؤيد للسلطة. اذ انه يرد السلطة الى مصدرها الآلهي مشبهاً اياها كهوبز بسلطة الاب على الاسرة. ويعتبر ان الملوك مفوضين لحكم شعوبهم من قبل الله. ولهذا فلا يبرر اي خروج على السلطة مهما كانت جائرة لأن طاعة الملوك هي طاعة الله. كما ان شرعية السلطة تكمن عنده في وجودها: «ليس العرش الملكي عرش انسان ولكنه عرش الله ذاته»[٣٠]. وهكذا فان أصلح اشكال الحكومات بنظر بوسويه هي الملكية الوراثية التي تستند على الحق الآلهي في الحكم وتنتقل بين الذكور من الابن الاكبر الى الابن الأكبر متأثراً بذلك بالنظام الاقطاعي الذي تنتقل فيه السلطة أو حيازة الارض على هذا الشكل[٣١].

## ثانياً: الفكر السياسي في خدمة الفرد

### أ - المجتمع الفرنسي في عصر الانوار

على الرغم من ان الملكية في فرنسا استطاعت ان تنتزع من الاشراف السلطة السياسية عبر نضال طويل كما رأينا. الا أنها ابقت بيدها امتيازاتها الاجتماعية والاقتصادية. هذه الامتيازات كانت عبئاً ثقيلاً على الطبقة الثالثة وهي طبقة العامة.

كان الشعب الفرنسي قبل قيام الثورة يقسم الى ثلاث طبقات او منظمات اجتماعية هي الاكليروس والنبلاء ثم عامة الشعب. هذا التقسيم لازم فرنسا منذ القرن العاشر وهو الذي عبر عنه الفرد الكبير بقوله: «بيت الله المثلث» البعض يقاتل، والبعض يعمل، والبعض يصلي.

## ١ - طبقة النبلاء

كانت تؤلف هذه الطبقة ١,٥٪ ( ٣٥٠,٠٠٠ ) من مجموع سكان فرنسا البالغ عددهم نحو ٢٥ مليوناً [٣٢] . ومع ذلك فقد تمتعت بامتيازات كثيرة ومتنوعة ورثتها عن عهد الاقطاع. ففي المجال الاقتصادي كان الاشراف يملكون الضياع الواسعة ويعتبرون اسياد الاقنان والفلاحين الذين يشتغلون بها. عدا عن انهم كانوا معفيين من دفع الضرائب التي كان صغار الملاك من العامة يتحملون عبء دفعها. الى جانب حقهم في تسخير العامة في الاعمال الزراعية وشق الطرق ومد القنوات واقامة الجسور ودفع ضرائب عينية عن غلالهم ومواشيهم. كما كان من حق النبيل ايضاً ان يلزم الفلاحين بطحن غلالهم في طاحونته وعصر كرومهم في معصرته وخبز عجينهم في فرنه.

اما الامتيازات الاجتماعية للنبلاء فكانت عديدة ايضاً منها حق حمل السيف وحق الصيد واحتكار الوظائف العالية في الجيش او في الكنيسة او الادارة الحكومية. هذا بالاضافة الى الامتيازات القضائية التي تمتعوا بها، اذ كان من حقهم الفصل في المنازعات القائمة بين المزارعين في املاكهم كما وانهم يستطيعون بواسطة الاوراق البيضاء او ما يسمى بالإرادة الملكية (Lettres de Cachet) ان يزجوا في السجن من لا يأتمر باوامرهم.

وكانت هذه الطبقة تحوي فئات مختلفة متناقضة المصالح ولم تكن تؤلف طبقة اجتماعية متجانسة فقد كان هناك نبلاء السيف (Noblesse d'epée) المقيمين في البلاط يحيون حياة بذخ وترف معتمدين على هبات الملك وما تعطيه الاراضي الواسعة التي يملكونها، ثم نبلاء الرداء (Noblesse de Robe) الذين حصلوا على هذا اللقب عن طريق شرائهم لوظائفهم في الدولة وكانوا في الاصل ينتمون الى الطبقة البورجوازية ومنهم كانت الاسر القضائية. اما نبلاء الارياف الذين كانوا يعيشون مع فلاحيهم حياة قاسية لانهم كانوا

يمنعون من تعاطي الاعمال اليدوية وحراثة ارضهم بأنفسهم، فقد كان دخلهم الرئيسي ما يحق لهم من الحقوق الاقطاعية وكانت هذه الفئة محتقرة من قبل نبلاء البلاط ومكروهة من قبل القرويين.

لهذا كانت طبقة النبلاء متناقضة في اوضاعها الاقتصادية ففيها الثري جداً والفقير جداً. فالدوق أورليان مثلاً كان يبلغ دخله السنوي (٤٠٠,٠٠٠) جنيه استرليني وهو دخل عال جداً بينما غيره من نبلاء الأرياف كان يحرث حقله الصغير بيده. واهم ما يشار اليه ايضاً ان هذه الطبقة اخذت تهتم في الثمانينات بمشاريع البورجوازية فاخذت تتعاطى الاعمال الصناعية وتتقرب من البورجوازية عن طريق التزاوج او الاشتراك معها في تشغيل رؤوس اموالها في الصناعة الكبرى لأن التطور الاقتصادي كان شؤماً على هذه الطبقة ولان الحروب أصبحت تؤدي الى افلاسهم لأنها لم تعد تعود بغنائم ولا فدية. وقد نتج عن انعدام المساواة بين ثروات ومعيشة افراد هذه الطبقة ان تناقصت اعدادها واضمحل دورها حيث كان البورجوازيون يملؤن الفراغ الذي كان يحدث بين صفوفها.

## ٢ - طبقة الاكليروس

كانت الكنيسة هيئة مستقلة بعيدة عن هيمنة الدولة تتدخل في حياة المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بل ان نفوذها داخل هذه المؤسسات يكاد يكون بالغاً الى ابعد الحدود على الرغم من قلة عدد رجال الدين في ذلك الوقت (١٢٠,٠٠٠ شخص) [٣٣] فقد اعتبروا انفسهم الهيئة الأولى في المملكة لهذا فقد تمتعوا بامتيازات سياسية وقضائية وضرائبية جعلتهم يملكون نحو عشرة بالمئة من الارض بالاضافة الى مدخول العشر والاعفاء من جميع الضرائب. ولم يكن على الكنيسة الا تقديم هبة اختيارية للتاج مما جعلها بالتالي تفرض ضغطها المالي على الحكومة بالتهديد بقطع هذه المعونة.

ومما كفل للكنيسة النفوذ على المجتمع الفرنسي انها كانت تهيمن على التعليم والاعلام بالاضافة الى رقابة المطبوعات التي ترى فيها خطراً على الدين والاخلاق ثم ان النبلاء والبورجوازيين قد تعلموا في مدارسها والسكان يحتفلون باعيادها الدينية. ومع ذلك فقد وقع الأكليروس فريسة ازمة حقيقية. فالدعوة الدينية لم تعد تعتمد كما في الماضي على اساس الايمان وحده الذي زعزعته الدعاية الفلسفية منذ زمن طويل. ولم يكن الاكليروس في الواقع يشكل مجموعاً متجانساً اجتماعياً ولو أنه كان يؤلف منظمة ويتمتع بوحدة روحية. ففي صفوفه كما في مجتمع النظام القديم يتعارض النبلاء والشعب، علية الاكليروس وعامة الاكليروس (وعددهم ٥٠ الف خوري)، الارستقراطية والبورجوازية.

## ٣ ـ الطبقة الثالثة

تشمل هذه الطبقة عامة الشعب في الارياف والمدن ثم البورجوازية التي يرتبط بها اعضاء المهن الحرة. (القضاة والمحامون وكتاب العدول والأساتذة والاطباء). ثم البورجوازية العليا (ممثلو المال والتجارة الكبيرة كاصحاب السفن والبنوك ومتعهدو الضرائب).

### أ ـ البورجوازية:

من الملاحظ ان المجتمع الفرنسي كان ما يزال مجتمعاً زراعياً حتى منتصف القرن الثامن عشر لذلك فان طبقة البورجوازية بجميع اشكالها (العليا والصغيرة) كانت لا تشكل الا أقلية بالنسبة لطبقة المزارعين. وعلى الرغم من اقليتها هذه فقد شكلت هذه مجموعات عديدة منها:

ـ بورجوازية اصحاب الدخل يعيشون من فائدة رؤوس اموالهم. ومن مداخيل الاملاك العقارية.

ـ مجموعة المهن الحرة ورجال القانون من ١٠٪ الى ٢٠٪ من اعداد البورجوازيين. هذه الفئة لعبت دوراً كبيراً سنة ١٧٨٩ لانتمائها المتحمس لفلسفة الانوار.

ـ مجموعة الحرفيين والحانوتيين وهي بورجوازية صغيرة أو متوسطة.

ـ مجموعة بورجوازية الاعمال الكبرى وتأتي في اعلا السلم وتشمل فئة المتعهدين وبورجوازية المال والتجارة الخارجية.

كانت هذه المجموعات لا تقل شأناً في المجتمع الفرنسي عن ارستقراطية المولد بفضل ثرواتهم الضخمة وقروضهم للدولة وهباتهم للملوك.

اما البورجوازية الصناعية فكانت ما تزال مرتبطة بالتجارة (التاجر يقدم

المواد الاولية للحرفي ويأخذها مواداً صناعية) الا انه بعد ظهور صناعة التعدين ابتدأ الانتاج الرأسمالي في الظهور في أواخر القرن الثامن عشر.

### ب ـ سكان المدن

لقد كان سكان المدن الذين يشكلون حوالى ١٦٪ من مجموع الشعب فئات مختلفة ومجزأة الى عدة مجموعات. فالتجار الاغنياء يتطلعون لأن يصبحوا من كبار رجال الصناعة. والصناع يقاومون الضغط حتى لا يتحولوا الى طبقة البروليتاريا. وعلى الرغم من هذه الانقسامات فقد التحموا التحاماً وثيقاً بالبورجوازية الثورية بسبب حقدهم على الارستقراطية وعلى النظام القائم. اما عن وضع الصناع والعمال الذين لفظتهم الزراعة ولم تستقطبهم الصناعة بعد،فقد كانوا اكثر الطبقات بؤساً وأسوأهم حالاً واشدهم تأثراً بالضائقات المالية نظراً لسوء حالة الصناعة والتجارة وتأدية الضرائب الجمركية العالية حتى انهم كانوا يجدون في نظام طوائف الحرف الفاسد عائقاً في سبيل تقدمهم. وكان من السائد عند البورجوازية القول ان الفقر دلالة على عدم الرضا الالهي ثم مع تطور الاقتصاد الاوروبي اصبح الفقر بالنسبة لها يمثل عقاباً عادلاً للكسل وللانحراف (٣٤).

ان ما حدث قبيل الثورة بعدة اشهر ليشهد على مدى فعالية سكان المدن في قيام هذه الثورة. فعلى اثر اعلان صاحب مصنع الورق ريفيون بأن العامل يستطيع ان يعيش بـ ١٥ فلساً بدلاً من ٢٠ فلساً وهو المعدل اليومي، قامت المظاهرات وذهب فيها الكثير من الضحايا احتجاجاً على هذا الاعلان. وما نلمسه في هذا اليوم الثوري ازدياد وضوح الاسباب الاجتماعية والاقتصادية للثورة الفرنسية. أما خلال الثورة فقد مثل سكان المدن عنصراً عظيماً فيها: فهم الذين اسقطوا الباستيل وهاجموا الملك في فرساي وشكلوا الحرس الوطني الذي حمى الثورة.

### ج ـ الفلاحون ( القرويون )

كان يبلغ عدد سكان الريف الذين يعيشون من الزراعة حوالى عشرين مليوناً. اذ ان الانتاج الزراعي بقي مسيطراً على الحياة الاقتصادية حتى اواخر القرن الثامن عشر. ومن هنا جاء دور القرويين مهماً في الثورة بل من أهم الحوافز التي حركت هؤلاء هي حقوق الاسياد واستمرار الاقطاعية والضرائب الفادحة التي كانت تلقى على كواهلهم. لأن الأشراف والاكليروس كانوا يرفضون دفع ما يتوجب عليهم من الضرائب.

كان المجتمع القروي يحوي فروقاً ومتناقضات بمقدار ما كان يحوي سكان المدن: (المزارعون الكبار والفلاحون والمزارعون بعقد والمزارعون بالمناصفة وصغار القرويين والمياومين الذين لا يملكون الا سواعدهم). وعلى الرغم من وضعهم السيء فقد كان يُلقى عليهم اعباء عديدة منها:

- **الاعباء الملكية:** كان على القروي وحده دفع ضريبة عقارية عن المساكن والاراضي هي ضريبة التاي (Taille) بالاضافة الى ان الحكومة كانت تحتكر الملح وتجبر كل شخص على شراء قدر معين منه وتعرف باسم (Gabelle). إلى جانب مساهمته في ضريبة الاعناق والعشرينات عن مداخيل الاملاك غير المنقولة والتجارة والحقوق الاقطاعية. ثم تأدية السخرة في اعمال الطرق والنقل العسكري.

- **الاعباء الكنسية:** على الرغم من ان الكنيسة كانت تمتلك ثروة هائلة فقد فرضت على القروي ان يدفع ضريبة تبلغ العشر على الغلال والمواشي. وبدل من ان تنفق الكنيسة اموالها على الفقراء والاعمال الخيرية فقد تركتها تحت تصرف كبار رجالها.

- **الاعباء الاقطاعية:** وكانت هذه اثقل الخدمات المفروضة على القروي واشدها كراهية لنفسه. فقد كان يفرض عليه دفع ضريبة المكوس عن الانتقال (عبور الجسور والسير في الطرق) ودفع حصة عينية من

محصولاته ورسوم مفروضة على عصر الاعناب وطحن الغلال واستخدام الافران. فضلاً عن حقوق الاسياد التي تشمل حق الصيد أراضي الفلاح دون تعويض. وتسخير القروي في خدمة السيد الاقطاعي ودفع الاتاوات والاكراميات عند بيع الارض أو انتقالها الى احد الابناء.

ويكفي ان نذكر ما كان يتوجب على القروي دفعه من اصل ما يحصله لنعرف فداحة الضرائب التي كانت مفروضة عليه. فقد كان يدفع من اصل مائة فرنك يجنيها: ١٤ فرنكاً للنبيل و ١٤ للكنيسة و ٥٣ فرنكاً للحكومة. بالاضافة الى ان الطبقة البورجوازية وحتى سكان المدن كانوا ينظرون الى الفلاح انه الكائن الجاهل المتوجب عليه خدمة الطبقات الحاكمة وتمويل الخزانات الملكية (٣٥).

**د - رجال الجيش:**

كانت الرتب العليا في الجيش محصورة في طبقة الاشراف دون الاخذ بعين الاعتبار القدرة العسكرية للشخص. لذا فقد استخف الافراد برؤسائهم الذين تنقصهم الخبرة العسكرية. وعندما قامت الثورة لم تستطع الحكومة الاعتماد على الجيش في قمع الثورة او تسييرها في اتجاه معين.

يتبين من هذا العرض الموجز والمبسط مدى الهوة الساحقة والعداء الذي استحكم بين الطبقة الممتازة والغير ممتازة في ظل النظام القديم الذي اصبح مجتمعاً معقداً يتميز باختلافات كبيرة على جميع المستويات. ومن ثم فان الوعي المتزايد والحالة الاقتصادية النامية التي وصلت اليها الطبقة الوسطى جعلها تقف بوجه الهجوم الارستقراطي الذي اساء الى تطلعاتها واثار سخط الفلاحين الذين ساندوا البورجوازية في تحديها التاريخي الذي حصل عام ١٧٨٩.

اما عن الحالة السياسية التي سادت فرنسا في القرن الثامن عشر. فإنه على الرغم من أن الملكية ظلت فيها حتى أواخر القرن الثامن عشر تتمتع بنفس النظرية التي كانت سائدة في اوروبا منذ أيام لويس الثالث عشر وهي نظرية

الحق الالهي للملوك في الحكم. إلا أنها من جانب اخر فقدت هيبتها والكثير من عناصرها في أواخر القرن وذلك نتيجة لمساوىء الملوك التي تمثلت في هزائم جيوش لويس الرابع عشر وكذلك الحروب التي استنزفت الاموال والارواح فضلاً عن انتشار الاوبئة والمجاعات بين عامة الشعب وكثرة الاضطهاد الديني والسياسي وفداحة الضرائب والمبالغة في الاسراف الشديد من جانب الملك وحاشيته...

وعندما اعتلى لويس الخامس عشر العرش (١٧١٥ - ١٧٧٤) استبشر الناس أول الامر خيراً. ولكن ما اشتهر به هذا الملك من الانغماس في الشهوات جعل الناس يصابون بخيبة امل عظيمة. وان كلمة لويس الخامس عشر المأثورة: من بعدي الطوفان (Aprés moi les déluge) لتدل دلالة واضحة عن اليأس والانانية التي اصابت المؤسسة الملكية في هذا العهد. وتجدر الاشارة هنا الى ان السخط العام والهجمة الفكرية لم تكن موجهة ضد النظام الملكي الارستقراطي، بقدر ما كانت موجهة ضد شخص هؤلاء الملوك. وخاصة ان فريدريك العظيم البروسي قد اثبت كيف يستطيع الملك الحازم ان ينقذ بلاده من الاضطراب والاضمحلال. ولهذا فان الشعب نفسه وهو في اعلا مراحل الثورة لم يكن يفكر مطلقاً (سوى بعض الاستثناءات) في اقامة الجمهورية والقضاء على الملكية.

أما في عهد لويس السادس عشر فقد مني الشعب ايضاً بخيبة اكبر ويأس أشد وذلك على الرغم من رغبة هذا الملك في الاصلاح. إلا أنه كان عاجزاً عن تنفيذه في دولة فسدت فيها اداة الحكم وكان لا يمكن اصلاحها الا بإرادة قوية وهي الصفة التي كان يفتقر اليها لويس السادس عشر. وحتى ان ضعف ارادته كانت من العوامل الهامة لاشتداد الثورة. عدا عن أنه كان مستسلماً لإرادة زوجته النمساوية ماري انطوانيت التي كانت تتمتع بسلطة واسعة مما كان له أثر سيء على سياسة الدولة وخاصة ان هذه الملكة كانت مولعة بحياة الترف والبذخ والاسراف وبعيدة عن كل محاولة اصلاحية.

بالإضافة إلى كونها نمساوية، البلد الذي كان عدواً تقليدياً لفرنسا. فالنمسا بنظر الفرنسيين أضاعت على فرنسا ممتلكاتها في أميركا والهند أثناء حرب السبع سنوات. ولم يجد الفرنسيون تعبيراً لذمها اكثر من قولهم: «النمساوية» (L'Autrichienne) ومن قول احدهم «إن الملك كان حوله رجل واحد.. زوجته». لهذا فقد كان لويس السادس عشر يتخبط في سياسته الداخلية والخارجية. ولو أنه استمع إلى آراء وزراء المال امثال تيرغو (Turgot) ونيكر (Necker) لكان من الممكن ان يتغير وجه الثورة.

### ب ـ فلسفة الانوار

تبوأت فرنسا في القرن الثامن عشر مكانة عظيمة في عالم الفكر بفضل عدد من الفلاسفة مثلت فلسفتهم مصالح ومتطلبات الاغلبية العظمى من المجتمع الفرنسي. اذ إن انتقادات هؤلاء الفلاسفة لم تقتصر على المسائل الدينية والسياسة الضرائبية والاستغلال الاقطاعي فقط، بل شملت النظام القديم الذي يقوم على نظرية الحق الالهي واستبداد الملكية ومؤسساتها السياسية. فطالبوا بالتسامح الديني والمساواة الاجتماعية والأخذ بمذهب سيادة الشعب واقامة العدل والمحافظة على حقوق الانسان الطبيعية المتجسدة في الحرية وحق التملك المقدس، كما طالبوا باحلال سيادة العقل محل التسلط والتقليد وميتافيزياء القرن السابع عشر، معتبرين العصر الوسيط مرحلة انقطاع حضاري للبشرية. وهكذا خاض فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين معاركهم ضد السلطة على ارضية سياسية بحتة بعد ان تجاوزوا الصراع الديني الذي اتخذته البورجوازية الاوروبية في القرن السادس عشر سلاحاً لها ضد الاقطاعية الدينية والارستقراطية [٣٦].

وان كانت فلسفة التنوير قد تحدرت من الفلسفة الديكارتية، إلا انها تدين بمنهجها وجوهرها الى فلسفة لوك وواقع الحياة السياسية الانكليزية ايضاً. فبينما تنتمي فلسفة لوك الى القرن السابع عشر في انكلترا فإنها تنتمي في

فرنسا الى القرن الثامن عشر، وفي حين مثلت فرنسا، ما قبل الثورة، هجوماً على المصالح الاقطاعية نراها في انكلترا، بعد الثورة الجليلة، تنتصب دفاعاً عنها [٣٧]. ومع ذلك فقد تجاوز الفلاسفة الفرنسيون معلمهم لوك وجعلوا من القرن الثامن عشر قرناً فرنسياً لا جدال فيه: «ثمة اسباب اجتماعية، فضلاً عن السياسية، اعطت الفلسفة السياسية الفرنسية نغمة من المرارة ليس لها نظير في فلسفة لوك. كان المجتمع الفرنسي نسيجاً من امتيازات جعلت الانقسام بين الطبقات اشد وعياً، واكثر استفزازاً ان لم يكن اكثر واقعية، منه في انكلترا. وكان رجال الدين لا يزالون يملكون نحو خمس اراضي فرنسا بالاضافة الى دخل طائل وامتيازات واعفاءات جوهرية، ولكن بلا تفوق اخلاقي او فكري يبرر مركزهم، وكذلك كانت طبقة النبلاء تتمتع بامتيازات بلا سلطة سياسية أو زعامة» [٣٨]. وقد امتازت فلسفة الانوار هذه بعدة مميزات رئيسية اهمها:

- انها كانت عالمية النزعة، تخطت الحدود الجغرافية لانطلاقتها، فتجاوزت بذلك التعصب القومي والتزمّت الاقليمي اللذين سادا اوروبا في تلك الحقبة.

- انها اشادت بالانسان الحر وكانت ذات نزعة فردية خالصة باعتبارها الفرد محور المجتمع المدني.

- انها كانت معادية لهيمنة الكنيسة ومفاسد المؤسسة السياسية.

- انها كانت ذات منهج تجريبي جدلي. مجدت العقل ونبذت الخرافات والترهات.

- انها طرحت تصوراً جديداً للعالم ومهدت لانطلاقة البشرية وتطورها.

واهم هؤلاء الفلاسفة واعظمهم اثراً: لوك وفولتير ومونتسكيو وروسو.

## ١ - لوك (Locke) ( ١٦٣٢ - ١٧٠٤ )

كان جون لوك في تفكيره يكره الاستبداد والحكم المطلق. فقد عاش منفياً في هولندا منذ ١٦٨٣ حتى قيام الثورة المجيدة ضد جيمس الثاني. ولما عاد الى انكلترا وضع كتابه « رسالتان في الحكم المدني » سنة ١٦٩٠ استلهم افكاره فيه من الاحداث السياسية التي وقعت في انكلترا خلال القرن السابع عشر. كما وضع بعدها خطابه عن التسامح وابحاثاً في التربية والاقتصاد والصحافة والدين.

لقد حاول لوك في رسالتيه عن الحكم المدني ان ينفي الصفة الالهية للملوك في الحكم. كما حاول ان يبرهن ان الشرعية في الحكم لا يمكن ان تتحقق بوجود الحكام الطغاة اذ لا يعقل ان يركن الناس الى حكومة تقوم على الاستبداد. وهو بذلك يريد تبرير ثورة ١٦٨٨ ضد (شرعية) ملوك ستيوارت. فيذكر في المقدمة انه يرجو « ان يترسخ عرش ملكنا المعاد العظيم وليم، وان يصبح لقبه صالحاً باسناده الى موافقة الشعب »[٣٩].

تقوم فلسفة لوك السياسية على وجوب احترام الدولة للحرية الفردية والعمل على حمايتها وان اجدى الوسائل بنظره للمحافظة على حرية الافراد هي بفصل السلطات لأن الجمع بينها يغري بلا شك بالتحكم كما ينزلق الى الاستبداد. ويطالب لوك بالحرية الفردية نتيجة لاحتكار الاقطاعيين للسلطة ومحاولتهم التمسك بها. وهو يقسم الدولة الى سلطتين تشريعية مهمتها سن القوانين وتعتبر اعلا سلطة في الدولة لا تعلو عليها سوى سلطة الشعب: « لا يمكن ان يوجد في دولة مستقرة ترتكز على دعائم ثابتة وتعمل، بحسب طبيعتها، على حماية الأمة سوى سلطة عليا واحدة، هي السلطة التشريعية التي تخضع لها سائر السلطات كما ينبغي لها ان تخضع. ومع ذلك وبما ان السلطة التشريعية ليست سوى سلطة ائتمانية تعمل لأغراض معينة، فالشعب يحتفظ

بسلطة عليا تمكنه من خلع الهيئة التشريعية او تغييرها، كلما تبين له انها تتصرف خلافاً للأمانة التي عهد بها إليها »[٤٠]. أما السلطة الثانية فهي السلطة التنفيذية للمحافظة على تنفيذ القوانين. وهي تتضمن السلطة القضائية ولا تخضع للسلطة التشريعية: « ... ولما كانت (القوانين) تفتقر الى التنفيذ باستمرار أو السهر عليه، فقد اقتضي ان يكون ثمة سلطة دائمة تسهر على تنفيذ القوانين الموضوعة وتبقى آمرة. من هنا كانت السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية منفصلتين في الكثير من الاحوال »[٤١]. كما ان لوك أوجد سلطة ثالثة في الدولة هي السلطة الاتحادية (Fedérative) أو الدولية وهي التي تقوم باعلان الحرب وتقرير السلم وابرام المعاهدات وما يتعلق بالشؤون الخارجية للدولة: « وهذه السلطة تشتمل اذن على سلطة اعلان الحرب واقرار السلم والانضمام إلى الأحلاف وتوقيع المعاهدات وتنظيم سائر العلاقات مع كل الافراد والجماعات الخارجة عن الدولة، لذلك يمكن دعوتها بالسلطة الاتحادية او الدولية »[٤٢].

ويمتاز الفصل بين السلطات عند لوك بمرونة تكفل تحقيق مصالح الافراد. فالسلطة التشريعية على الرغم من كونها السلطة العليا في نظره انما يجب ان تبقى متضامنة ومتفاهمة مع السلطة التنفيذية التي يمكنها الاعتراض على القوانين التي لا تروق لها[٤٣].

اما نزعة كل من هوبز ولوك السياسية فتعتبران على طرفي نقيض. فبينما نرى الافراد عند هوبز يتخلون عن حقوقهم ليعهدوا بها الى فرد واحد يحقق لهم السلام، فان لوك يدعو الى فصل السلطات وعدم وضعها بيد حاكم واحد حتى لا يجنح الى الاستبداد. اذ ان العقد عنده قد ابرم بين الافراد باجماع كل الآراء لاقامة حياة سياسية ويتعين على الافراد بعدها ان يخضعوا للاغلبية فلا يمكنهم التحلل منه او الرجوع لحالة الطبيعة. كما ان هؤلاء الافراد الذين ارتضوا العقد قد تنازلوا عن بعض حقوقهم وليس كلها. ولهذا يبرر لوك الثورة ويعتبرها حقاً مقدساً عندما يفقد الفرد الثقة التي منحها للسلطة

القائمة: « اذا تناولت الاحكام الجائرة عامة الشعب أو وقع الاذى والظلم على البعض فقط، ولكن بحيث تهدد سوابقها أو عواقبها، سائر الشعب، واستقر في روعهم ان قوانينهم وحرياتهم وحياتهم معرّضة للخطر وكذلك دينهم ايضاً، فلست ادري كيف يحال بينهم وبين الثورة على القوة الغاشمة التي تستخدم ضدهم[٤٤] ». أما طغيان الحكام فيبدأ عند لوك حيث تنتهي سلطة القانون وينزل الضرر بالمواطنين: « ولما كان يتصرف (الحاكم) من دون تفويض شرعي جاز الخروج عليه ومقاومته، كما يقاوم كل امرىء آخر يسطو على حق الآخرين بالقوة »[٤٥].

والحرية السياسية التي ينشدها لوك لأفراد المجتمع لا تكتمل الا بالتسامح الديني. فالصلة بين الانسان والإله يجب ان تكون باطنية تتم برضى الفرد. وبهذا فقد نزع عن رجل الدين سلطته الروحية على رعاياه كما نزع عن الكنيسة احقيتها في انزال العقاب الذي يحق للدولة ان تنزله بالمذنبين معتبراً الكنيسة مجتمعاً اختيارياً. وهو يرى بهذا ارتباطاً وثيقاً بين الاضطهادات الدينية التي تقوم في انحاء اوروبا وبين الاضطراب السياسي الذي يكون إما وليداً أو نتيجة لها.

وثمة شرط آخر عند لوك لاكتمال حرية الفرد السياسية وهو حق الملكية المقدس الذي يقرنه بالعمل الذي يعتبر اساساً لكل تملك وانتفاع. فبنظره ان الله قد وهب الأرض للكادح لكي يستثمرها، وجعل العمل اساس حقه بامتلاكها، كما انه يشترط مقدار الملكية بحاجة الفرد لها ومدى ما يستطيع ان يقدم من عمل لها: « وقد حددت الطبيعة مقدار الملكية تحديداً عادلاً اذ جعلته منوطاً بمدى عمل الانسان ومطالب حياته[٤٦] ».

امتازت نظرية لوك في الحكم بأنها تركت اثراً دائماً وبالغاً على الوعي السياسي في اوروبا الغربية واميركا. ومع كونها لم تتميز بالفضائل الفلسفية التي تمتاز بالوضوح والتناسق والاصالة الا انها على حد تعبير بترز كانت

« خيوطاً جمعها من مصادر متنوعة ، وحاكها حول مجموعة من المطالب السياسية التي كانت تتفاقم في وجه نوازع آل ستيوارت الاوتـوقـراطيـة. واكتسبـت نظرياته هذه تلك الشهرة الواسعة ، لا لعمقها الفلسفي وسعة افقها ، بل لكونها عبّرت بشكل نظري عن مشاعر الناس في كل مكان بوجوب لجم السلطة المطلقة »[٤٧].

وهكذا كان لوك احد المصادر الاساسية لفلسفة الانوار الفرنسية التي قامت في القرن الثامن عشر ضد المؤسسات الاقطاعية ، ولوك باعتماد الفكر عنده على التجربة بل واعتباره الشرط الاساسي في مجال المعرفة يكون قد طعن علم اللاهوت والميتافيزياء القروسطية طعنة كبيرة. فمهد أمام مونتسكيو لوضع نظريته عن فصل السلطات وتطويرها. كما مهد امام روسو لوضع اسس « العقد الاجتماعي ».

## ٢ - فولتير (Voltaire) ١٦٩٤ - ١٧٧٨

اعتبر فولتير من أكثر فلاسفة القرن الثامن عشر نفوذاً وتأثيراً على قرائه لاسلوبه الذي اتصف بالسخرية اللاذعة والتهكم الفاضح على الانظمة القديمة المستبدة وطغيان وجهالة العصر. هاجم فولتير في كتاباته التعصب الديني الذي كان يسود عصره ودعا الى حرية التعبير وحرية العقيدة والتسامح والغفران. وندد بالملكية المستبدة والاقطاع والمؤسسة الكنسية ومفاسد رجال الدين[٤٨] معتقداً ان الكنيسة مسؤولة عن ظلامة العصور الوسطى وانها لم تفعل سوى الشر منذ سبعة عشر قرناً، فرمته الكنيسة بالهرطقة واعدمت كتبه كما أمرت بسجنه. فهاجر وعذب وسجن عدة مرات.

لم ينسب لفولتير اراء سياسية واضحة على غرار «روح القوانين» لمونتسكيو و «العقد الاجتماعي» لروسو الا انه لم يقل عنهما أثراً في محاربة الفساد والاستبداد، ووجوب الاعتماد على المحسوس والعقل. ففي «رسائله الفلسفية» يهاجم الامتيازات الاجتماعية لفئة دون أخرى كما يهاجم نظام الضرائب الذي يسود فرنسا بينما تنعم انكلترا في الحرية والمساواة. «ولا يعفى احد من دفع بعض الضرائب بسبب كونه شريفاً أو قسيساً، فجميع الضرائب تعين من قبل مجلس النواب الذي يعد الأول اعتباراً مع كونه الثاني مرتبة»[٤٩]. كما يذكر «ولا يدفع احد وفق لقبه بل وفق دخله، ولا توجد هناك جزية أو جباية مرادية، (Arbitraire) بل ضريبة حقيقية مفروضة على الأرضين، وقد ضمنت الأرضون كلها في عهد وليم الثالث الشهير وقد جعلت دون ثمنها»[٥٠]. ويذكر فولتير عند تهكمه على رجال الدين قائلاً: «فجميع رجال الدين في انكلترا متحفظون، وكلهم متحذلقون، وهم إذا ما علموا وجود شباب في فرنسا عرفوا بالفجور وارتقوا الى الحبرية بمكايد النساء فيقومون بأمور الغرام جهراً وانهم يبتهجون بتأليف اناشيد ناعمة وانهم

يقيمون في كل يوم ولائم عشاء لذيذة طويلة وانهم يذهبون من هنالك لالتماس الانوار من الروح القدس، وانهم يكونون من الوقاحة ما يتسمّون معه بورثة الرسل، حمدوا الله على بروتستانيتهم، بيد انهم ملاحدة خبثاء يستحقون ان يحرقوا مع الشيطان كما قال المعلم فرنسوا رابله، ولذا فانني لا أُعنى بأمورهم »[٥١].

وأخيراً يظهر لنا فولتير في سائر كتاباته المختلفة ثائراً ومعلماً في نفس الوقت. ثائراً على الطبقة العليا في المجتمع الفرنسي معتبراً الطبقة الثالثة انها وحدها التي تشكل الامة بكاملها. ومعلماً يطلب من الناس عدم الأخذ بالتقاليد باللجوء الى التفكير النقدي في اتخاذ المواقف. وهكذا فهو في اسلوبه التحليلي « يجعل المجرد حسيا ملموسا عن طريق تفكيكه »[٥٢].

## ٣ - مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥)

يرتكز الفكر السياسي عند مونتسكيو على فكرتين اساسيتين: تمجيد الحرية باعتبارها حقاً طبيعياً، واحتقار الاستبداد الذي يقوم على الخوف والرهبة. ولهذا كان هدفه في جميع كتاباته اكتشاف الرسائل التي يضمن فيها الفرد حريته السياسية في ظل القوانين التي لا يخاف في ظلها المواطن مواطناً آخر، وفي ان يفعل المرء ما يريده ضمن الحدود التي تسمح بها هذه القوانين: «وتقوم حرية المواطن السياسية على راحة النفس التي تنشأ عند رأي كل واحد حول سلامته، ويجب لنيل هذه الحرية ان تكون الحكومة من الوضع ما لا يمكن المواطن معه ان يخشى مواطناً آخر»[٥٣].

يعتبر «روح الشرائع» (L'esprit de Lois) من أهم كتب مونتسكيو التي عالج فيها نظريته عن الحرية السياسية وعلاقة القوانين بالحرية والأمن والدفاع ووسائل الادارة كالضرائب ومقدار الدخل العام. كما عالج علاقة القوانين بالسلوك والطبائع وأوضاع الأمة والتجارة والنقد وعدد السكان والدين. كما تعرض أيضا لتاريخ القوانين وصلتها بالنظام الملكي عند الفرنج.

حاول مونتسكيو من خلال هذه الموضوعات التي بحثها في «روح الشرائع» ان يجد افضل الحكومات والوسائل للابتعاد عن الاستبداد. فالحكم الفردي بنظره لا يمكن ان يحقق السلم الاجتماعي عند البشر لكونه حكماً مستبداً. كما انه لم يكن يثق بالديموقراطية الصرفة لخوفه ان تغالي في المساواة او ان تؤدي الى فرد مستبد أو الى الفناء كما حدث للديموقراطيات القديمة. «اذن للديموقراطية حدان مفرطان يجب اجتنابها وهما: روح التفاوت التي تسوقها الارستقراطية او الى حكومة الفرد، وروح المساواة المتناهية التي تسوقها الى استبداد الفرد، كما ان استبداد الفرد ينتهي بغزو البلاد»[٥٤] ومع انه كان يرى في الارستقراطية الاعتدال والاستقرار الا انه تخوف ان تتركز في النهاية بيد فرد واحد فتؤدي الى الاستبداد لكونها وراثية محصورة بفئة معينة من

الناس: «ويقع اقصى الفساد عندما يصبح الاشراف وراثيين، لِـمَ لا يكون لديهم اعتدال بذلك؟ واذا كان عددهم قليلاً عظم سلطانهم ونقص امنهم، واذا كان عددهم كثيراً قل سلطانهم وعظم أمنهم، ويزيد السلطان ويتناقص الامن حتى يكون المستبد الذي يتجلى فيه فرط السلطان والخطر»(٥٥). اما الملكية المطلقة فهي بنظر مونتسكيو تجنح نحو الاستبداد لأنها تتشكل من جماعات يتولد من تنافسها الامتيازات التي ينفرد بها فئة دون فئة من المواطنين: «كما ان الديموقراطيات تزول عندما ينزع الشعب من السنّات والحكام والقضاة وظائفهم تَفْسُد الملكيات عندما تُنزع امتيازات الهيئات أو المدن مقداراً فمقداراً، ويصار في الحال الأول الى استبداد الجميع ويصار في الحال الثانية الى استبداد الفرد»(٥٦). وهكذا لم يجد مونتسكيو ضالته الا في حكومة مختلطة تضم الى جانب الملك الذي تتحقق فيه القوة طبقتي النبلاء ورجال الدين ومدن وهيئات مختلفة المصالح والامتيازات. كما يجب ان يقوم بين الملك وهذه المؤسسات هيئات نيابية أمينة على القوانين تتمتع بالاستقلال لتضمن عدم الجنوح نحو الاستبداد. وفي هذه الحال لا تصبح الحكومة استبدادية الا اذا حاول الملك ازالة سلطة الوسطاء. فتنقلب عندها الى حكم فردي مستبد: «تزول الملكية حينما يرد الامير كل شيء اليه فقط، فيدعو الدولة الى عاصمته والعاصمة الى بلاطه والبلاط الى شخصه وحده. ثم تزول الملكية حينما يجهل الامير سلطانه وحاله وحبه لشعوبه، وحينما لا يشعر جيداً بان على الملك ان يحسب نفسه في مأمن كما يحسب المستبد نفسه في خطر»(٥٧).

وما يشار اليه باهتمام بالغ هو تأكيد مونتسكيو على مبدأ فصل السلطات الذي توخى منه دعم حكومته المختلطة التي اقترحها، ضمانة للعدالة، وصوناً لحرية المواطن السياسية وحمايتها من الاستبداد. فليس ثمة حرية بنظره اذا اجتمعت السلطتان التشريعية والتنفيذية بيد شخص واحد. «ولا تكون الحرية مطلقاً اذا ما اجتمعت السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية في شخص واحد أو في هيئة حاكمة واحدة، وذلك لأنه يخشى ان يضع الملك نفسه أو

السنّات نفسه قوانين جائرة لينفذها تنفيذاً جائراً ».[٥٨] كما يتمثل سر بقاء الدولة عنده بوجود التوازن بين السلطات او ما يسمى بتعادل القوى (Contre-forces) وذلك حتى لا يصبح بامكان شخص واحد أو هيئة معينة وضع قوانين يعتمد على القوة في تنفيذها.

ومن المؤكد ان مونتسكيو قد تأثر في معالجته لفصل السلطات بالواقع الانكليزي من جهة، ونظرية لوك السياسية من جهة ثانية، مع انه اضاف الى سلطتي لوك التشريعية والتنفيذية سلطة ثالثة مستقلة عنهما هي السلطة القضائية: « وكذلك لا تكون الحريه اذا لم تفصل سلطة القضاء عن السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية، واذا كانت متحدة بالسلطة الاشتراعية كان السلطان على الحياة وحرية الاهلين امراً مرادياً، وذلك لأن القاضي يصير مشترعاً، واذا كانت متحدة بالسلطة التنفيذية امكن القاضي ان يصبح صاحباً لقدرة الباغي »[٥٩] بالاضافة الى ان مونتسكيو كان متأثراً الى حد بعيد ايضاً بالوضع السياسي الذي كان يسود فرنسا في تلك الحقبة. حيث قوضت الملكية المطلقة اركان الدستور، ورسخت معها الاستبداد الذي يمقته بشدة.

وأخيراً فقد تمتع مونتسكيو ولا شك باسلوب ساخر مرير وسعة اطلاع عظيمة حتى اعتبر بحق بأنه مفكر سياسي اصيل مع كونه لم يكن يمتاز بالواقعية التي امتاز بها كل من مكيافللي وبودان. وما يؤخذ عليه برأي غروتويزن ان « قوانينه ليس لها اساس ولا هدف حقوقيان، وهذا ما ظل يؤخذ على مونتسكيو اثناء الثورة الفرنسية، فلم يكن مقبولاً منه ان ينطلق من الواقع الى القانون، والا يعني بما هو كائن والا يعبأ بما يجب ان يكون »[٦٠]. كما انه كان أكثر اهتماماً بالبحث عن أسباب ما هو كائن وليس عما يجب ان يكون. «On dit ce qui est et non pas ce qui doit être». وعلى الرغم من ذلك فقد كان مونتسكيو متحمساً للحرية صادقاً في دعواه لها مما كان لكتاباته ابلغ الأثر على صياغة دستور الولايات المتحدة الأميركية وفي نفوس رجال الثورة الفرنسية.

## ٤ - روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨)

حاول روسو في كتابه «العقد الاجتماعي» الذي نشره عام ١٧٦٢ ان يدرس الناس كما هم، وان يضع قانوناً ثابتاً لمجتمع مدني يؤكد فيه حقوق الانسان الطبيعية في الحرية والمساواة ضمن قوانين عامة تخيلها لتكون اصلح ما يحكم به البشر: «يولد الانسان حراً الا انه مكبل في كل مكان بالاغلال. كيف حدث هذا التغيير؟ أجهل ذلك. وما الذي يمكنه ان يجعله شرعياً؟»[٦١]. هكذا يبدأ روسو كتابه العقد الاجتماعي باحتجاج صارخ وشديد على طغيان وفساد عصره. فالاغلال التي تكبل الانسان هي «السلطة» التي لا تستند الى الارادة العامة بل تمارس القوة التي تصنع حقاً. ولما كانت القوة لا تصنع حقاً فتصبح اذن العقود هي اساس كل سلطة شرعية بين البشر. وبهذا فلا يمكن ان يتنازل الانسان عن حريته بلا مقابل، لأنه يعتبر قد تخلى عن كونه انساناً وعند حقوقه في الانسانية اذ ان حق الاستعباد باطل وغير شرعي ومستحيل لأن «استعباد وحق لفظان متناقضان احدهما ينفي الآخر»[٦٢].

والعقد الاجتماعي بنظر روسو يجب ان يتم بين الافراد انفسهم وليس بينهم وبين الحاكم او الحكومة. وهو التزام طوعي غير مبني على اية سلطة يرتبط به الفرد بمحض ارادته ويتمتع به بنفس الحرية التي كان يتمتع بها قبل العقد. فيتساوى الجميع في الشروط التي يضمنها العقد. ويصبح بموجبه كل عضو في المجتمع السياسي محكوماً بطاعته للقوانين التي يشرعها المجتمع كله وحاكماً لكونه مشاركاً في هذا المجتمع الذي يتمتع بصفته السيادية على الجميع: «ومع ان كل فرد يتحد مع الجميع الا انه لا يطيع الا نفسه ويبقى حراً كما كان من قبل»[٦٣]. وهكذا ينتقل انسان روسو بقبوله للعقد الاجتماعي من حالة الطبيعة الى الحالة المدنية ويستبدل الغريزة في مسلكه بالعدالة ويحل الحق محل

الجشع: « ان ما يفقده الإنسان بالعقد الاجتماعي هو حريته الطبيعية وحقاً لا محدوداً في كل ما يغريه وما يستطيع بلوغه، اما ما يكسبه فهو الحرية المدنية وملكية كل ما هو في حيازته »(٦٤). وللمحافظة على شرعية التحالف يجب ان يلتزم الجميع ضمناً باطاعة الارادة العامة، لأن حرية الفرد هي في اطاعة المجموع كما ان هذه الحرية لا تتعارض مع القسر الذي تنزله ارادة المجموع بها. حيث لا يعني القسر هنا بنظره الا اجبار الفرد على ان يكون حراً. لأن الحرية الحقيقية لا تتأتى الا من طاعة القانون. وان الافراد يكسبون فائدة كبيرة في المجتمع تفوق الفائدة من بقائهم منعزلين.

## الارادة العامة والسيادة عند روسو

ليست الارادة العامة عند روسو ارادة الجميع او مجموع الارادات الخاصة، بل هي الروح العامة التي لا تراعي سوى المصلحة المشتركة والخير العام. اذ لما كان الفرد جزءاً من الجماعة فان ارادته والارادة العامة هي واحدة بذاتها. فالتصويت وقرارات الأكثرية لا تعني سوى مجرد وسيلتين لتمثيل الارادة العامة. وهكذا فان روسو يعتبر الارادة العامة جوهر العقد الاجتماعي: « يسهم كل منا في المجتمع بشخصه وبكل قدرته تحت ادارة الارادة العامة العليا، ونتلقى على شكل هيئة كل عضو كجزء لا يتجزأ من الكل »(٦٥).

اما السيادة عند روسو فهي تتمثل في ممارسة الارادة العامة. ويعتبر الشعب صاحب السيادة الوحيد الذي يملك القوة التشريعية ووضع القوانين التي تعتبر افعالاً حقيقية للارادة العامة. ولما كان صاحب السيادة يستمد كيانه من قدسية العقد فلا يحق له ان يتنازل عن جزء من نفسه او ان يخضع لصاحب سيادة آخر: « لأن انتهاكه لحرمة العقد الذي يوجد بمقتضاه يعني تدمير نفسه، ومن لا يكون شيئاً لا ينتج شيئاً »(٦٦) وهكذا فان السيادة غير قابلة للتنازل (Inaliénable) لأي فرد أو هيئة من الهيئات. كما انها لا تتجزأ (Indivisible) ولا تخطىء (Infaillible) لأن ارادتها عامة وبذلك فهي لا

يمكن ان تمثل كما يجري في الانظمة البرلمانية: « ان السيادة لا يمكن ان تمثل لنفس السبب الذي يجعلها غير قابلة للتنازل، فهي بصفة اساسية قوام الارادة العامة. والارادة العامة لا تمثل مطلقاً: فهي اما ان تكون هي نفسها، او تكون شيئاً آخر، ليس هناك من وسط. ان نواب الشعب ليسوا اذاً ممثليه ولا يمكن ان يكونوا كذلك فما هم الا مفوضون عنه، ليس في وسعهم ان يبتوا نهائياً في شيء. كل قانون لم يوافق عليه الشعب يكون باطلاً - اي لا يكون قانوناً مطلقاً - فالشعب الانجليزي يظن انه حر لكنه مخطىء جداً، فهو لا يكون حراً إلا اثناء انتخاب اعضاء البرلمان، وبمجرد ان يتم انتخابهم يصير هو عبداً، بل لا يكون شيئاً. ان طريقة استعماله لحريته في فترات حريته القصيرة قمينة بأن يفقدها »[٦٧].

ولما كانت السيادة عند روسو هي سيادة الشعب (الكل)، فحق التشريع ووضع القوانين اذن يجب ان يكونا من عمل الشعب وحده. اما تنفيذ القوانين فيجب ان يحصر بهيئة تسمى « الحكومة » مهمتها تنفيذ القوانين والمحافظة على الحرية الفردية: « فما هي الحكومة اذاً؟ انها هيئة وسيطة بين الرعايا وصاحب السيادة من اجل الاتصال المتبادل بينهما، مكلفة بتنفيذ القوانين وبالمحافظة على الحرية المدنية والسياسية على السواء »[٦٨]. ويسمي اعضاء هذه الهيئة ولاة أو ملوكاً أو حكاماً بينما تسمى الهيئة ككل اسم الأمير (Prince). وهذه الهيئة (الحكومة) ليست سوى وظيفة يشغلها موظفون من قبل صاحب السيادة لممارسة السلطة التنفيذية حيث يحق له استردادها عندما يريد. اذ لا يوجد اي عقد بينها وبين الشعب، لأنه ليس في الدولة الا عقد واحد، هو عقد الاتحاد الذي ينشأ بموجبه المجتمع. وهذا العقد يسقط كل ما عداه من العقود: « ان التصرف الذي يؤسس الحكومة ليس عقداً قط وانما قانوناً، وان من يؤتمنون على السلطة التنفيذية ليسوا مطلقاً سادة الشعب بل هم موظفوه، وانه يستطيع اقامتهم وعزلهم متى شاء، وان المسألة بالنسبة لهم ليست قط مسألة تعاقد وانما طاعة »[٦٩]. وهكذا يكون روسو قد خالف كل من هوبز ولوك اللذين اعتبرا

ان العقد الاجتماعي عقد مبرم بين الحاكم والمحكوم اذا اخل أحد الطرفين في بعض شروطه اصبح الآخر في حل من التزاماته المقيد بها في العقد.

## تقسيم روسو للحكومات

لقد قسم روسو الحكومات الى ثلاثة انواع. فالحكومة الديموقراطية هي التي يمارس فيها الشعب كله أو الجزء الأكبر منه الحكم. ويكون عدد المواطنين الحكام فيها أكثر من المواطنين المحكومين وبهذا تتحد السلطتان التنفيذية والتشريعية. لذلك فهي حكومة سيئة اذ لا يمكن وليس من الحكمة ان يكون واضع القوانين هو منفذها. كما انه من المستحيل ان يبقى الشعب فيها مجتمعاً للنظر في الشؤون العامة. والحكومة على هذا الشكل تتطلب بنظره دولة صغيرة جداً يتصف فيها الشعب ببساطة كبيرة في الطباع كما يتطلب الحال كثيراً من التساوي في المراتب والثروات. ومع ان روسو يرى في الديموقراطية الصرفة أحسن انواع الحكومات الا انها «لم توجد ولن توجد ابداً... فلو كان هناك شعب من الآلهة لحكم نفسه ديموقراطياً. فان حكومة على هذا المستوى من الكمال لا تصلح للبشر»[٧٠].

اما في الحكومة الارستقراطية فيتميز فيها صاحب السيادة عن الحكومة ويتولى الحكم فيها قليل من الناس. وهي ثلاثة انواع: الارستقراطية الطبيعية التي لا تصلح الا لشعوب بدائية، والوراثية التي يعتبرها اسوأ انواع الحكومات، ثم الانتخابية التي تعد احسنها.

اما الحكومة الملكية فهي تعني بنظره تركيز الحكم بيد حاكم واحد يستمد الآخرين سلطتهم منه. فتستجيب ارادة الشعب وارادة الأمير وقوة الدولة العامة وقوة الحكومة الخاصة لباعث واحد. كما يسير كل شيء فيها لهدف واحد. ولو ان روسو لم يتخوف من ان يتحول الحكم الملكي الى حكم مطلق لكانت الحكومة الملكية بنظره احسن النظم السياسية وخاصة اذا كانت السلطة

فيها مستمدة من حب الشعب. ولكنه كان يرى ان النظام الملكي يناسب الدول الكبرى مع بعض الاستثناءات كما انه لا يلائم سوى الأمم الغنية، بينما الحكم الارستقراطي يناسب الدول القليلة الثروة والاتساع، اما الحكم الديموقراطي فيصلح للدول الصغيرة والفقيرة.

والواقع ان روسو لا يهتم كثيراً بشكل الحكومة ديموقراطية كانت ام ارستقراطية ام ملكية اذ انه قد يكون شكلاً معيناً لحكومة ما أفضل في حالات معينة واسوأ في حالات اخرى وما يزيد في فساد حكومة معينة هو اساءة استخدام السلطة فيها، والجنوح الى الاستبداد. وبدلاً من ان يحكم الحاكم الرعايا ليجعلهم سعداء فانه يجعلهم بؤساء من اجل ان يحكمهم.

ويعتبر روسو بحق انه من أهم المفكرين الذين وضعوا اسس النظم السياسية التي تدين لها جميع الحكومات الديموقراطية في العالم. امتاز بدقة الملاحظة بحيوية فائقة، واسلوب تحريضي ضد مخلفات الماضي من منطلق الواقع الذي كانت تعيشه شعوب اوروبا في منتصف القرن الثامن عشر. كما اعتبر داعية الى التطور الاجتماعي من منطلق شعبي. ولما كان شر المجتمع بنظره يكمن بوجود اسياد وعبيد، فقد جعل القانون فوق البشر لتضعف تبعيتهم للاسياد. اذ ان شر القوانين خير من افضل الاسياد.

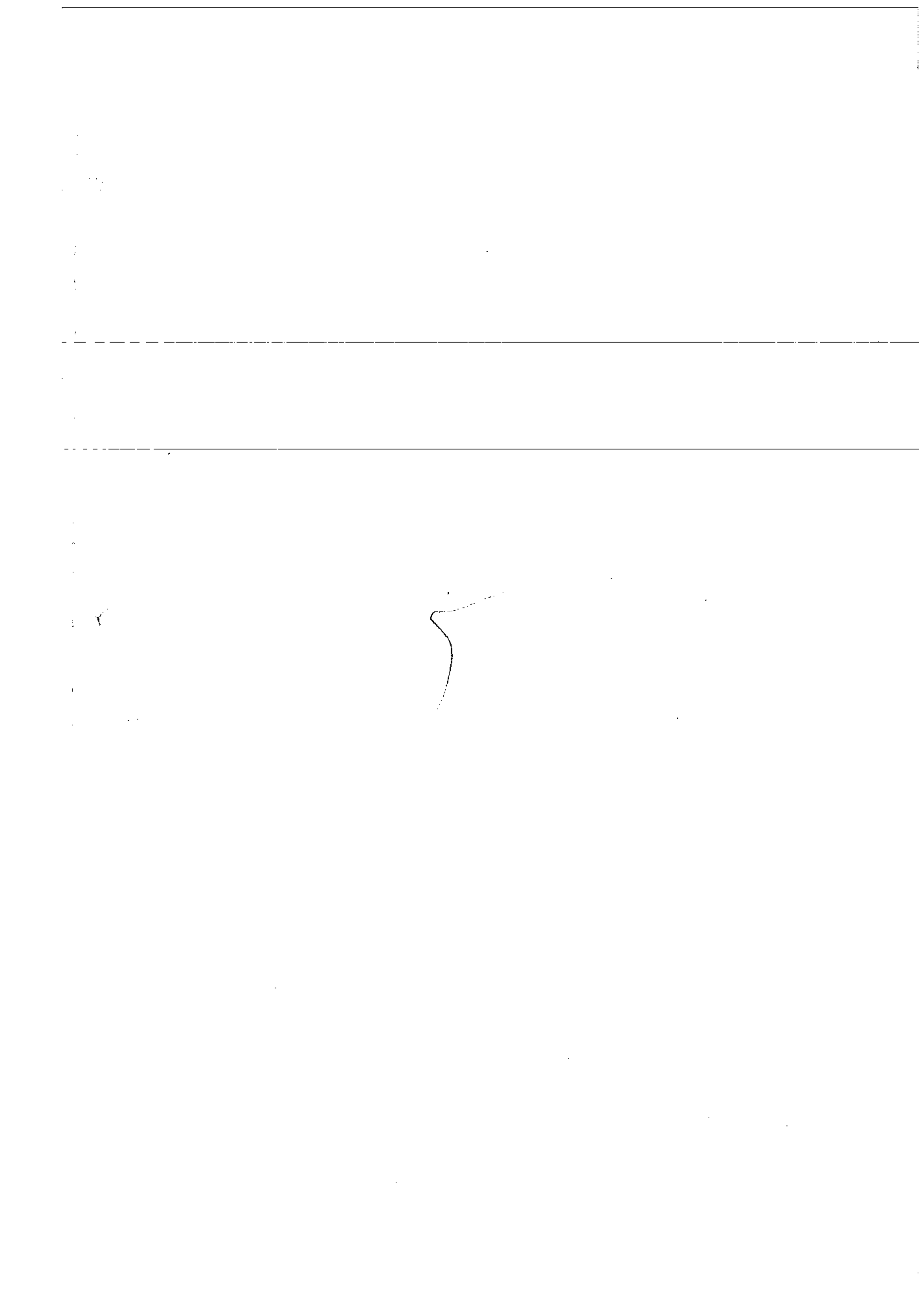
وكان للغموض الذي اتصفت به كتابات روسو احياناً ثم للتناقض احياناً أخرى ان أدى إلى اختلاف النقاد بشأنه. فمنهم من رآه عدواً للطغيان يمجد الديموقراطية. ومنهم من عده حليفاً للاستبداد والدكتاتورية القيصرية، او طوباوياً وقع أسير المبادىء المجردة. ومع ذلك فان روسو لم يفكر قط كمكيافللي في استغلال الناس المضللين، ولا كهوبز وغيره من اصحاب نظريات الحق الطبيعي الذين اهتموا بتبرير ما هو كائن انطلاقاً من الوقائع اكثر مما اهتموا بالبحث عما يجب ان يكون، ولا على طريقة مونتسكيو الذي كان رجل قانون وعالم اجتماع، بينما كان روسو يهتم بالطبيعة وسعادة الانسان والحب الاجتماعي [٧١].

## هوامش الفصل السابع

(١) مكيافللي: الأمير. ترجمة خيري حماد منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر الطبعة الثالثة بيروت ١٩٧٠ ص ٢٤.
(٢) جورج سباين: تطور الفكر السياسي ترجمة راشد البراوي دار المعارف بمصر ١٩٧١ ص ٤٧٢.
(٣) مكيافللي: المرجع نفسه ص ١٤٨.
(٤) فيدرين الين: مكيافللي ترجمة، اميرة الزين المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٤ ص ٧٩.
(٥) مكيافللي: المرجع نفسه ص ١٩٧.
(٦) المرجع السابق ص ١٥٠.
(٧) المرجع السابق ص ١٧٩.
(٨) المرجع السابق ص ١٥٢.
(٩) DUVERGER. M: Introduction à la politique, Paris Gallimard 1960 P. 93
(١٠) موريس كرانستون: اعلام الفكر السياسي دار النهار بيروت ١٩٧٠ ص ٤٠.
(١١) المرجع السابق ص ٤٦.
(١٢) انظر عبد العزيز الشناوي: اوروبا في مطلع العصور الحديثة الجزء الاول ١٩٦٩ دار المعارف بمصر ص ٦٣.
(١٣) محمد طه بدوي: اصول علوم السياسة المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥ الطبعة الثانية ص ٢٣٥.
(١٤) مكيافللي: المرجع نفسه تعليق موسوليني على كتاب الامير ص ٦.
(١٥) جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي ترجمة ذوقان قرقوط دار القلم بيروت ١٩٧٣ ص ١٢٥.
(١٦) المرجع السابق ص ١٢٦. انظر مقدمة كتاب الأمير لـ (R. Aron)
MACHIAVEL: Le Prince. Traduction de y. Gohory. Présenté par Raymond Aron. (Livre de Poche) (N°: 879). Gallimard Paris 1962.
(١٧) الين فيدرين: المرجع نفسه ص ٩٣.
(١٨) مكيافللي: المرجع نفسه ص ٣٢.
(١٩) المرجع السابق من مقالة لفاروق سعد ص ٢٥٣.
(٢٠) محمد طه بدوي: المرجع نفسه ص ٢٤٨.
(٢١) جورج سباين: المرجع نفسه ص ٥٥٦.

(٢٢) محمد طه بدوي: المرجع نفسه ص ٢٤٦.
(٢٣) نور الدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة ص ١٣٨.
(٢٤) جورج سباين: المرجع نفسه ص ٦٣٤.
(٢٥) كرانستون: المرجع نفسه مقال وتكنز عن هوبز ص ٤٩.
(٢٦) انظر حسن سعفان: اساطين الفكر السياسي دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٠٢.
(٢٧) جورج سباين: المرجع نفسه ص ٦٣١.
(٢٨) محمد طه بدوي: المرجع نفسه ص ٢٦٥.
(٢٩) جورج سباين: المرجع نفسه ص ٦٤٢.
(٣٠) المرجع السابق ص ٧٣٦.
(٣١) للمزيد انظر محمد طه بدوي: المرجع نفسه وكذلك محمد كامل ليلة: النظم السياسية. دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٩.
(٣٢) Albert Soboul: La Révolution française. Gallimard Paris 1962. t I, P. 25.
(٣٣) Ibid P 30
بينما يقدر عددهم ليفيفر بـ ١٣٠ الف
Georges LEFEBVRE: La Révolution Française. Presses. Universitaires de France. Sixième édition Paris 1968 P. 49.
(٣٤) Ibid P. 62
(٣٥) انظر التفاصيل المختصة بنظام الضرائب عند.
A. Soboul: OP. cit. t, I. P, 100.
(٣٦) Ibid: t, 1. P, 69
(٣٧) قارن جورج سباين: المرجع نفسه ص ٧٤٤.
(٣٨) المرجع السابق ص ٧٤٣.
(٣٩) موريس كرانستون: المرجع نفسه مقال ريتشارد بترز ص ٥٩.
(٤٠) جون لوك: في الحكم المدني. ترجمة ماجد فخري. اللجنة الدولية لترجمة الروائع بيروت ١٩٥٩ فقرة ١٤٩.
(٤١) المرجع السابق فقرة ١٤٤.
(٤٢) المرجع السابق فقرة ١٤٦.
(٤٣) محمد الشنيطي: جون لوك. دار الطلبة العرب بيروت ١٩٦٩ ص ١٨٨.
(٤٤) جون لوك: المرجع نفسه فقرة ٢٠٩.
(٤٥) المرجع السابق فقرة ٢٠٢.
(٤٦) المرجع السابق فقرة ٣٥.
(٤٧) موريس كرانستون: المرجع نفسه مقال ريتشارد بترز حول لوك ص ٥٨.

(٤٨) فولتير: رسائل فلسفية ترجمة عادل زعيتر دار المعارف بمصر ١٩٥٩ ص ٤٤.
(٤٩) المرجع السابق ص ٥٠.
(٥٠) نفس المكان
(٥١) المرجع السابق ص ٣٣.
(٥٢) غروتويزن. ب: فلسفة الثورة الفرنسية ترجمة عيسى عصفور. منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٠ ص ٨٠.
(٥٣) مونتسكيو: روح الشرائع. ترجمة عادل زعيتر. اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية الاونيسكـو القاهرة ١٩٥٣. الجزء الأول ص ٢٢٨.
(٥٤) المرجع السابق ص ١٦٨.
(٥٥) المرجع السابق ص ١٧١.
(٥٦) المرجع السابق ص ١٧٢.
(٥٧) المرجع السابق ص ١٧٣.
(٥٨) المرجع السابق ص ٢٢٨.
(٥٩) نفس المكان
(٦٠) غروتويزن: المرجع نفسه ص ٥٧.
(٦١) جان جاك روسو: المرجع نفسه ص ٣٥.
(٦٢) المرجع السابق ص ٤٥.
(٦٣) المرجع السابق ص ٤٩.
(٦٤) المرجع السابق ص ٥٥.
(٦٥) المرجع السابق ص ٥٠ راجع: اندريه كريسون: روسو. حياته فلسفته منتخبات ترجمة بينه صقر. منشورات عويدات (زدني علماً) الطبعة الثانية ١٩٧٧ ص ٨٧.
(٦٦) جان جاك روسو: المرجع نفسه ص ٣٥.
(٦٧) المرجع السابق ص ١٥٥.
(٦٨) المرجع السابق ص ١٠٦.
(٦٩) المرجع السابق ص ١٦٣.
(٧٠) المرجع السابق ص ١١٨ و ١٢٠.
(٧١) روسو: في العقد الاجتماعي. مقدمة بقلم بيير بورجلان ص ١٥.



# الخاتمة

ان التطور المتزايد الذي شهدته اوروبا منذ القرن الخامس عشر لم يكن مطلقاً نتيجة للاهواء والمشاعر أو حصيلة لمجهود الملوك أو الطبقة الحاكمة، وانما بفعل النشاط الانساني الذي اتسمت به قرون النهضة وبفضل جميع الناس الذين كانت مصالحهم واهدافهم وارادتهم الفاعلة ومفاهيمهم المختلفة تحدد اتجاهات التاريخ وترسي دعائمه على الشكل الذي سار عليه.

ان تمرد القوى المنتجة ضد جميع اشكال نظام الانتاج القديم قد خلق صراعاً عنيفاً في اوروبا حُسم بالنهاية لصالح الطبقة البورجوازية، لأن الحد الفاصل بينها وبين الجماهير كان من الممكن تخطيه امام حاجة الطرفين للاطاحة بالنظام الاقطاعي الاستبدادي. خاصة ان شعارات البورجوازية في الثورات كانت تنطوي على عبارات الحرية والمساواة والعدالة فتظهر كأنها مصالح المجتمع برمته. اذن فبنتيجة جهود الفلاحين والبروليتاريا احرزت البورجوازية انتصاراتها الساحقة في معاركها الثلاث الكبرى: الاصلاح البروتستانتي، الثورة الانكليزية، والثورة الفرنسية. بحيث اصبحت البورجوازية وهي على ابواب القرن التاسع عشر سيدة الموقف في اوروبا. فعلى قاعدة مصالحها ساد اسلوب الانتاج البورجوازي الذي تحدد على اساسه اشكال المؤسسات السياسية والمفاهيم الفكرية التي بدت مخيبة لآمال الطبقة الشعبية بالمقارنة مع الوعود التي اغدقتها البورجوازية عليها. الا ان هوبز

اجاب عن هذه الحالة قبل حدوثها بزمن بعيد عندما قال: « الشعب، ولد قوي لكنه ماكر، وهو لا يسمح بأن يخدعه لا الملوك المهزولون ولا الملوك المكرشون». وهكذا لم يطل الوقت حتى قامت الثورات الشعبية في جميع انحاء اوروبا وظلت هذه الثورات تصارع الديموقراطية الفارغة من محتواها الاجتماعي الذي كان اليعاقبة ايام الثورة الفرنسية قد اسقطوها من برنامجهم الثوري كما اسقطها فيما بعد ايضاً ابطال قوميونة باريس.

# قوائم تاريخية بالأسرات الأوروبية الحاكمة

## I ملوك فرنسا من اسرة فالوا

| | | |
|---|---|---|
| لويس الحادي عشر | ١٤٦١ - ١٤٨٣ | |
| شارل الثامن | ١٤٨٣ - ١٤٩٨ | |
| لويس الثاني عشر | ١٤٩٨ - ١٥١٥ | |
| فرنسوا الأول | ١٥١٥ - ١٥٤٧ | |
| هنري الثاني | ١٥٤٧ - ١٥٥٩ | تزوج من كاترين دي مدتشي. |
| فرنسوا الثاني | ١٥٥٩ - ١٥٦٠ | |
| شارل التاسع | ١٥٦٠ - ١٥٧٤ | |
| هنري الثالث | ١٥٧٤ - ١٥٨٩ | |

مرجريت تزوجت من هنري الرابع ابن دوق بوربون.

## II ملوك فرنسا من اسرة بوربون

| | |
|---|---|
| هنري الرابع | ١٥٨٩ - ١٦١٠ |
| لويس الثالث عشر | ١٦١٠ - ١٦٤٣ |
| لويس الرابع عشر | ١٦٤٣ - ١٧١٥ |
| لويس الخامس عشر | ١٧١٥ - ١٧٧٤ |

| | |
|---|---|
| لويس السادس عشر | ١٧٧٤ - ١٧٩٢ |
| حكومات الثورة الفرنسية وحكم نابوليون | ١٧٩٢ - ١٨١٥ |
| لويس الثامن عشر | ١٨١٤ - ١٨٢٤ |
| شارل العاشر | ١٨٢٤ - ١٨٣٠ |
| لوي فيليب (من اسرة اورليان) | ١٨٣٠ - ١٨٤٨ |

## اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة
## (اسرة الهابسبورغ في النمسا)

| | |
|---|---|
| ماكسيمليان الأول | ١٤٩٣ - ١٥١٩ |
| شارل الخامس | ١٥١٩ - ١٥٥٦ |
| فرديناند الأول | ١٥٥٦ - ١٥٦٤ |
| ماكسيمليان الثاني | ١٥٦٤ - ١٥٧٦ |
| رودولف الثاني | ١٥٧٦ - ١٦١٢ |
| متياس | ١٦١٢ - ١٦١٩ |
| فرديناند الثاني | ١٦١٩ - ١٦٣٧ |
| فرديناند الثالث | ١٦٣٧ - ١٦٥٧ |
| ليوبولد الأول | ١٦٥٨ - ١٧٠٥ |
| جوزف الاول | ١٧٠٥ - ١٧١١ |
| شارل السادس | ١٧١١ - ١٧٤٠ |
| ماريا تريز | ١٧٤٠ - ١٧٤٥ |
| فرنسوا الأول | ١٧٤٥ - ١٧٦٥ |
| جوزف الثاني | ١٧٦٥ - ١٧٩٠ |
| ليوبولد الثاني | ١٧٩٠ - ١٧٩٢ |
| فرنسوا الثاني | ١٧٩٢ - ١٨٠٦ |

بعد هذا التاريخ اصبح الامبراطور يعرف باسم امبراطور النمسا

## اسرة الهابسبورغ في اسبانيا

| | |
|---|---|
| شارل الأول | ١٥١٦ - ١٥٥٦ |
| فيليب الثاني | ١٥٥٦ - ١٥٩٨ |
| فيليب الثالث | ١٥٩٨ - ١٦٢١ |
| فيليب الرابع | ١٦٢١ - ١٦٦٥ |
| شارل الثاني | ١٦٦٥ - ١٧٠٠ |

## اسرة البوربون في اسبانيا

| | |
|---|---|
| فيليب الخامس | ١٧٠٠ - ١٧٤٦ |
| فرديناند السادس | ١٧٤٦ - ١٧٥٩ |
| شارل الثالث | ١٧٥٩ - ١٧٨٨ |
| شارل الرابع | ١٧٨٨ - ١٨٠٨ |

## اسرة الهوهنزلرن في بروسيا

| | | |
|---|---|---|
| جورج وليم | ١٦١٩ - ١٦٤٠ | |
| فريدريك وليم (المنتخب الأكبر) | ١٦٤٠ - ١٦٨٨ | |
| فريدريك الثالث | ١٦٨٨ - ١٧١٣ | توج ملكاً |
| فريدريك وليم الاول | ١٧١٣ - ١٧٤٠ | سنة ١٧٠١ |
| فريدريك الثاني (العظيم) | ١٧٤٠ - ١٧٨٦ | |

## ملوك اسرة تيودور في انكلترا

| | |
|---|---|
| هنري السابع | ١٤٨٥ - ١٥٠٩ |
| هنري الثامن | ١٥٠٩ - ١٥٤٧ |
| ادوار السادس | ١٥٤٧ - ١٥٥٣ |
| ماري | ١٥٥٣ - ١٥٥٨ |
| اليزابيت الأولى | ١٥٥٨ - ١٦٠٣ |

## ملوك اسرة ستيوارت في انكترا

| | |
|---|---|
| جيمس الأول | ١٦٠٣ - ١٦٢٥ |
| شارل الأول | ١٦٢٥ - ١٦٤٩ |
| الحروب الاهلية والجمهورية | ١٦٤٩ - ١٦٦٠ |
| اوليفر كرومويل | ١٦٥٣ - ١٦٥٨ |
| ريتشارد كرومويل | ١٦٥٨ - ١٦٦٠ |
| شارل الثاني | ١٦٦٠ - ١٦٨٥ |
| جيمس الثاني | ١٦٨٥ - ١٦٨٨ |
| وليم الثالث | ١٦٨٩ - ١٧٠٢ |
| آن | ١٧٠٢ - ١٧١٤ |

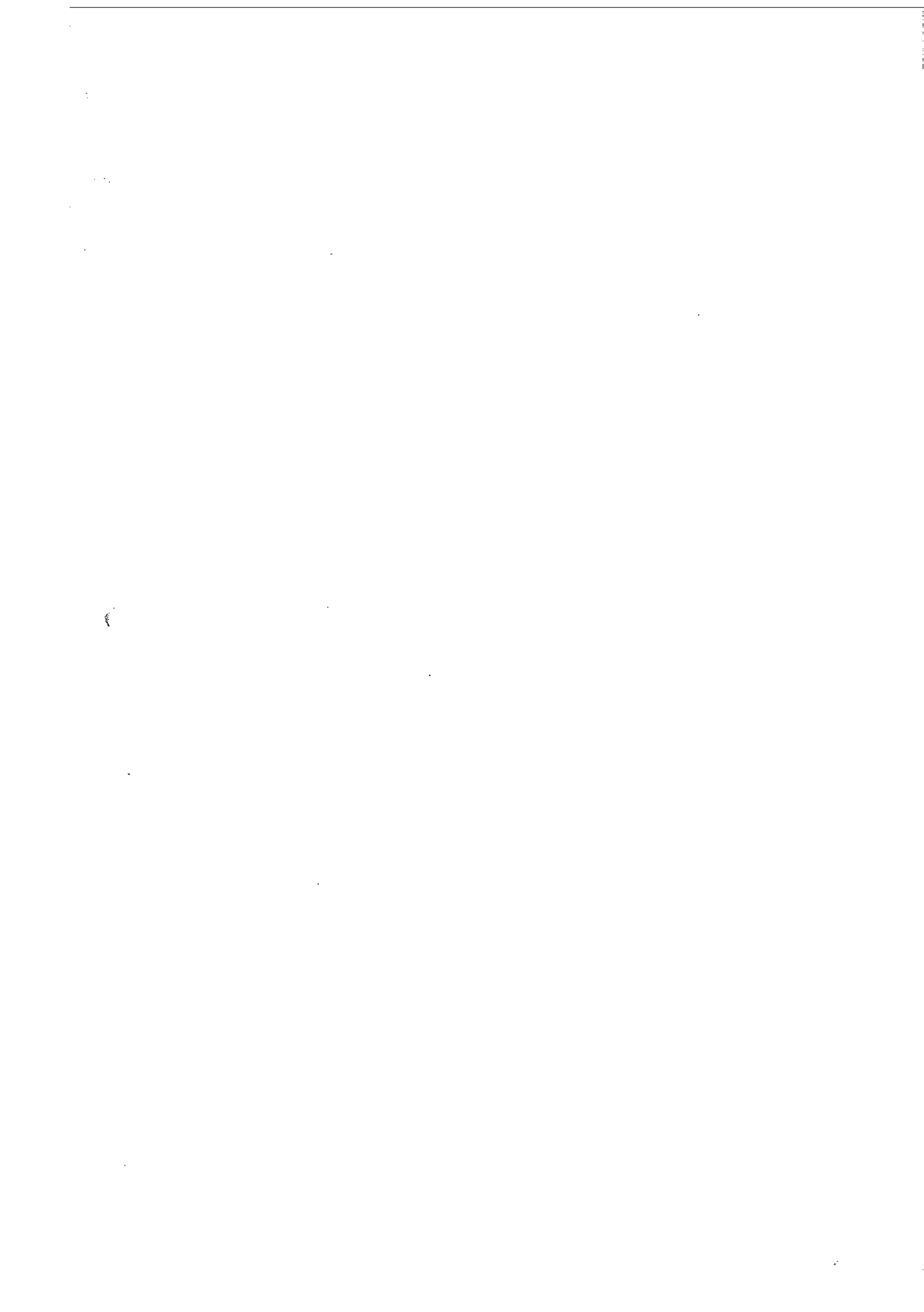
## ملوك اسرة الهانوفر في انكلترا

| | |
|---|---|
| جورج الأول | ١٧١٤ - ١٧٢٧ |
| جورج الثاني | ١٧٢٧ - ١٧٦٠ |
| جورج الثالث | ١٧٦٠ - ١٨٢٠ |
| جورج الرابع | ١٨٢٠ - ١٨٣٠ |

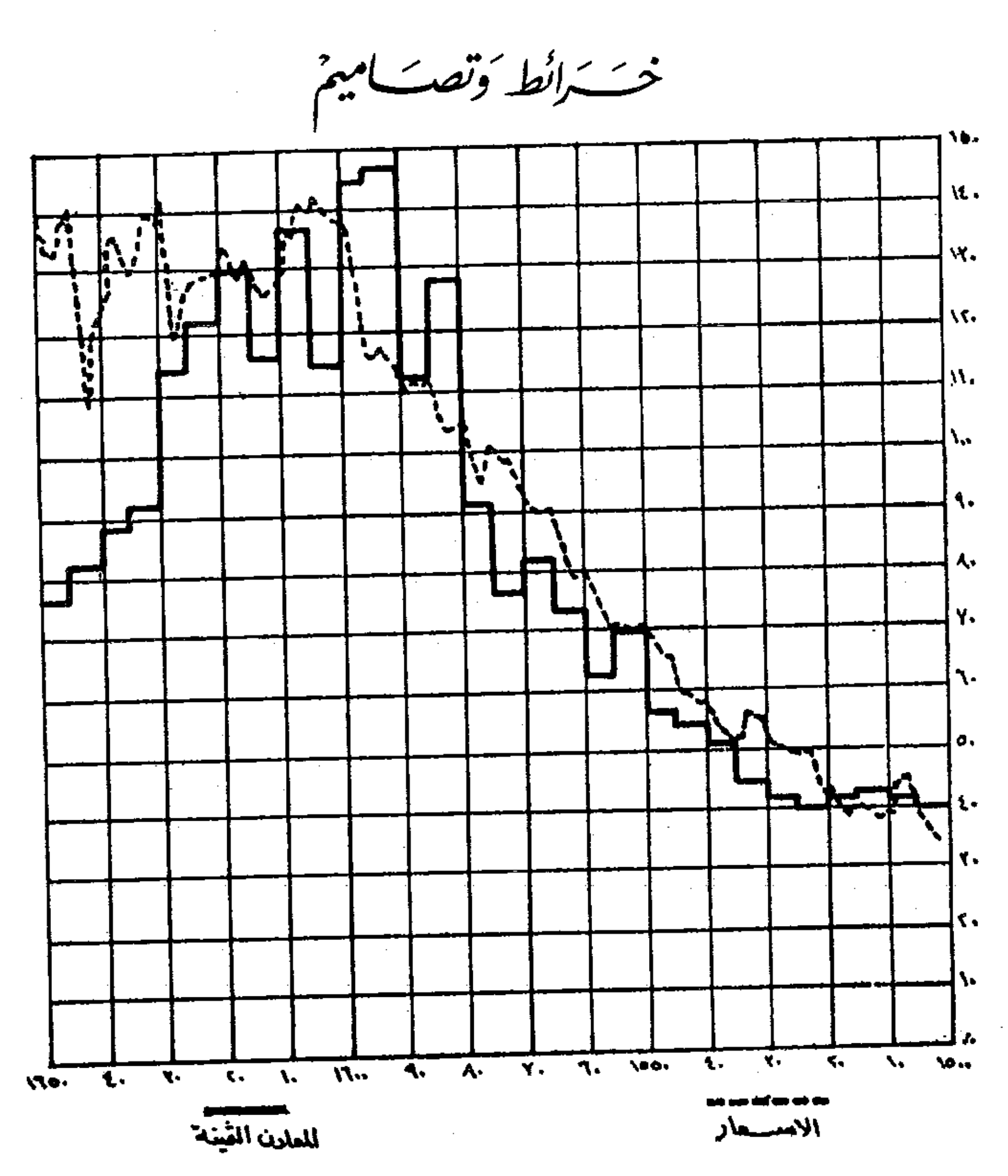
## اسرة رومانوف في روسيا

| | |
|---|---|
| ميخائيل | ١٦١٣ - ١٦٤٥ |
| الكنسيس | ١٦٤٥ - ١٦٧٦ |
| تيودور الثاني | ١٦٧٦ - ١٦٨٢ |
| ايفان الخامس | ١٦٨٢ - ١٦٨٩ |
| بطرس الأول (الأكبر) | ١٦٨٩ - ١٧٢٥ |
| كاترين الأولى | ١٧٢٥ - ١٧٢٧ |
| بطرس الثاني | ١٧٢٧ - ١٧٣٠ |
| انا | ١٧٣٠ - ١٧٤٠ |

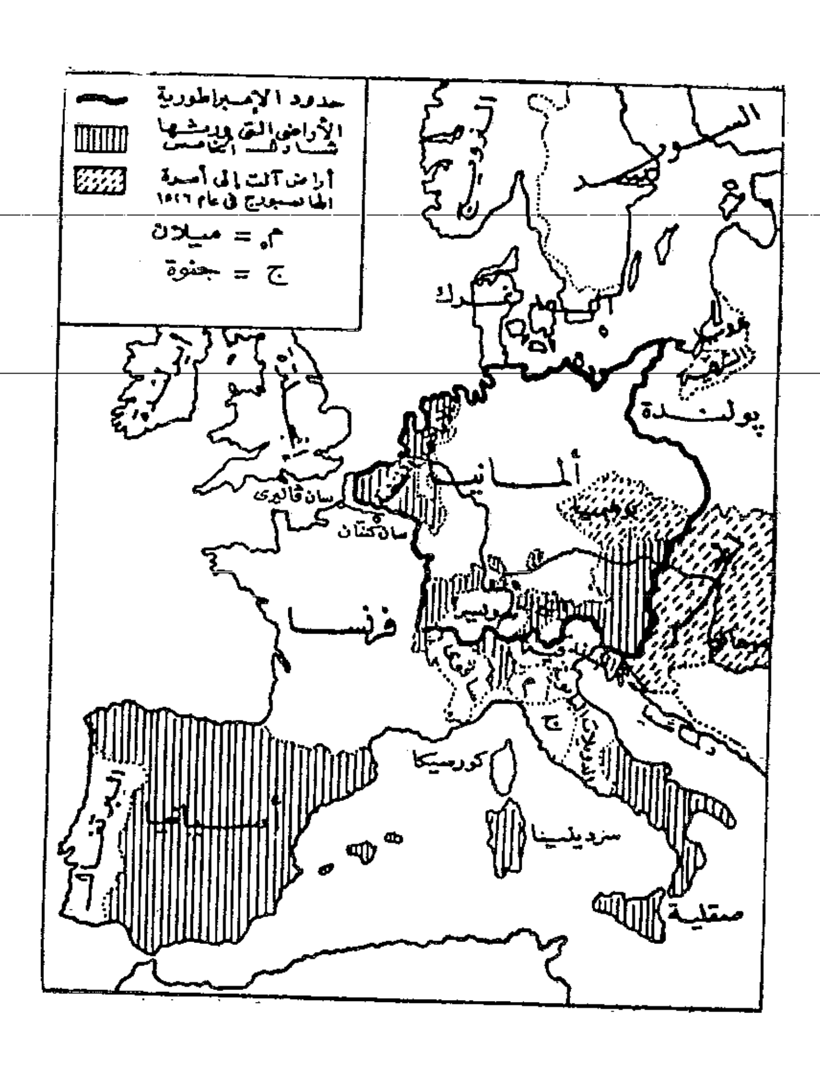
| | |
|---|---|
| ايفان السادس | ١٧٤٠ - ١٧٤١ |
| اليزابيت | ١٧٤١ - ١٧٦٢ |
| بطرس الثالث | ١٧٦٢ |
| كاترين الثانية | ١٧٦٢ - ١٧٩٦ |
| بول الأول | ١٧٩٦ - ١٨٠١ |
| اسكندر الأول | ١٨٠١ - ١٨٢٥ |



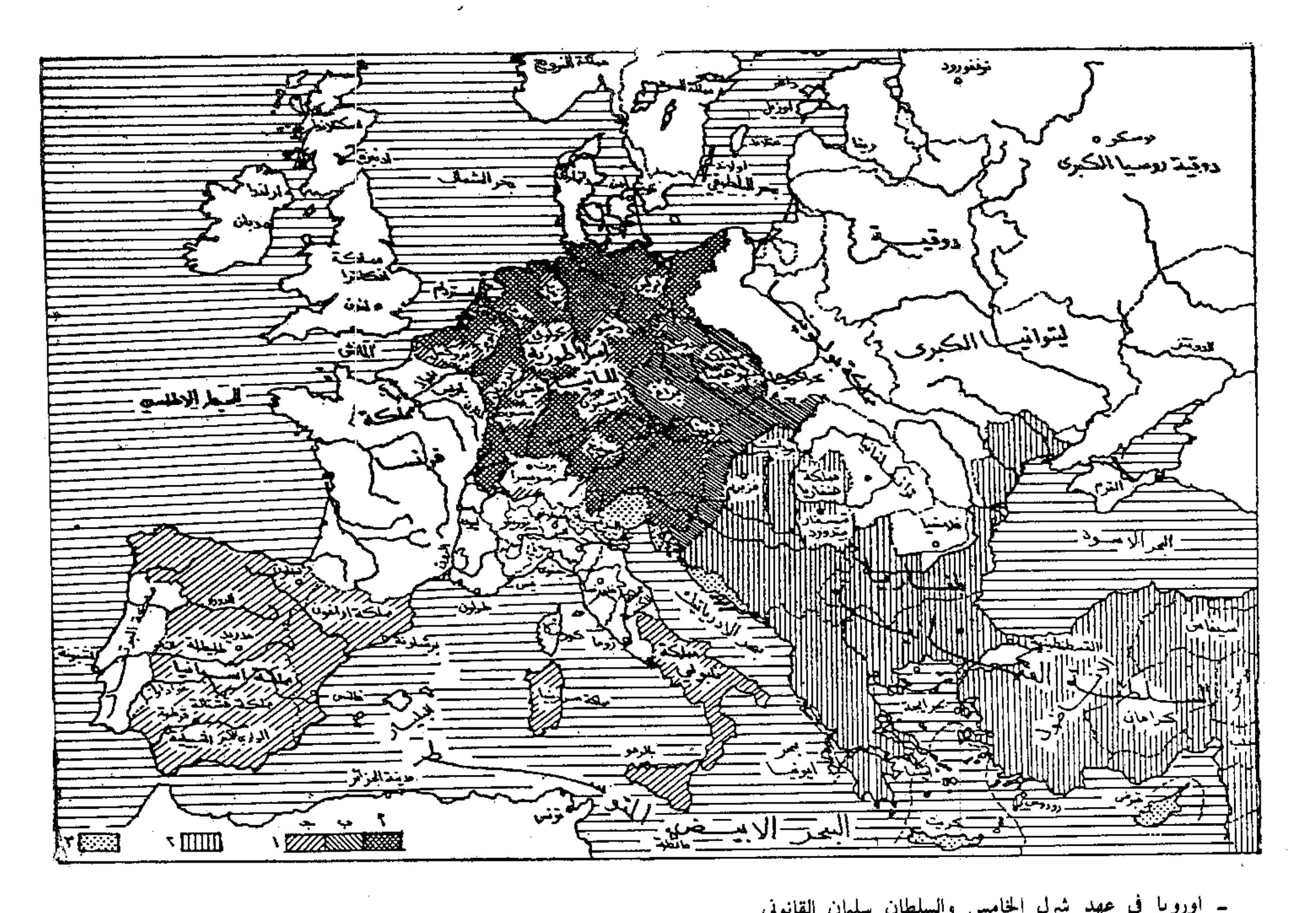
# خرائط وتصاميم




ـ الواردات الاسبانية من المعادن الثمينة وحركة الاسعار في اسبانيا بين ١٥٠٠ ـ ١٦٥٠ (عن هاملتون)




إمبراطورية شارل الخامس في عام ١٥٢٥

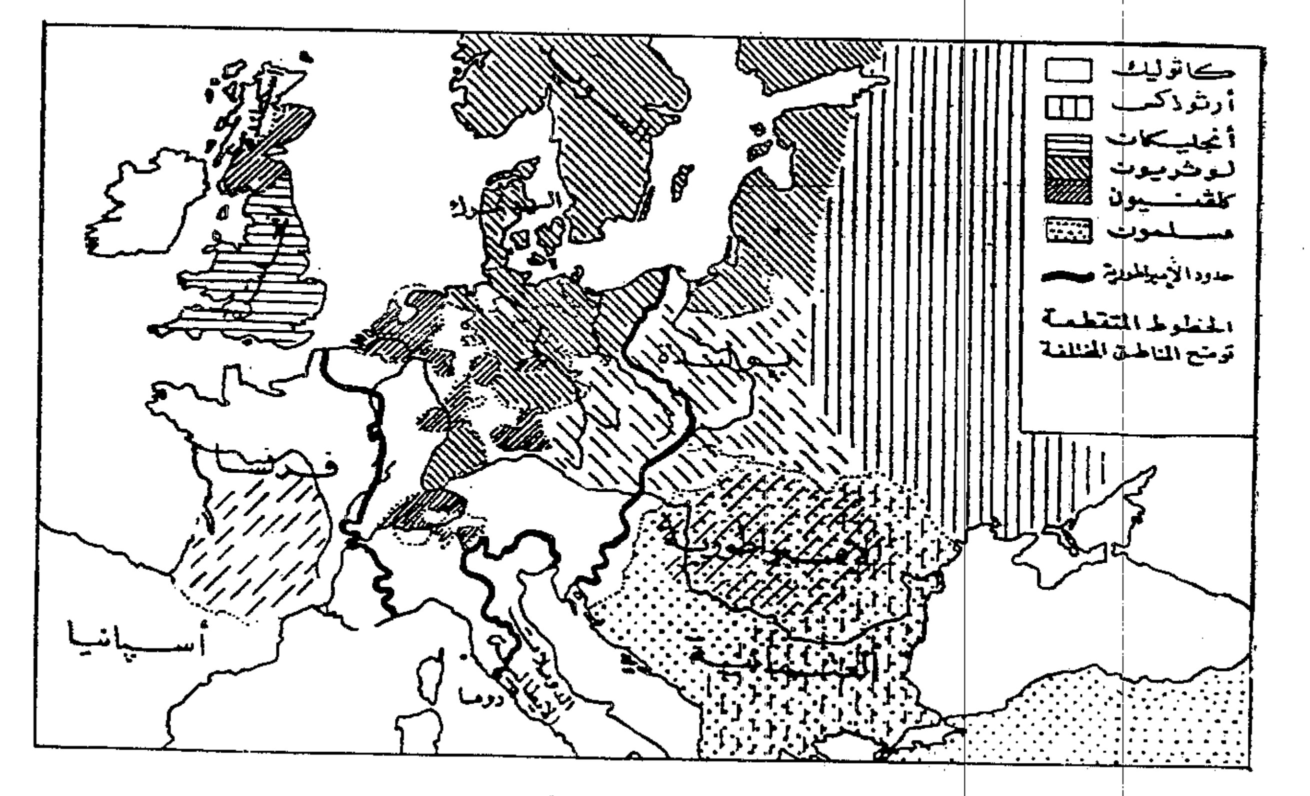



- اوروبا في عهد شرل الخامس والسلطان سليمان القانوني

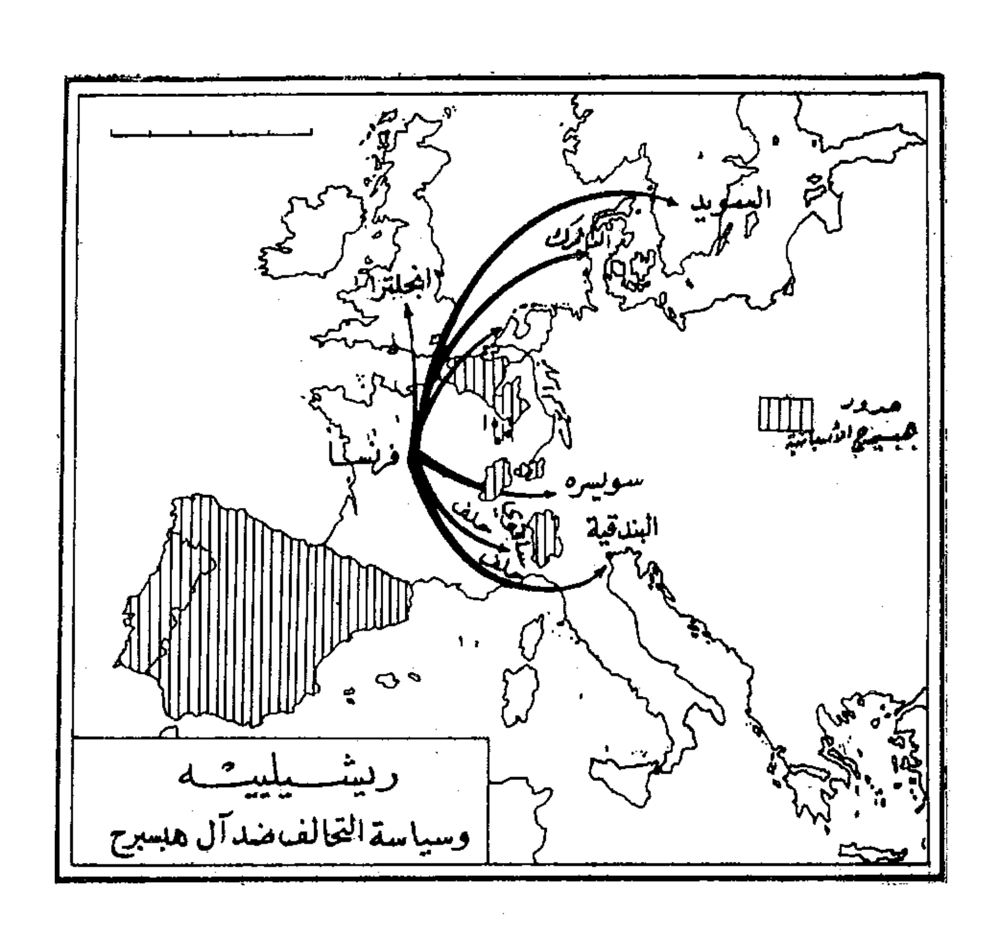
١ - البلدان الخاضعة لسلطان آل هبسبورج:

أ - الامبراطورية المقدسة ب - ممتلكات فرديناند، شقيق شارل الخامس ج - ممتلكات شارل الخامس في المتوسط

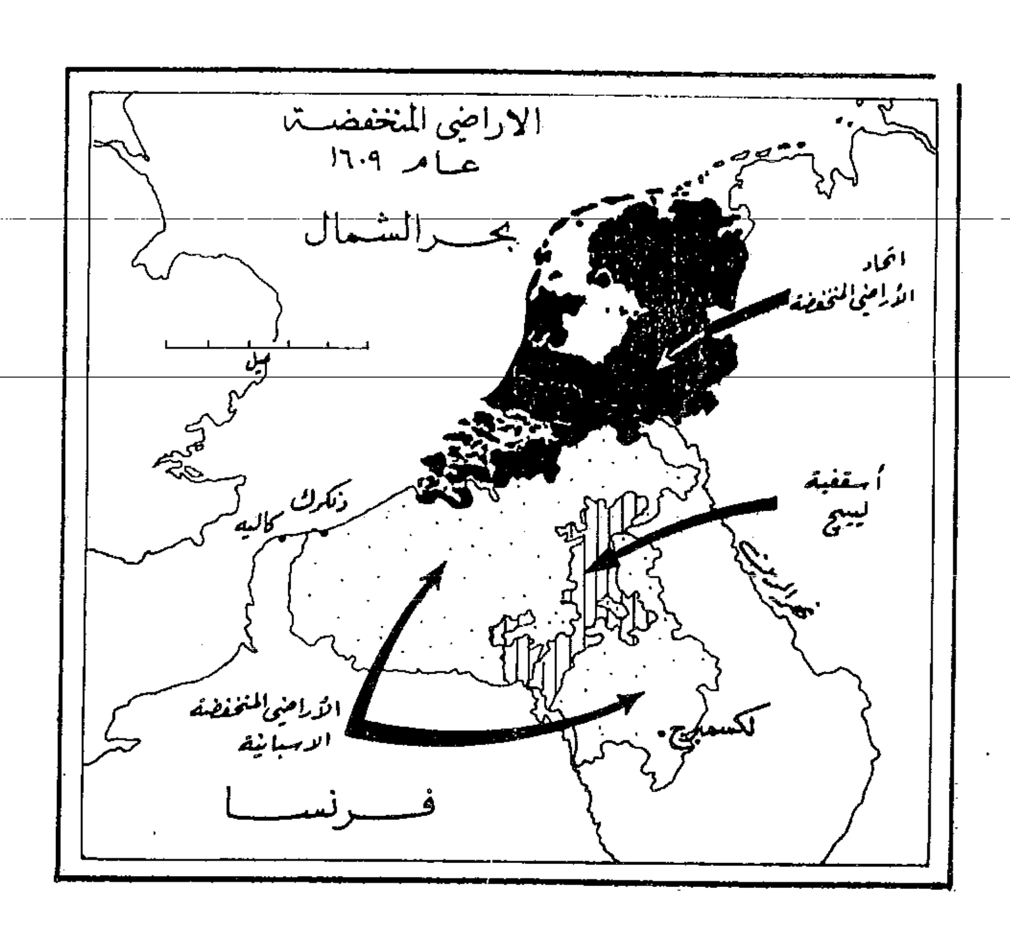
٢ - ممتلكات سليمان القانوني ٣ - ممتلكات البندقية.



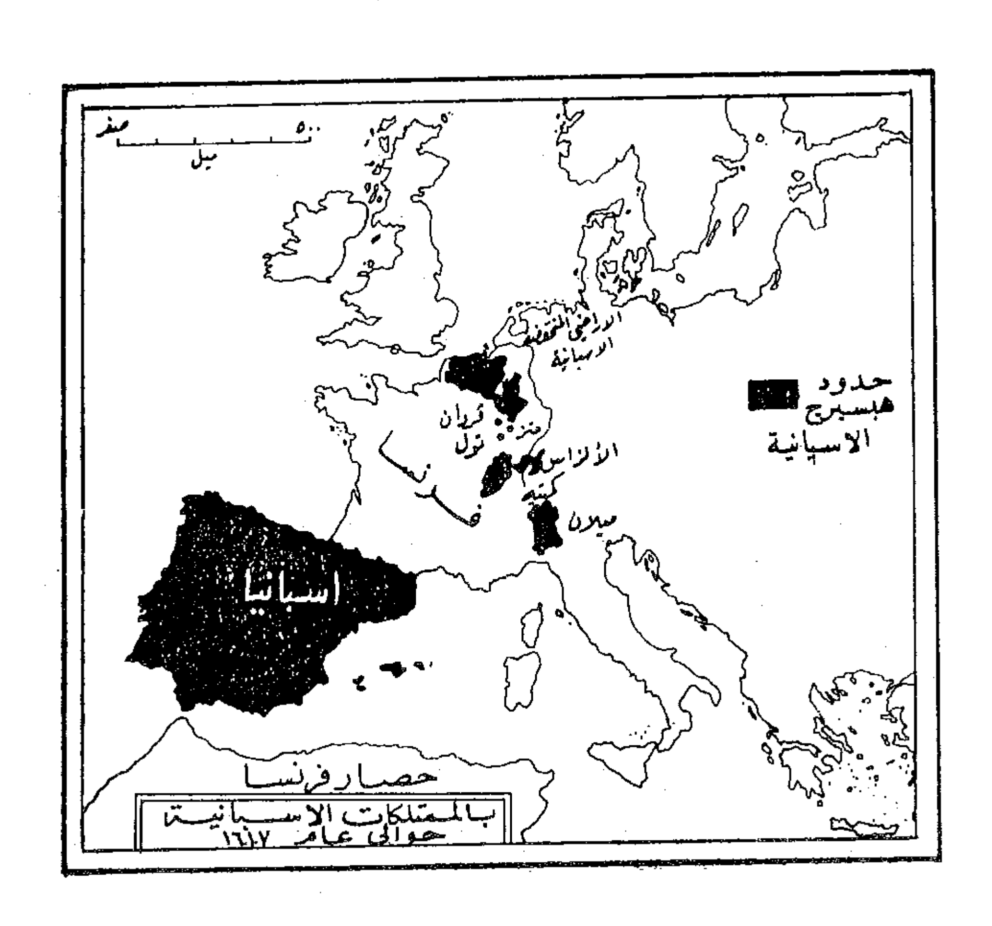

توزيع الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا في عام ١٦١٠

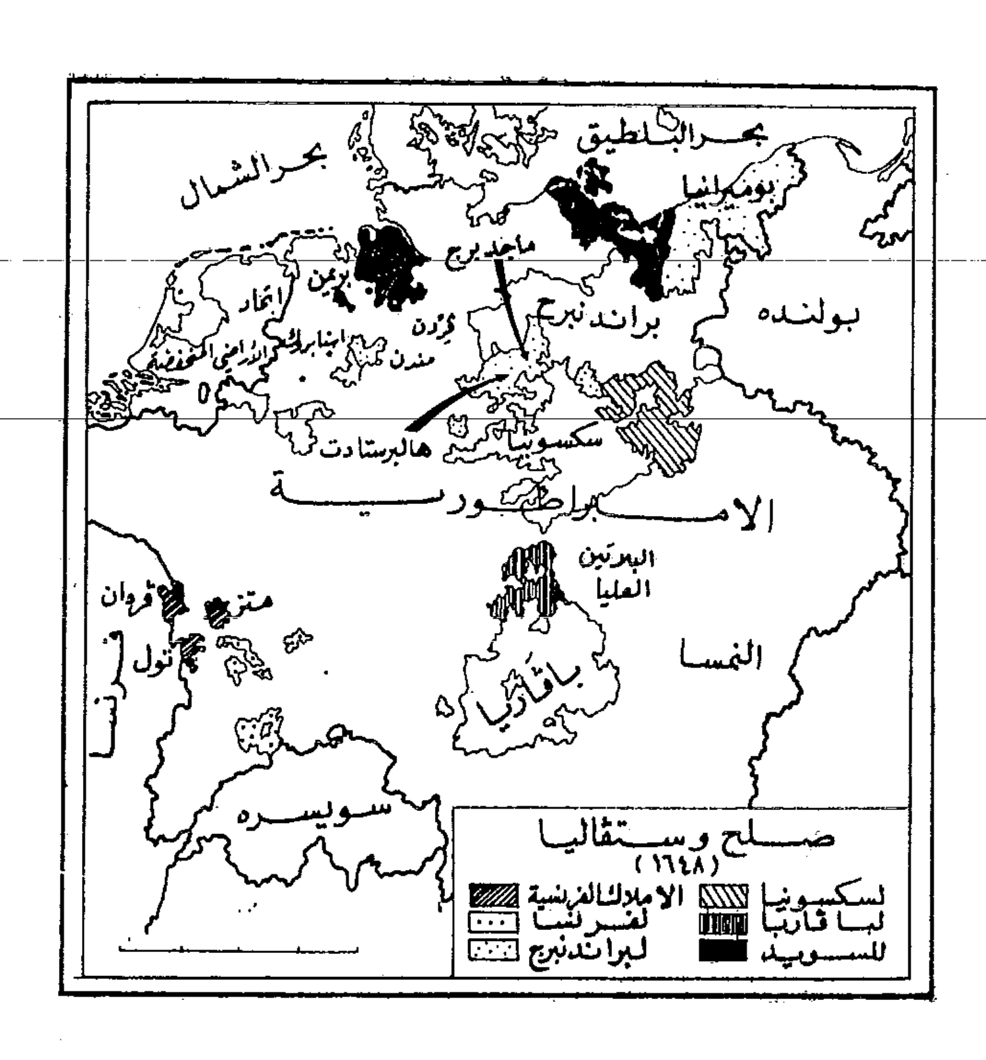



ريشيليه
وسياسة التحالف ضد آل هبسبرج

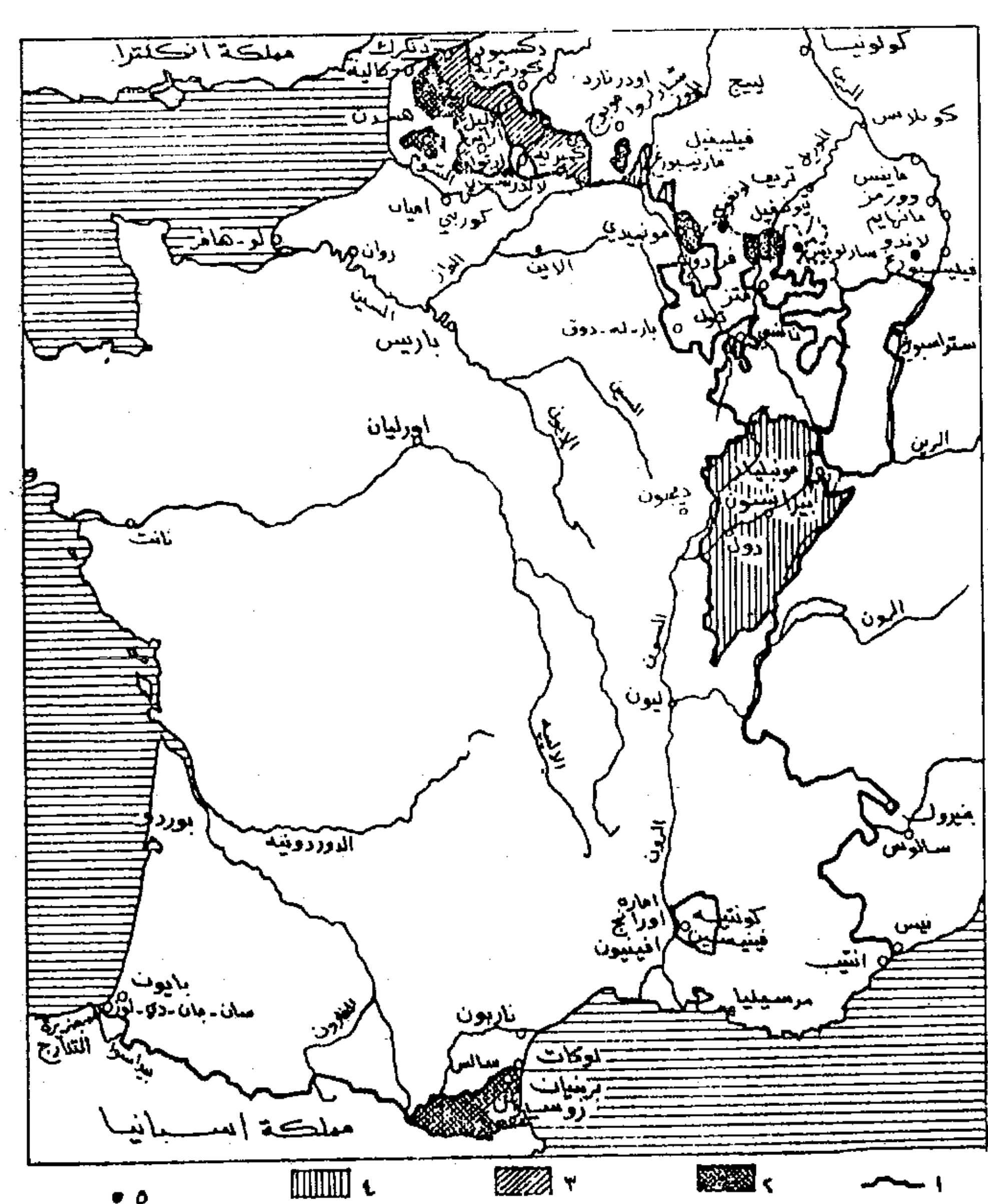


الاراضي المنخفضة
عام ١٦٠٩
بحر الشمال
ميل
اتحاد
الأراضي المنخفضة
أسقفية
ليبج
دنكرك
كاليه
الأراضي المنخفضة
الاسبانية
لكسمبرج
فرنسا


صفر
٥٠٠
ميل
الأراضي المنخفضة
الاسبانية
حدود
هبسبرج
الاسبانية
ڤردان
متز
تول
الألزاس
ميلان
فرنسا
اسبانيا
حصار فرنسا
بالممتلكات الاسبانية
حوالي عام ١٦١٧



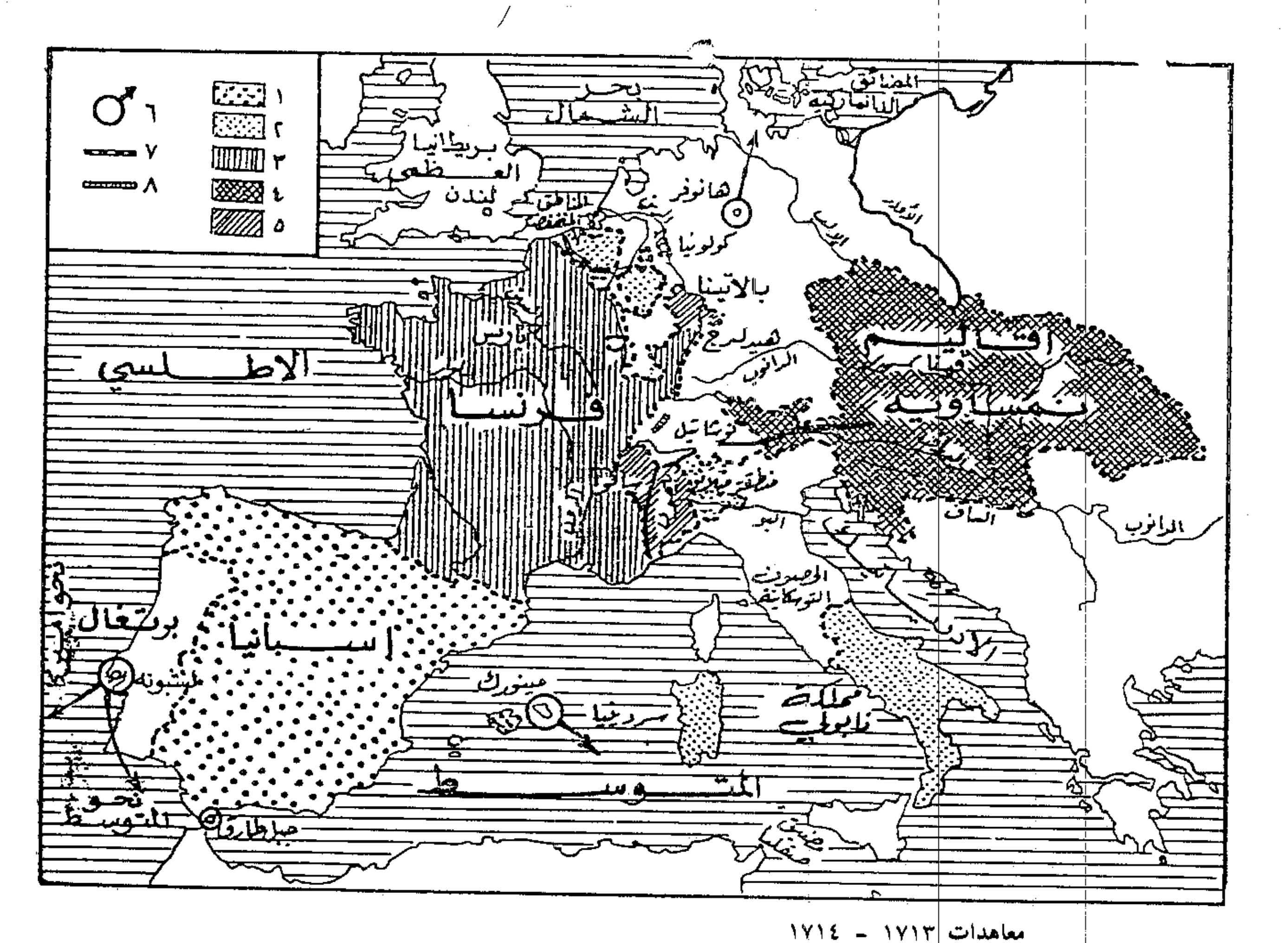
بحر البلطيق
بحر الشمال
بوميرانيا
بولنده
بريمن
ماجدبرج
اتحاد
براندنبرج
فردن
مندن
ابنابرك
الأراضي المنخفضة
سكسونيا
هالبرستادت
الامبراطورية
البلاتين
العليا
متز
فردان
تول
النمسا
باڤاريا
سويسره
صلح وستڤاليا
(١٦٤٨)
لسكسونيا
الاملاك الفرنسية
لباڤاريا
لفرنسا
للسويد
لبراندنبرج




- الغنم الفرنسي منذ معاهدة وستفاليا حتى معاهدة اوترخت

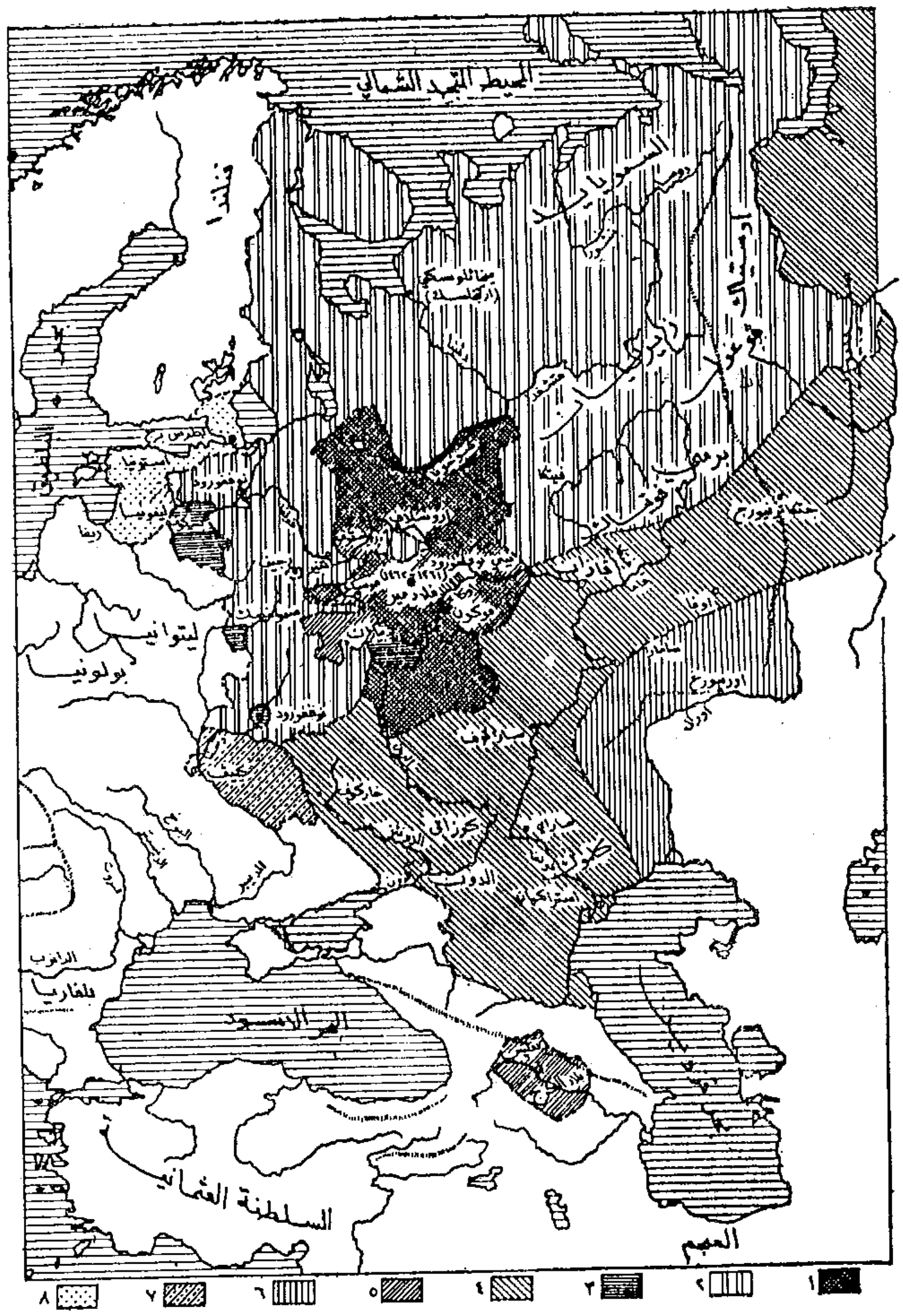
١ - الحدود ٢ - معاهـدة البيرينيـة ١٦٥٩ ٣ - اكس لا شـابيـل، ١٦٦٨ ٤ - نيميغ، ١٦٧٨

٥ - اقاليم ربطتها بفرنسا غرف الاجتماع



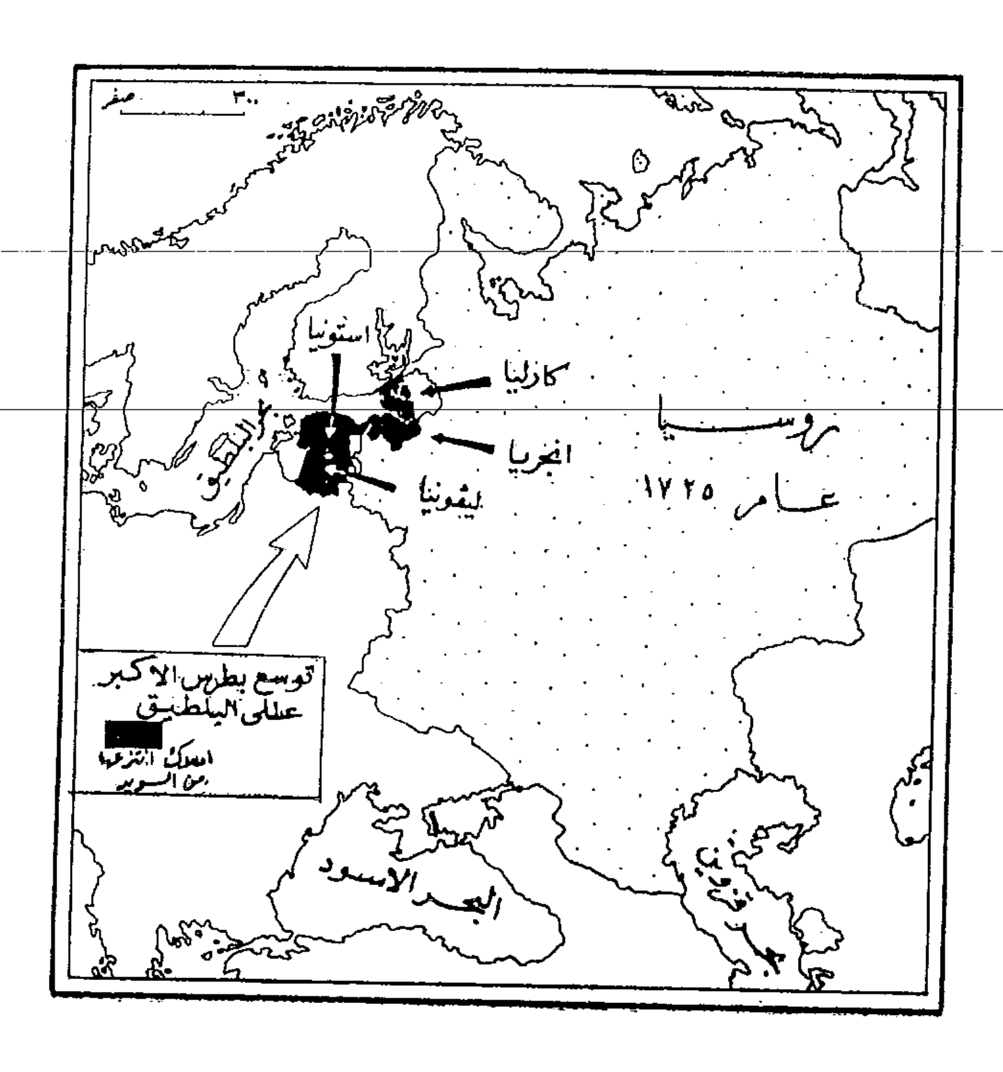

معاهدات ١٧١٣ - ١٧١٤

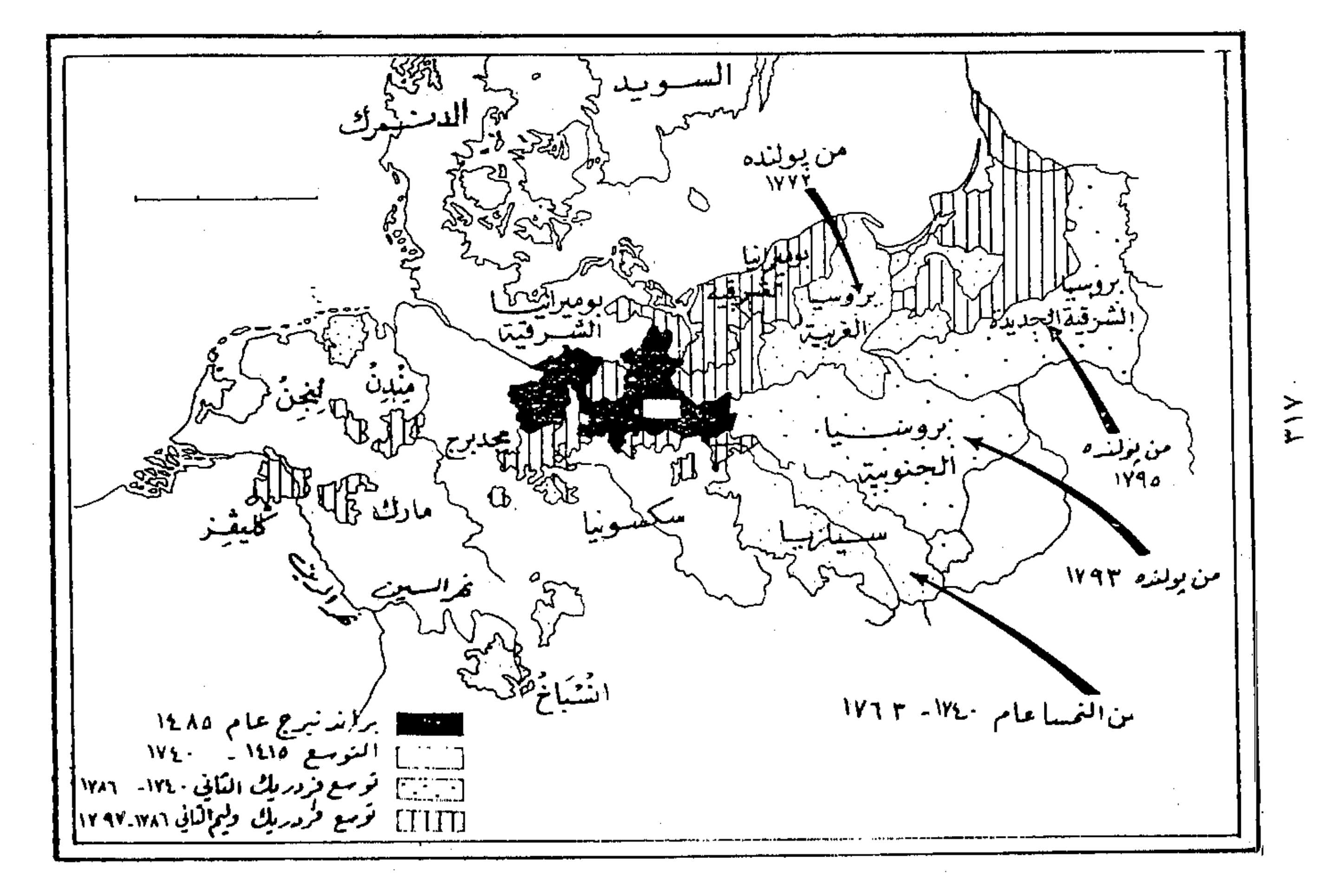
وراثة عرش اسبانيا : ١ - نصيب ملك اسبانيا البوربوني، ٢ - نصيب ملك النمسا - ٣ - مملكة فرنسا، ٤ - مملكات نمساوية قبل المعاهدات، ٥ - دول قسطانل، ٦ - قواعد بحرية ورقاب جسور انكليزية، ٣ - الحاجز الهولندي، ٨ - الحاجز الروسي.

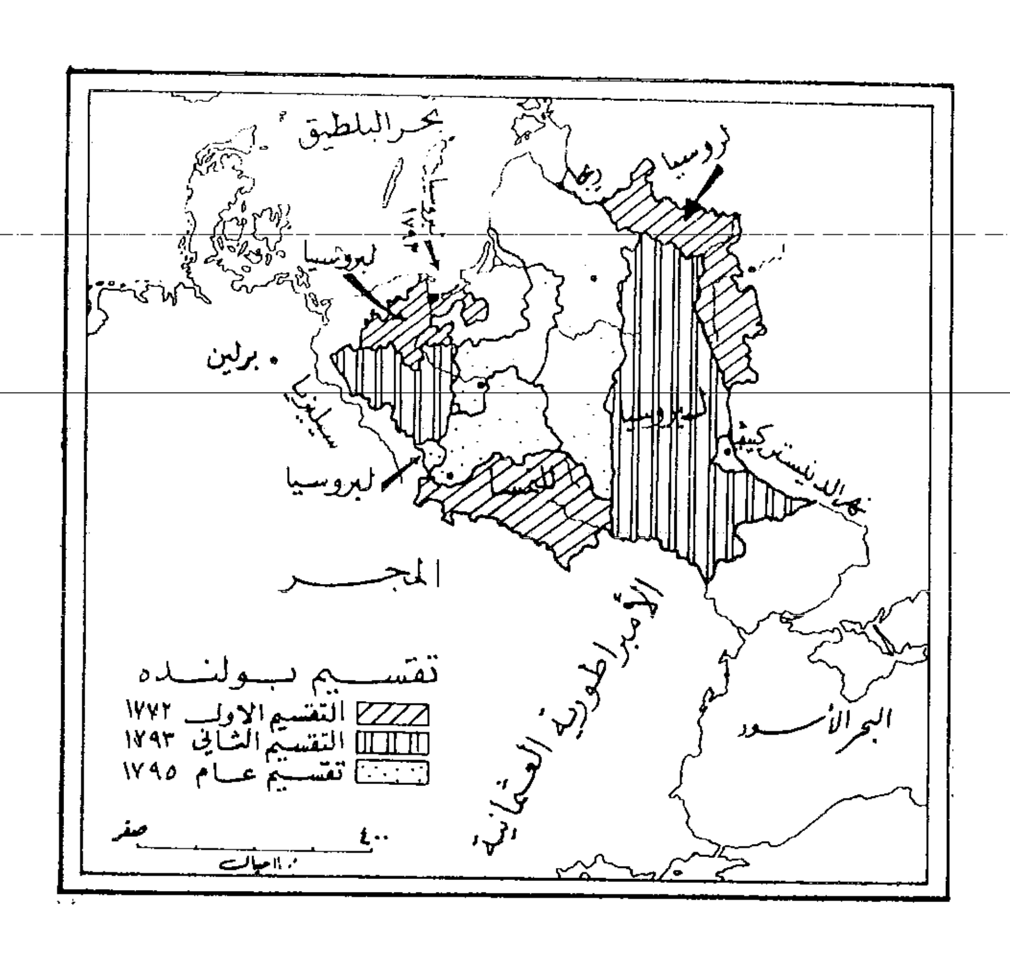



- تطور الامبراطورية الروسية

١ - الاراضي الروسية عند اعتلاء ايفان الثالث العرش
٢ - فتوحات ايفان الثالث
٣ - فتوحات باسيل الثالث
٤ - فتوحات ايفان الرابع المرعب
٥ - فتوحات بيدور وبوريس غودونوف
٦ - فتوحات ميخائيل رومانوف
٧ - فتوحات ألكسي ميخائيلوفتش
٨ - فتوحات بطرس الأكبر


صفر ٣٠٠
كازليا
استونيا
انجريا
ليفونيا
بحر البلطيق
روسيا
عام ١٧٢٥
توسع بطرس الأكبر
على البلطيق
أملاك انتزعها
من السويد
البحر الأسود


السويد
الدنمرك
من بولنده ١٧٧٢
بوميرانيا الشرقية
بروسيا الغربية
بروسيا الشرقية الجديدة
من بولنده ١٧٩٥
بروسيا الجنوبية
من بولنده ١٧٩٣
سيليزيا
سكسونيا
مارك
كليفز
انسباخ
من النمسا عام ١٧٤٠ - ١٧٦٣
براندنبرج عام ١٤٨٥
التوسع ١٤١٥ - ١٧٤٠
توسع فردريك الثاني ١٧٤٠ - ١٧٨٦
توسع فردريك وليم الثاني ١٧٨٦ - ١٧٩٧


بحر البلطيق
لروسيا
ريجا
لبروسيا
برلين
لبروسيا
المجر
الإمبراطورية العثمانية
نهر الدنيستر
كييف
البحر الأسود
تقسيم بولنده
التقسيم الاول ١٧٧٢
التقسيم الثاني ١٧٩٣
تقسيم عام ١٧٩٥
صفر
٤٠٠

# المصادرُ والمراجع

# المصادر والمراجع العربية والمترجمة.

**ابن جبير:** الرحلة. دار التراث بيروت ١٩٦٨.

**ابن خلدون:** المقدمة. الطبعة الثانية. مكتبة المدرسة بيروت ١٩٦٧.

**انجلنر، فريدريك:** حرب الفلاحين في المانيا. ترجمة لطفي فطيم وقدري حفني دار الثقافة الجديدة القاهرة ١٩٧٠.

**باركر، ارنست:** الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٧.

**باركر، ارنست (مع آخرين):** تراث الاسلام. عربه وعلق على حواشيه جرجيس فتح الله. دار الطليعة الطبعة الثانية ١٩٧٢.

**بدوي، محمد طه:** علوم السياسة المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٥.

**البطريق، عبدالحميد، ونوار، عبدالعزيز:** التاريخ الاوروبي الحديث دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١.

**بينز، نورمان:** الامبراطورية البيزنطية ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٤.

**ثريغور، روبر:** اراسم في اصول النهضة الاوروبية مجلة الواقع العدد الثاني

تموز ١٩٨١ ترجمة الياس مرقص.

**حاطوم، نورالدين:** تاريخ عصر النهضة الاوروبية. دار الفكر الحديث لبنان ١٩٦٨.

**درسدن. س:** الحركة الانسانية والنهضة. ترجمة عمر شخاشيرو. منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي. دمشق ١٩٧٢.

**دلماسن. كلود:** تاريخ الحضارة الاوروبية. ترجمة توفيق وهبة منشورات عويدات ١٩٧٠.

**دوب، موريس:** (مع آخرين) الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية. ترجمة وتقديم عصام الخفاجي دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٩.

**دوفيز، ميشال:** اوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر ترجمة الياس مرقص. دار الحقيقة ١٩٨٠.

**ديفز، كارلس:** شارلمان. ترجمة السيد الباز العريني مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٩.

**ديورانت، ول:** قصة الحضارة. ٣٦ جزء ظهرت حتى الآن في تسعة مجلدات. قام بترجمتها كل من زكي محمود ومحمد بدران وعبدالحميد يونس ومحمد علي ابو درة وفؤاد اندراوس بين السنتين ١٩٦٥ و ١٩٨١ انفقت على ترجمته جامعة الدول العربية.

**رستم، اسد:** الروم. دار المكشوف جزءان بيروت الطبعة الاولى ١٩٥٥.

**رنسيان، ستيفن:** • تاريخ الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني ٣ مجلدات دار الثقافة بيروت ١٩٦٧.

• الحضارة البيزنطية ترجمة عبدالعزيز جاويد مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦١.

**روسو، جان جاك:** في العقد الاجتماعي ترجمة ذوقان قرقوط دار القلم بيروت ١٩٧٣.

**ريسلر، جاك:** الحضارة العربية ترجمة غنيم عبدون مراجعة احمد فؤاد الاهواني الدار المصرية القاهرة ١٩٥٥.

**سباين، جورج:** تطور الفكر السياسي ترجمة راشد البراوي دار المعارف بمصر ١٩٧١.

**سعفان، حسن:** اساطين الفكر السياسي دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٦.

**سليم، حسن كامل:** تاريخ اوروبا الاقتصادي في القرن التاسع عشر ملتزم التوزيع مؤسسة المطبوعات الحديثة الاسكندرية ١٩٥٨.

**سوبول، البير:** تاريخ الثورة الفرنسية ترجمة جورج كوسى منشورات عويدات بيروت. ١٩٧٠.

**سوتشكوف، بوريس:** المصائر التاريخية. ترجمة محمد عيتاني واكرم الرافعي. دار الحقيقة بيروت ١٩٧٤.

**شرر، وليام:** تاريخ المانيا الهتلرية . تعريب خيري حماد. توزيع دار الكتاب العربي منشورات مكتبة المثني الطبعة الثانية ١٩٦٦.

**الشناوي، عبدالعزيز:** اوروبا في مطلع العصور الحديثة. دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

**الشنيطي، محمد:** جون لوك. دار الطلبة العرب بيروت ١٩٦٩.

**صبحي، حسن:** اوروبا من فتح القسطنطنية حتى قبيل الثورة الفرنسية. مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٩٦٧.

**عاشور، سعيد:** • الحركة الصليبية جزءان القاهرة ١٩٦٣.
• اوروبا في العصور الوسطى جزءان الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٤.

**عثمان، فتحي:** الحدود الاسلامية البيزنطية. الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ .

**العدوي، ابراهيم:** الامويون والبيزنطيون الدار القومية للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٦٣ .

**غروتويزن، ب:** فلسفة الثورة الفرنسية ترجمة عيسى عصفور منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٠ .

**فروخ، عمر:** عبقرية العرب في العلم والفلسفة منشورات المكتبة العصرية الطبعة الثالثة ١٩٦٩ .

**فولتير:** رسائل فلسفية ترجمة عادل زعيتر دار المعارف بمصر ١٩٥٩ .

**فولغين. ف:** فلسفة الانوار. ترجمة هنرييت عبودي دار الطليعة بيروت ١٩٨١ .

**فيدرين، الين:** مكيافللي. ترجمة اميرة الزين المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٤ .

**فيشر. هربرت:** • تاريخ اوروبا في العصور الوسطى جزءان. ترجمة محمد زيادة والسيد الباز العريني وابراهيم العدوي الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٦٦ .

• اصول التاريخ الاوروبي الحديث ترجمة زينب عصمت راشد دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .

**القلماوي،سهير . ومكي، محمود علي ( مع آخرين ) :** اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧٠ .

**كرانستون، موريس:** اعلام الفكر السياسي دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٠ .

**كريسون، اندريه:** روسو. حياته، فلسفته، منتخبات. ترجمة بينه صقر

منشورات عويدات (زدني علماً) الطبعة الثانية ١٩٧٧.

**كولتون، جورج:** عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ترجمة جوزيف نسيم يوسف دار المعارف بمصر ١٩٦٤.

**لوك، جون:** في الحكم المدني. ترجمة ماجد فخري. اللجنة الدولية لترجمة الروائع بيروت ١٩٥٩.

**ليلة، محمد كامل:** النظم السياسية دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٩.

**لينين:** الدولة والثورة. دار التقدم موسكو ١٩٦٧.

**مظهر، جلال:** اثر العرب في الحضارة الاوروبية. منشورات دار الرائد بيروت ١٩٦٧.

**مكيافللي:** الامير. ترجمة خيري حماد تعقيب فاروق سعد. منشورات المكتب التجاري بيروت ١٩٧٠.

**منتصر، عبدالحليم:** • المجلة العربية السنة الثانية العدد الثاني ١٩٧٧ مقالة عن اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية

• تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه. دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة ١٩٧١.

**موسينيه، رولان:** تاريخ الحضارات العام. القرنان السادس عشر والسابع عشر. باشراف موريس كروزيه ترجمة يوسف وفريد داغر. المجلد الرابع منشورات عويدات ١٩٦٦.

**موسينيه ولابروس، ارنست:** تاريخ الحضارات العام القرن الثامن عشر ترجمة يوسف وفريد داغر المجلد الخامس. منشورات عويدات ١٩٦٨.

**مونتسكيو:** روح الشرائع جزءان ترجمة عادل زعيتر اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية (الاونيسكو) القاهرة ١٩٥٣.

**هارتمان وباراكلاف:** الدولة والامبراطـوريـة في العصـور الوسطـى تـرجمة جوزيف نسيم يوسف دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

**هولت. ب. م:** صانعو أوروبا الحديثة. ترجمة موفق شقيـر. وزارة الثقافة والارشاد القـومي دمشق ١٩٨٠.

**واط، مونتغمري:** اثر الحضارة العربية الاسلامية على اوروبا ترجمة جابر ابي جابر وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٨١.

**نعنعي، عبدالمجيد:** اوروبا في بعض الازمنة الحديثة والمعاصرة دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٨.

**يحيي، جلال، وطه، جاد:** معالم التاريخ الاوروبي الحديث. منشأة المعارف الأسكندرية ١٩٧٤.

# المراجع الأجنبية


**ARGAN. G:** Histoire Générale de la Peinture-Renaissance Marian. Flammarion Paris 1968.

**BATIFFOL. L:** Autour de Richelieu Paris 1937.

**BRÉHIER. E:** La Philosophie du M. A. Paris 1937.

**BRE HIER. L:** • La civilisation Byzantine. Paris 1933

• Les Croisades. 6e édition. Paris 1928.

**BROGLIE. A:** Frédéric II et Marie-Thérèse. 2 vols. Paris 1983.

**COURVOISIER. J:** Zwingli, théoligien Réformé. éd. DELACHAUX et NIESTLE. Génève 1965.

**DELUMEAU. J:** La civilisation de la Rénaissance. ARTHAUD Paris 1973.

**DIEHL. C:** • Etudes Byzantines Paris 1905.

• Byzance Grandeur et décadence. Paris 1919.

• Figures Byzantines 3 vols Paris 1906.

**DOCUMENTATION Pédagogique** N° 142 (1967) Janvier.

**DUVERGER. M:** Méthode de la science Politique. Introduction à la Politique. GALLIMARD. Paris 1960.

**ENCYCLOPAEDIA UNIVERSALIS:** France, Éditeur à Paris 1968.

**FAURE. E:** • Histoire de L'Art (l'art renaissant) (Le Livre de Poche) 1964.

• Histoire de l'Art (l'art médiéval) (le livre de Poche) Paris 1964.

**FAVIER. J:** La Guerre de Cent Ans. Fayard. Paris 1980.

**FEBVRE. L:** Un destin. Martin Luther. Collection Hier. Paris 1968.

**FEILLET. A:** La Misère au temps de la Fronde. Paris 1962.

**FLICHE. A:** L'Europe Occident de 888 à 1125 Paris 1930.

**GARIN. E:** Moyen-Âge et Renaissance. Traduit de l'Italien par CLAUDE CARME. éd. Gallimard. Paris 1969.

**GLOTZ. G:** Histoire Générale. Paris 1945.

**GRAND-MESNIL. M. N:** MAZARIN, La Fronde et la Presse. 1647-1649. Armond colin. Paris 1967.

**GROUSSET. R:** Histoire des Groisades et du Royaume franc de Jérusalem 3 vols. Paris 1934-1936.

**GUIRAUD. J:** L'Inquisition Médiévale. Tallandier. Paris 1978.

**HEYD. W:** Histoire du Commerce du Levant. Trad. F. Raymand 3 vols. Paris 1885.

**JEDIN. H:** Histoire du Concile de Trente. DESCLEE. Paris 1965.

**JULIEN. CH. A:** Les Voyages de découverte et les prémiers Établissements. éd. (Gérard Monfort) Paris 1979.

**KAMEN. H:** Histoire de l'Inquisition Espagnole. Albin Michel. Paris 1966.

**KENNETH. C:** Léonard de Vinci. (Le Livre de Poche) Paris 1967.

**LAPEYRE. H:** Les Monarehies Européennes du XVI e Siècle. Les Rélations Internationales. Col. Nouvelle (CLIO) Paris 1973.

**LEBON. G:** La Civilisation des Arabes. Paris 1884.

**LEFEBVRE. G:** La Révolution Française. Presses Universitaires de France. 6 e éd. Paris 1968.

**LEONARD. E:** Histoire Générale du Protestantisme. 3 tomes Presses Universitaires de France Paris 1961, 1964.

**LIVET. G:** La Guerre de Trente Ans. (Que sais-je?) N° 1083. Paris 1972.

**LORRIS. P-G:** La Fronde, Paris 1961.

**LORTZ. J:** La Réforme de Luther. Théologie sans frontières 3 tomes éd. du CERF. Traduit de l'allemand par Daniel Olivier. Paris 1970.

**MACHIAVEL:** Le Prince Traduction de J. GOHORY Présenté par Raymond Aron (Livre de Poche) N° 879. Gallimard Paris 1962.

**MARTIN. M. M:** SULLY Le Grand Paris 1960.

**METHIVIER. H:** Le Siècle de Louis XIV (Que sais-Je?) N° 426. Presses Universitaires de France Paris 1964.

**MONTESQUIEU:** Textes Choisies et Présentés par J. EHRARD. Armon-Colin Paris 1965.

**MOURS. S:** Le Protestantisme en France au XVI e Siècle. Paris 1959.

**MOUSNIER. R:** Histoire Générale des Civilisations. t IV Presses Universitaires de France. Paris 1954.

**PERNOUD. R:** Histoire de la bourgesisie en France. éd. du seuil Paris 1981.

**PEROY. E:** Histoire Générale des Civilisations t III Presses Universitaires de France. Paris 1955.

**POULET. C:** Papauté: Guelfs et Gibelins 2 vols. Paris 1922.

**Revue de l'Orient Chrétien 1896-1914.**

**Revue Historique. Presses Universitaires de France N° 475. Paris 1965.**

**Revue du Moyen-Age Latin. Strasbourg. (1945-1969).**

**REY. E:** Les Colonies Franques en Syrie aux XII et XIII Siècle Paris 1883.

**ROUMIER. L:** Le Royaume de Cathérine de Médicis. La France à la Veille des Guerres de religion 2 vols. Paris 1922.

**SEDILLOT, L:** Histoire Générale des Arabes Paris 1977.

**SOBOUL. A:** La Révolution Française. 2 tomes Gallimard. Paris 1962.

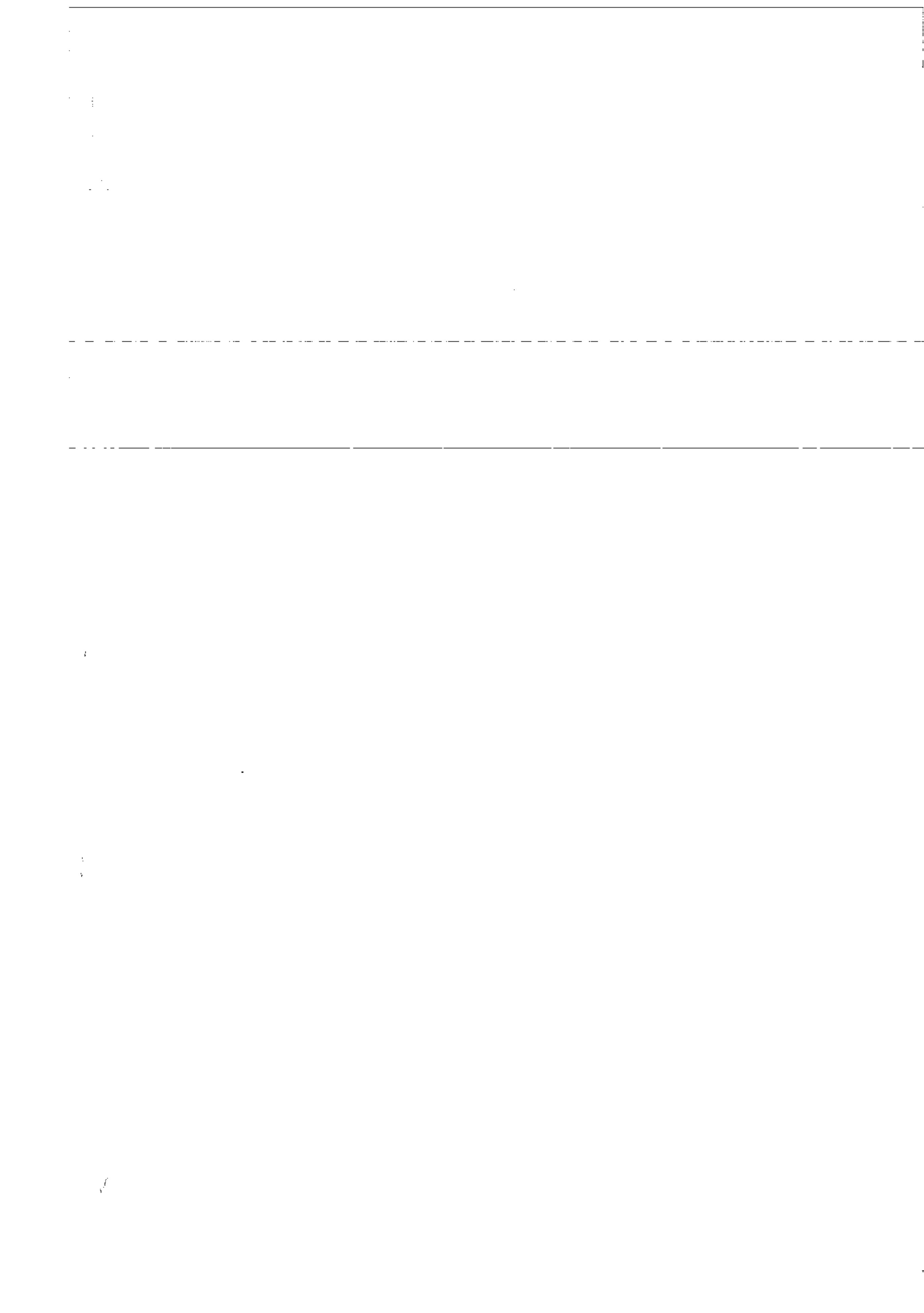
**STAUFFER. R:** La Réforme. (Que sais-Je?) N° 1376. Paris 1974.

**TREVOR-ROPER:** De la Réforme au Lumières. Gallimard. Paris 1972. traduit de l'anglais par RATIE. L.

**VASILIEIVE. A:** Histoire de L'Empire Byzantin 2 vols. Paris 1932.

**ZELLER. G:** Aspects de La Politique Français sous l'ancien Régime. Presses Universitaires de France. Paris 1964.

# الفهارس



## ١ - فهرس الإعلام

### (أ)

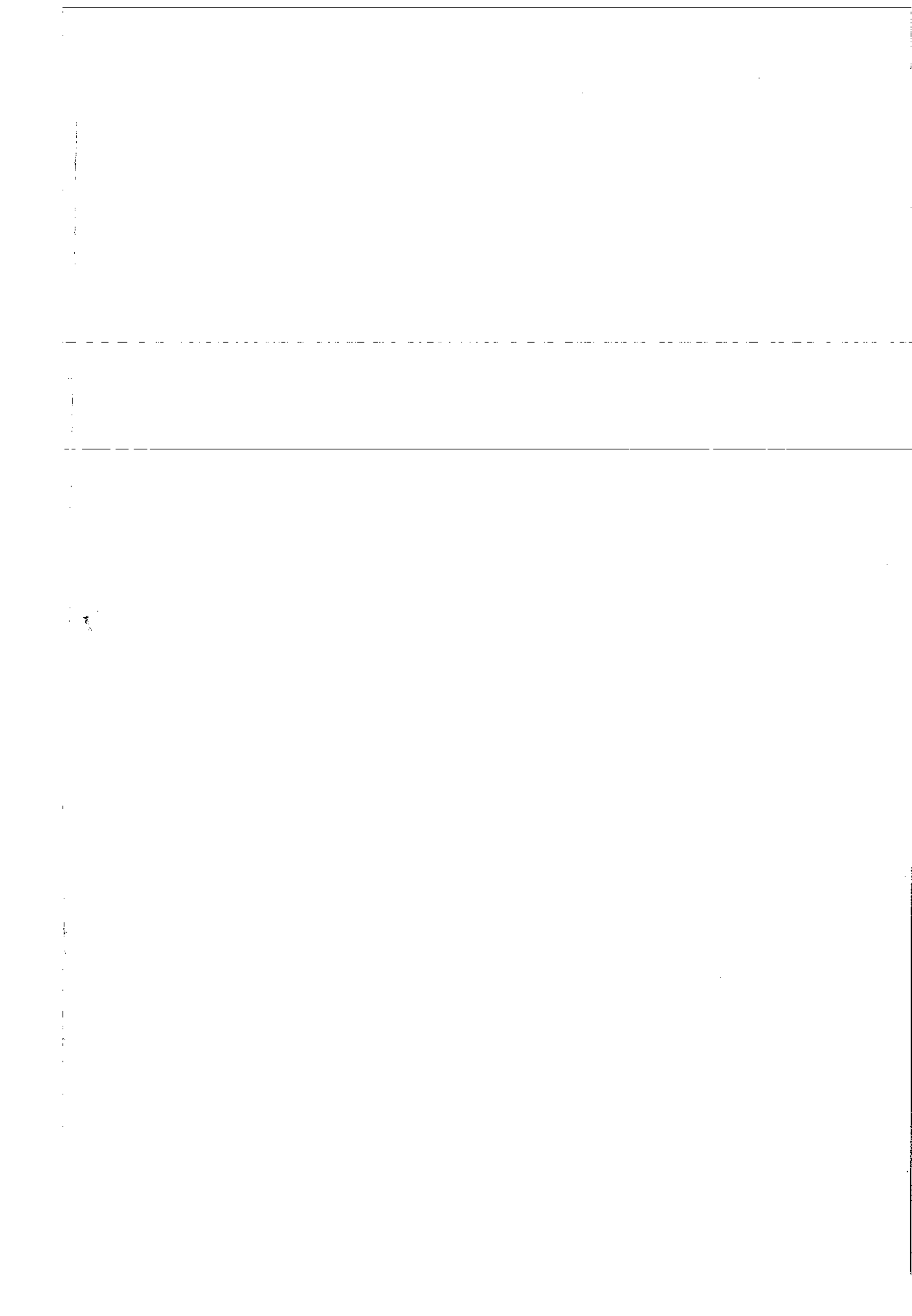
## (ق)



## (ك)



## (ل)



## ٢ - فهرس الاماكن

(أ)

## ( ب )

## (ت)



## (ج)



## (ح)



## (خ)



## (د)

## (ق)

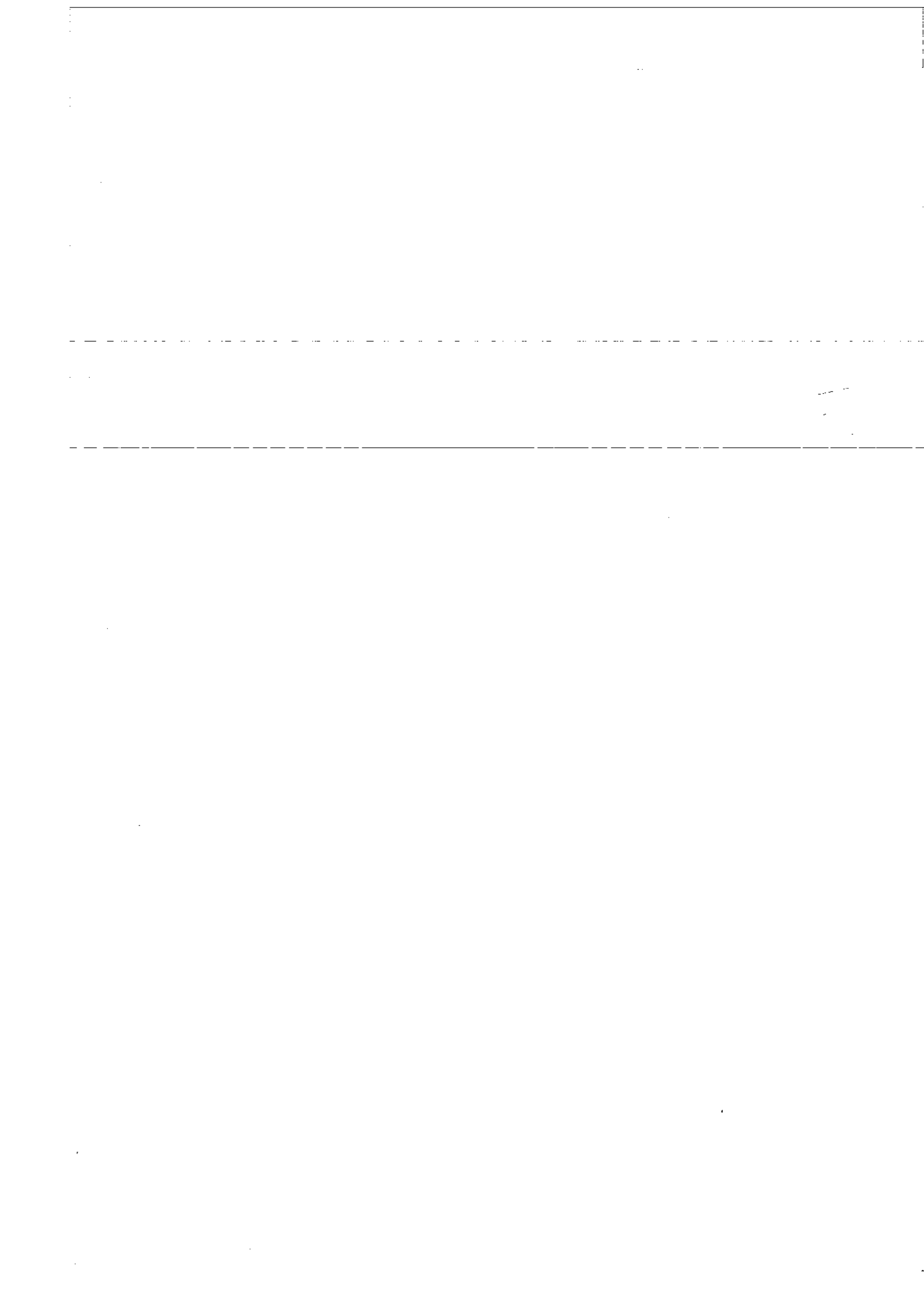


## (ك)



## (ل)

## ٣ - فهرس الاسر الحاكمة



# ٤ - فهرس المعاهدات

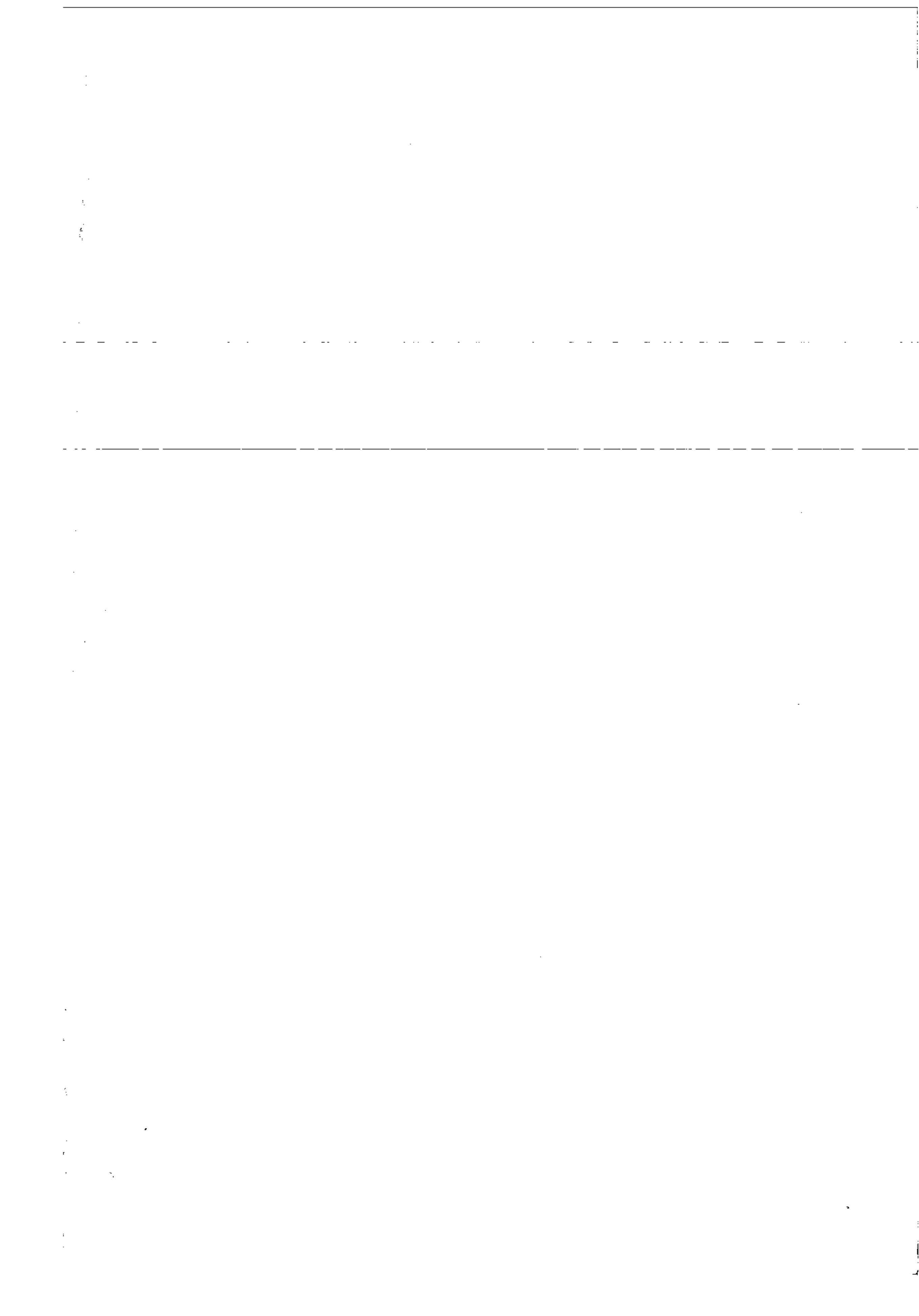
## ٥ - فهرس المجامع المسكونية



## ٦ - فهرس المراسيم والبراءات



## ٧ - فهرس المعارك الحربية



# فهرس الموضوعات

# فهرس الفهارس

الصفحة

